ابرهيم عبد القادر المازني

دار المعارف

obeikandi.com

obeikandl.com

## الإهداء

إلى ابنيّ الصغيرين

رضى عبدالقادر المازنى الذى أوفى على السادسة
وعبدالحميد عبد القادر المازنى الذى شارف الرابعة

اعترافاً

بفضلهما علىّ

وشكراً

لمعونتهما لى

فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين !.

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

ابريل سنة ١٩٣٥

obeikandl.com

obeikandl.com

# فاتحة

فى حياة المصريين ـ على العموم ـ من اللين والبلادة اكثر مما ينبغى وهم ـ على الجملة ـ أطلب للترف والرخاء السمين والراحة ، منهم للقوة والبأس والتجريب ، ولهم صبر على الفاقة اذا رقت حالهم فى بلادهم ، لكنهم لا صبر لهم على المغامرة ولا اقبال منهم على الخطأ ، وقد يضطرون الى ذلك فيتجلدن ولكن نفوسهم لا تنزع بهم الى معاناة التجريب ، خيالهم لا ينطلق بهم وراء فتنته ومغرياته ، ولست أعلم أن مصريا سكن صحراء هليوبوليس قبل أن تفكر فى استغلالها الشركة الاجنبية التى عمرتها ، بل لقد احتاجت الشركة ، بعد أن أقامت فيها العمائر ومدت اليها الترام ، أن تجتذب اليها المصريين بالملاهى فبنت لهم « لونابارك » وكظتها بصنوف من الالعاب هى بالاطفال أولى ، والى مداركهم أقرب ، ومع ذلك كله كان الافرنج أسرع الى سكناها ، وقد نشأت ضواحى القاهرة ـ كغيرها من المدن المصريه ـ بالامتداد والزحف بعد الاكتظاظ ، لا لأن مصريا آثر الخروج من المدينة فذهب يرتاد أطرافها واستقر حيث راقه المنظر ، أو أغراه الموقع ، باحتمالاته ، ثم تبعه غيره تحدوه الروح عينها أو يدفعه التقليد هكذا حتى اتسعت الضاحية واتصلت بالمدينة ـ كلا لم يحدث من هذا شىء وانما نشأت الضواحى ، كما أسلفت ، بالانتشار الطبيعى والامتداد العادى الذى لاخيال فيه ولا بعد نظر

ويتعلم المرء منا ثم يقعد ينتظر الوظيفة ولا يستغرب هو أو أحد سواه أنه لايخطر له أن يلتمس رزقه من طريق آخر ، فاذا اعترضت على هذا وقلت له ان فى الدنيا مضطربا واسعا تسألك « وماذا أصنع؟» كأنه غير مكلف أن يفكر ولا مطالب بأن يستثمر مواهبه ومعارفه وقواه ، وما أكثر الاباء الذين يصدون أبناءهم عن ألعاب معينة لان فيها مخاطرة ، بل عن المشى مسافات طويلة لانه متعب ٠وقد كانت التجارة ـ الى زمن قريب جدا ـ ولا تزال الى حد ما ، عملا لايليق بالاشراف وأدعياء الوجاهة ٠ والفلاح المصرى يغضبه أحيانا أن تقول

له اله فلاح ويعد ذلك سبة ويرى فيه اتهاما له بانه غير منجور ـ أى لايحسن أساليب الحضر أو الكلام بالاشارةوالحركة ولا يتقنمراسمهم وعاداتهم ـ وتلك بقية من أثر الحكم التركى لمصر ٠

قال لى مرة صديق وهو يشير الى رجل أنيق الثياب كان جالسا قبالتنا :

« ان هذا الرجل الذى تراه فتنخدع ليس سوى سائق سيارة ، يسوقها براكبيهـا الى حيث يريدون ويمد يده اليهم ليقبض الاجر ويظل يتلكأ انتظارا « للبقشيش » ومع ذلك ينقلب بعد أن يفرغ من عمله كما تراه الان ٠ أليس مظهره خادعا ؟ »

وأحسست من لهجته الزراية والنفور من أن يجرؤ هذا الذى ليس سوى صاحب سيارة أو سائقها ، أن يجلس حيث هو ، فقلت له :

« أقسم لك انى لااستنكف أن أكون مثله ٠ بل أنا اذا ضاقت بى الصحافة أوضقت أنا بها ذرعا لا تردد أنأشتغل بما هو أقل منذلك ولا أرى هذا يمنعنى أن أكون كاتبا أو أديبا أو شخصا له احترامه علىالعموم ، ولاأعرف يومئذ لك أو لغيركحقا فىالزرايه أوالسخرية٠ ومع ذلك الا يمد المحامى أو الطبيبأو الموظف بلالوزير يده ليقبض مرتبه كما يمدها هذا السائق للراكب ؟ فما فرق ما بين العملين ؟ ولماذا استحق أحدهما منك الامتهان والاخر التكريم ؟ »

ولما قامت الثورة المصرية واضطربت الامور رأيتنى بلا عمـــل ، فقلت استريح قليلا واستجم للمقبل من الايام الى أن تقر الفــورة وتنتظم الاحوال فذهبت الى الاسكندرية وفى مأمولى أن لااعدم هناك عملا ـ وكان لى فيها اخوان ـ فلقينى صديق كان يومئذ حميما ـ فسألنى ماذا أصنع فقصصت عليه حكايتى ونكبتى بالثورة ـ فقد أغلقت المدرسة التى كنت أديرها ـ فقال بلهجة المـذهول « لست أفهمك ٠ انى موظف ولى مال مدخر ومع ذلك أفزع اذا تصورت انى قد أصبح فقيرا ، فكيف يسعك أنت ـ ولا مال لك ولا عمل ـ أن تضحك وتمزح »

قلت « ياأخى ماهذا الفقر الذى يفزعك تخيله ؟ ان المرء لايعدم قوتا مادام يستطيع أن يعمل ، وأنت بخوفك الفقر تفسد على نفسك ما أنتفيه منالرخاء والميسرة ، والترف شىء لايناله كلأحد، وليس

يضرني أن كون واحدا من هذه الملايين التي لاتجد الا الكفاف ، وأنا أزعم نفسي كفؤا للحياة ، لاني مهذب مثقف، بل ادعى انى خير من هذه الملايين التي هي السواد الاعظم من الناس ، واقول انى من معلمها ومرشديها افازعم ذلك واكون اقل منها احتمالا للحياة وتصاريفها ، ودونها قدرة على الكدح وكسب الرزق ؟ »

وصاحبى هذا مع ذلك رجل له من الذكاء والعلم والمواهب الكبيرة ما يفجر به الماء من الصخر ·

ومررنا يوما بعامل يتوسد الحجارة ولا يألم اسنتها ولا يحفل عدم استوائها ، وكان الوقت ظهرا والشمس تشوى وجهه بأشعتها، فقال احدنا « مسكين » واشار إلى العامل

فقلت « بل المسكين الذى يستطيع أن ينام كما ينام هذا ولايغمض له جفن الا اذا كان راقدا على فراش وثير »

ومن أكبر المتاعب التى تعانيها الحكومة المصرية ان كل موظف فيها يطلب ان يكون مقره القاهرة حيث الاهل والاخوان والملاهى والمنتديات ، واسوان فى رأى الموظفين منفى ، فكيف بالسودان ؟ وقد حدثنى بعضهم أن بائع فونغرافات أخبره أنه كان يبيع من اسطوانة معينة أضعاف ما يبيع من باقى الاسطوانات مجتمعة ، وان هذه الاسطوانة المعينة كان يطلبها الموظفون المصريون فى أسوان والسودان، وكل ما تمتاز به انها تذكر التغرب عن الاوطان !

حتى ثياب الشبان تلمح فيها هذه المعانى · فهى مفصلة كأنها للنساء لاللرجال · تجعل للشاب ثديين وخصرا نحيلا وتزيف له على العموم جسما هو بالمرأة أولى ، وتظهره أطرى والين مما ينبغى ان يكون الرجل ، وترى الشاب فى هذه الثياب المرذولة وتنظر الى وجهه الذى عالجه بالكهرباء والادهنة فلا تعود تدرى أيهما هو ـ فتاة أم فتى ؟ وحسن أن يطلب المرء التجمل ، ولكن أحسن من ذلك وأمثل، أن يطلب الرجوله · وما أكثر ماترى الشبان المصريين يتضاحكون من الانجليزى ويركبونه بنكاتهم لان ثيابه رثه ، أو لا أناقة فيها ، أو لانه لايبدو كل يوم فى حلة جديدة · وتنظر إلى الشاب المصرى المتطرى وتسأل نفسك ماذا يمكن أن يفكر فيه مثل هذا ؟ الى أى

مدى تذهب اماله ! وما هو أقصى مايطمح اليه ، ولا يسعك وانـــت تعجمه بعينك الا أن تنفى عنه كل مالهعلاقة بحياة الكدح والنصب فى طلب الغايات البعيدة ، والالحاح فى المساعى على الرغم مما عسى والصبرعلىالمتاعب واحتمال المكاره ، والا أنتبرئه من امكانللجاجة فى طلب الغايات البعيدة ، والالحاح فى المساعى على الرغم مما عسى أن يمنى به من الخيبة المتـــكررة ، ولا يخطر لك الا أنه طاووس مغرور عقله فى ذيله ، وقيمته كلها فى زينة هذا الذيل . ولايجرى ببالك أنه يطلب من الحياة ، أو يجرى من نفسه مجرىالامال ، شيئا أكثر من أن يكون زير نساء وصائد قلوب ، وأن تكون له سـيارة يسوقها بنفسه والى جانبه فتاة يغازلها ، أو علىالاصح يسابقها في ميدانها ويغالبها بسلاحها ، وهو الجمال ، ولو عقل لادرك ان المرأة انما تطلب بغريزتها السليمة ، الزجولة الصحيحة لا الانوثة المزيفة

ولو ذهبت أضرب الامثال واسوق الشواهد لما كان لهذا آخر ، فبحسبى وحسب القراء ماذكرت فانه فوق الكفاية لمن تقنعه اللمحة الداله والاشارة المغنية .

وأحسب أن طبيعة البلاد تجنح بأهلها الى ايثار الدعه والراحة ، فليس فى مصر جبل شاهق أو غابة موحشة أو وحش ضار و مفازة مهلكة أو على الاقل مرعبة ، وأرضها مستويه ، وتربتها خصـبة ، والنيل يجرى فيها ولا يحوجها الى المطر ، الفلاح يحرث الارضويبذر الحب و يسقيها ويذهب ينتظر ما يكون ، وليس عليه بعد ذلك الا عمل الىلايحوج الى كد الذهن واعتصار الرأسلغالبة الطبيعة أو الجو المتقلب أو شح السماء أو كزازة الارض أو غير ذلك .والفلاح المصرى في القرن العشرين لايزال يجرى فى الزراعة على أساليب أجـداده الاقدمين منذ أكثر من أربعة الاف سنة تغيرت فيها الدنيا ولم تتغير طبيعة مصر ولا عمل فلاحها ولا حالته على الارجح و.قل فى مصر من يموت جوعا أو يعدم قوتا أو لا يجد الكفاية من طعـام وملبس ـ كائنة ماكانت درجه هذه الكفاية وصفتها ـ ولو مات البعضجوعا لصح الباقون

حتي الدين الاسلامى دخل مصر وفشا فيها فاصطبـغ بالروح المصرية ، ولســـت أعنى بذلك أن جوهره تغـــير أو أن شيئا من

قواعده اختلف ، وانما أعنى أن المسلم المصرى غير المسلم السورى أوالعراقى أو التركى أو الهندى، وان الجبرية أظهروأطم فى‌مصرمنها فى البلدان الاخرى ، وان آثارها العملية فى الحياة ظاهرة محسوسة لاتكاد تقع على مشبه لها ، وان القناعة والرضى باليسير المقسوم فى المصرى فطرة

وقد تكون هذه حصانة طبيعية فى الامه تقيها أن تفنيها الامم الاخرى وتحفظ عليها كيانها الخاص ، ولكنه لاخير عندى فى بقاء ضعيف ووجود يكون أشبه بالعدم ، وليس من الربح للامة أن تبقى اذا بقيت ضعيفة • والحصانة فى هذه الحالة لا تستحق أن تكون سببا للمباهاة وداعيا للفخر لانها تنقلب بلادة وجمودا وركودا • والأمة تتجدد بالاستمداد من‌الامم‌والشعوب الفتية لا بأن‌تصير بركة آسنة يتحاماها الحريص على الحياة

على ان الذنب ليس لطبيعة البلاد فانها سليمة ، ولو اقتصر الامر عليها لما كان من حقها أن تفضى الى هذا التفكك والانحلال والضعف والفتور ولا كان من شأن الخصب فى الارض ان يورث أهلها هذا القعود، ولقد انتجت مصر فيما غبرمدنية عالية لاتزال تدهش‌الناس وتروعهم ، وأخرجت دولا ذات بأس قوة ، شعبا كانت‌له صولة فى الدنيا وعزمة فى الحياة • ولكن الجهل المستفيض وما صنعته عصور الاستبداد المختلفة ، ثم فساد التعليم — حتى فى هذا العهد كل ذلك أسعف الروح المصرية وأكد شر ما انطوت عليه وكتم‌صفاتها الطيبة ولم يتح لها فرصة حسنة للظهور والعمل •

والتعليم عندنا كلام يحفظ ومعارف تلقن وليس هو بالتدريب ولا فيه أى أعداد للحياة ، والحياة تتطلب الخشونة والقوة والجلد ، والخيال أيضا • ولا يتوهم القارىء ان قولى « الخيال » مزاح ، فان المرء لا بد له من أن يتخيل الغاية ويحلم بها حلم اليقظه لا النوم والكسل حتى‌تستبد بهواه وتستولى على‌لبه فيسعى‌لها سعى‌المصمم• والخيال يحتاج اليه الغزاة الفاتحون والعلماء والرواد والمستكشفون والمخترعون كما يحتاج اليه الروائيون • وما من شك فى أن كولمب تخيل الارض دائرة وتصور الطريق حولها قبل أن يصمم على‌رحلته التى قادته إلى الدنيا الجديدة • ولا ريب أن نابليون كان يحلم بأوربه

تحت قدميه قبل أن تهيىء له الظروف الفرصة للعيش فيها بجيوشه . والثمر يسقط كل ساعة عن شجره ولكن خيال نيوتن هو الذى هداه الى نظرية الجاذبية وهو يرى التفاحة تهوى الى الارض . والآلات بأنواعها التى لاآخر لها قد احتاج مخترعوها أن يتخيلوها ويرسموا لها فى أذهانهم صورة ما ، قبل التفكير فى صنعها وتحقيق احلامهم بها . وليس فى بيوتنا ولا فى مدارسنا شىء يشجع الخيال او ينمى القوى الطبيعية أو يظهر الملكات الكامنة أو يعود القلب الجرأة أو يغريه بالتفكير المستقل الذى يؤدى الى الابتكار والمجازفة . وليس من الاتفاق المحض ولا المصادفات التى لاتعليل لها ان أكثر من تسعين فى المائة من المتخرجين فى المدارس لايفتحون كتابا غير ماقرأوا فى المدارس ولا يشعرون برغبة فى الاستزادة من المعارف وتوسيع أفق النفس وترحيب دائرة النظر . وليس من المصادفة كذلك أنه لا يخطر لهم أن يقضوا اجازتهم الا فى مدن أخرى إذا لم يقضوها فى العاصمة، فلا يجرى ببالهم مثلا أن يقوموا برحلة الى صميم الريف أو أن يخرجوا الى الصحراء فيقضوا بها اياما فى الخيام وعلى الجمال مستطلعين متمتعين . أو أن يذهبوا الى مكان غير مألوف أو مطروق . وانما كان هذا كذلك لان النشأة المنزلية والمدرسية لاتشجع الابتكار ، ولا تثير روح الاستطلاع ولا تخرج بالنفس عن المجارى المعتاده ، وأكثر الذين يشذون عن السواد الاعظم ويقبلون على التحصيل المستقل أو يبدو منهم ابتكار فى آرائهم أو سيرتهم أو مجدهم أو لهم انما يكونون فى الاغلب والاعم متأثرين بعوامل اخرى غريبة عن البيت المصرى والمدرسة المصرية كأن يكونوا اتموا تعليمهم فى بلاد أخرى ، أو أعداهم ما قرأوا بعد المدرسة ، أو بغير واسطتها على الاقل ، الى آخر ماعسى أن يكون هناك من الدوافع الاجنبية عن الوسط المصرى الصرف .

وخير لمصر أن تكون معارف أبنائها أقل وروحهم أقوى وخيالهم أنشط وقلوبهم اجرأ ، فما أقل ما يغنى المحفوظ من العلوم والمعارف لتأدية الامتحان ، ونحن قد نستطيع أن نحصل كل ماعند الغربيين من المعارف والآداب ونبقى مع ذلك نجر أرجلنا وراءهم ولايبدو لنا أمل كبير فى ادراكهم واللحاق بهم ، لان العبرة بالروح التى أثمرت هذه المعارف والآداب ، وبالطبائع القويه التى أخرجت هذه الاثار

وانتجت المدنية الغربية ، لابالاثار نفسها · وانت قد تستطيع أن تمد يدك فتجنى الثمرة الناضجة من فوق الشجرة ولكنك لاتنقل بذلك الشجرة الى حديقتك فيظل ما جنيت محدودا وتظل الشجرة تثمر فاكهة أخرى ، كذلك نحن انما ننقل عن الغرب الثمار دون الاصول ، فلا نعنى بذلك ، ونتخذ المظاهر ونفرح بها ونتيه ولا نعبأ بالحقائق التى ورائها

وفى الروح المصرية كآبة ومرارة هما من فعل الاستبداد على الحقب الطويلة ، والكآبه تفتير ، والمرارة تزهيد ، ولولا ماتركه فيه الاستبداد لما كان ثم من داع لتلقى الحياة بغير السرور والاقبال والنشاط ، فان الحياة لاتحزن ، وهى تلقى بالمرء فى الدنيا ،وتلقى الدنيا كلها أمامه ليصنع بها ، ويبلغ فيها ،ما يريد أو مايقوى عليه · ولكنا نسىء الظن بالحياة ونقبل عليها حذرين مشفقين متلفتين غير مطمئنين لانا ورثنا سوء الظن بما يضمر الاسبداد ـ فأعدى أعداء الروح المصرية الاستبداد ـ والا يرد اليها اشراقها ونضارتها وجرأتها واقدامها الا الحرية وطول العهد بها والاطمئنان اليها فى الحياة الخاصة والعامة

ولست أرى لنا أملا فى حياة تستحق اسمها مالم نستوثق من حريتنا مالم نعالج أنفسنا ـ الى جانب ذلك ـ بالقوة ننفثها فى كياننا ، وبالخشونة نروض أنفسنا عليها ، وبالخيال نرقرقه ونشيعه فى حياتنا الجافة المصوحة ونردها جائشة تغرينا بالمثل العليا وتدفعنا الى الطماح وتقذف بنا على المهالك ـ نعم المهالك ولا أقل من المهالك ـ فان الامم لا تنهض بالرقة والطراوة بل بالفحولة المستبشرة فى السراء والضراء على السواء ، فان البشر من القوة ، والذى يحتمل الهزيمة ويبتسم لها وهو مدرك لمداها ، أكبر ممن لا يعرف الابتسام الا حين يؤآتيه الحظ ـ تلك ابتسامة الفطنة الدقيقة والارادة القوية وهذه ابتسامة الخفه

وبعد فقد لايكون هذا الكلام أصلح مايكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص ، ولكن روح الفاتحة من روح الكتاب وهذا شفيعها عندى فعسى أن يكون شفيعها عند القراء

obeikandl.com

# صور من الامس

obeikandl.com

obeikandl.com

# قبل جيل

كانت لحياة المصريين فى المدن منذ جيل أو نحو ذلك مظاهر اجتماعية ما أسرع ماعفت عليها الايام ونسختها المدنية الغربية الزاحفة . ولم تبق منها الا كايماءة الخرس : تشير الى المعنى ولا تفصح عنه . ومن العسير أن يلم الكاتب بجوانب تلك الحياة وأن يثبت صورها كلها . ولكن مما يعين القارىء الذى لم يدركها على تخيلها أن نذكر له على سبيل التمثيل ، لا التقصى والاحاطة ، أن هذه العمائر الجديدة التى تذهب فى الهواء طبقة فوق طبقة لم يكن لها وجود ، ولا كان أحد يفكر فى ابتداعها أو يحلم بقيامها أو يحس الحاجة الى انشائها ، وكان الاغلب أن تكون الاسرة كلها فى دار واحدة . وقل أن تكون الدار الا ملكا للاسرة التى تسكنها فاذا لم يكن هذا هكذا فان سعى الاسرة أو عائليها يكون الى شراء دار . والعمارة الواحدة من العمائر الحديثة تسع من الاسر الان أكثر مما كان يسع الشارع قبل جيل . وكانت روح المصريين هى روح ( أولاد البلد ) فاذا انتقلت أسرة من بيت الى بيت عدها أهل الحى الذى انتقلت اليه ضيفة عليهم فى الليلة الاولى ، وتقدم الجيران الاقربون اليها بالطعام والماء ، وبذلوا لها كل عون ، ورفعوا عنها مؤونة التفكير فى الاكل والشرب أو الاشتغال بهذه الشئون ، ويسروا لها ان تتخلى لترتيب البيت الجديد وفرشه ، وكان الساكن الجديد يعرف ذلك فلم يكن يكلف نفسه أن يطبخ شيئا .

وكان الرجل اذا بنى بيتا أو تزوج أو زوج ولدا أو بنتا أو كان فى بيته ختان أو ولادة أو مأتم ، تلقى من خيرته وأصحابه وذوى قرباه الهدايا على صور شتى تلائم الظرف . وليس من الضرورى أن يكون المهدى صديقا للمهدى اليه بل يكفى أن يكون جارا له أو فى حارة واحدة معه .

وكان التزاور فى المواسم والاعياد سنة مرعية وكان أهل « الحارة أول من يزارون ولو لم تسبق بهم معرفة . ولم تكن المقاهى بهذه

الكثرة ولا المطاعم كما هي الان في طريق المرء أينما سار • وكان أكثر مايجتمع الناس ويأكلون ويشربون ويسمرون في أفنية الدور، وفيما كان يسمى « المنظرة » أو « التختبوش » أو « السلاملك » تبعا لسعة الدار وطراز بنائها ولم يكن ثم مصابيح غاز ولا كهرباء ولا كانت مصلحة التنظيم تتولى الكنس والرش ، فكان كل ساكن يعلق في الليل مصباحا ببابه ويتولى بواسطة خدمة كنس الرقعة التيأمام بيته ورشها • وكثيرا ما كان رب البيت نفسه يجلس على كرسى أمام الباب وفي يده خرطوم الماء وينهب يرش الطريق وهو لايستنكف ولا يرى أن هذا دون مقامه • وما أكثر ما كان الخادم يكون واقفا الى جانبه لا يعمل شيئا و « السيد » يباشر العمل ويوجه الخرطوم الى هذه الناحية أو تلك • فاذا أقبل جار نهض وحول الخرطوم الى ناحية بعيدة ونادى « كرسي ياولد » • ولم تكن ثمة مكاتب للتخديم ، يؤتى منها بالخدم فيقضون أياما أو أسابيع أو شهورا ثم يستعفون أو يطردون لسرقة أو خيانة أو عجز أو بلادة أو قلة أدب كما هو واقع الان •وانما كان الخدم يربون في البيوت ينشأون فيظل أهلهاوتحت عيونهم ورعايتهم ، فاذا ، كبروا ودخلوا مداخل الرجال زوجوهم وأبقوهم في كنفهم

وكان الزواج حادثا اجتماعيا ضخما ، يعنى المصريون بابرازه والاعلان عنه والمفاخرة به ، ويتخذ منه رب الاسرة أداة للظهور ،وان كان الاسراف فيه كثيرا ماأدى الى الافلاس بعده ، ومن هنا تلك « الافراح والليالى الملاح » التى ينكرها ولا يعرفها أبناء هذا الجيل ، وفي هذه « الافراح والليالى الملاح » يتمثل الفرق بين الجيلين ، الحاضر والماضى ، من حيث النظر الى الحياة والغاية منها ، ومهمه الانسان فيها ، فالزواج كان أكبر حادث في حياة الفرد ، وكانت هذه الحياة قوامها ارضاء الغريزتين : حفظ الذات وحفظ النوع ، ففى سبيل الغريزة الاولى ــ الفردية ــ كان الرجل يعنى بطعامه وسروره ويجتنب أن يرهق نفسه ويكدها أكثر مما يستوجب الامر ، ويتحاشى المتعبات والمنغصات ما استطاع ، وكانت حياته لذلك في الاغلب والاعم فرحة تنشد الطرب والسرور وتتقى الهموم ، أو تغرقها في كأس من الشراب او ماهو اليه ، أو تتسلى عنها بالسماع

والاجتماع والسمر • ومادام انالحياة الى زوال وكل ريح الى سكون ، والعسر الى يسر ، والله يفعل مايشاء ، الملك له ولا معقب لحكمـه ، فما خير أن ينحر المرء نفسه أسفا ويقتلها غما ؟؟ ولم يكن للشعب شان بأمور الحكم ، ولم تكن الحكومة تعنى بتعليم الشعب أو تثقيفه واخراجه من ظلمه الجهل ،بل لعلها كانت تملى له فى هذا الفتـور وتشجعه على هذه الفلسفه ، وترى فى ذلك سلامتها وأمنها وراحتها واطمئنانها ، ونحن اليوم نؤمن بأكثر ما كانت الاجيال التى تقدمت جيلنا تؤمن به ، ومن ذا الذى لايؤمن بأن الموت حق وأن لاسلطان للمرء على المقادير ؟ وأنا لننشد السرور كما كان أسلافنا ينشدون ونتوخى ماتقضى به الغريزة الفردية لانا مدفوعون الى ذلك بقوتهـا لابارادتنا ، ولكن نظرتنا الى الحياة صارت غير نظرتهم ، وكون الموت حقا أو غير حق لايمنع أن يكون للفرد طماح على الرغم من هذا الموت الحق ، بل ان كونه حقا ربما كان مشددا للعزم ومضاعفا للسـعى ومقويا للهمة ، ثم أن لنا الى جانب ذلك حياة عامة لم تكن لتلـك الاجيال ، فالمجارى التى تتدفق فيها قوانا الفردية أكثر وأعمـق وأفتن ، والميادين التى تتسع لنشاطنا أكبر وأرحـب وأخلب ، والسرور واللذة عندنا منشودان ولكنهما بحكم الاحوال التى انتقلنا اليها ، أو انتقلت هى بنا ، خلسة مختلس • ونحن نحيا بأعصابنا أكثر مما نحيا بحلوقنا وبطوننا ، وما أكثر مايتمنى الواحد منا لو كانت أعصابه عارية لايكسوها لحم ولا جلد ليكون احساسنا بوقع الحياة أدق وأسرع ، واستجابتنا لها أوفى وأتم

وفى سبيل الغريزة النوعية ـ وحفظ النوع ـ كان الزواج تلك الحادثة الكبرى فى حياة الفرد ، فلا يكاد الواحد يولد ، حتىيذهب أبواه يفكران في الزوجة الصـــالحة له ، وقد تكـــون تلك الزوجة المستقبلة وليدة مثله ، وقد يكتب لها أن تعيش وقد يقسم لها الموت الوحى فى طفولتها ، ولكن الابـوين لا يستريحان الا اذا فعلا شيئا يرضى مطالب هـذه الغـــريزة ويشعرهما الطمأنينية ، وكثيرا ما كان الاب يقرأ الفاتحة مع والـــد آخر ، تمهيدا لتزويج الطفلين بعد أن يشبا ويبلغا مبالغ الحلم ، وقد يكتفيان بالتفاهم ، وربما تولت الامان ذلك ، واتفقتا على أن فلانا لفلانة •

ويكبر الغلام ويشتد ويتجه خاطره الى الزواج بفضل ايحاء والديه – أو أمه فى الاكثر والاعم – ويقع الاختيار على فتاة تكون أو لا تكون هى التى لهج بها الابوان فى صدر أيام الفتى • وتقام « الافراح والليالى الملاح » التى أعدت لها العدة من قبل ، وليس من الضرورى أن يكون المرء غنيا ، فان الفقير يسعه فى دائرته ما يسع الغنى بثروته ، والتعاون سنة كما أسلفنا ، والناس آثر للسرور وأطلب له ، والعرس فرصة ، ويعلم من أدركوا ذلك الجيل أن صاحب الدار الذى سيكون فيها العرس لم يكن له من الامر شيء ، فقد كان الاهل والرفاق والجيران هم الذين يحتمون هذا وذاك ، وكان رب البيت ربما عاد مساء من عمله فوجد الدكك مرصوصة فى الحارة أمام بيته والمصابيح معلقة والكراسى معدة ثم يجيء الاخوان على عادتهم كل ليلة ، فما يليق أن يدعوا صاحبهم وحده ينهض بهذا « المهم » بمفرده ، ويقبل الجيران وأهل الحى ممن يعرفهم أولا يعرفهم رب الدار وتخرج القهوة أو القرفة أو غير ذلك ثم تبدأ ( الضمة ) •

والضمم هذه ليالى تحييها جماعات من الهواة تكون كل جماعة منها فرقة قائمة بذاتها مستقلة عمن عداها ، ولكل حى فرقة واحدة أو اثنتان أو أكثر ، وهذه الفرق يدعى بعضها لاحياء هذه الليلة أو تلك من ليالى الضمم التى تسبق ليله البناء ، ولكن كون واحدة مدعوة لسبب من الاسباب قد لا يرجع الى أكثر من علاقة شخصية بين أحد أفرادها وبين صاحب العرس او صديق له ، لا يمنع أن تتطوع فرقه أخرى منأبناء الحى للحضور والمشاركة فى أحياء الليلة بغير دعوة • ويهون الاقدام على هذا التطوع أن كل الفرق – مدعوة كانت أو غير مدعوة – لا تتقاضى أجرا • ولم يكن بالنادر – بل كان ذلك مألوفا – أن تتبرع فرقة من حى آخر بعيد– وذلك لان بين هذه الفرق من الهواة تنافسا وتسابقا ، وكل منها تشتهى أن تفوز بالسبق والشهرة – أو على حد تعبيرهم « تأخذ الصايح » – واحسب الصائح معناه السامر الصائح بآهات الاستحسان وكلمات الثناء وعبارات الالحاح على المغنين أن يعيدوا ويكرروا ويطربوا النفوس ويشجوا القلوب مرة أخرى •

وآلات هذه الضمم أو فرقها بسيطة ليس فيها عود ولا قانون ولا كمنجة وهي أدوات « التخت » والاغلب أن تقتصر على الطبلة و « الرق » أو الدف وربما زادوا عليهما الزمارة مزدوجه أو مفردة. وقد يجيئون بالربابة • ويجلس الفتيان على دكتين متقابلتين ويقدم لهما الشراب ويقف فى خدمتهم أهل الدار واخوانهم • ثم يبدأ الغناء بتوشيح ثم ينفرد زعيمهم وأحلاهم صوتا – ولعله صبى صغير – بموال يغنيه ويطرب فيه ويرجع ويشدو ويمد الصوت ويقصره ، ويرفعه ويخفضه، ويفصل بين النغمات بما يشبهالتنفس من السكت ولا تنفس هناك ، مع عودات متوالية الى بعض ما سبق، كل ذلك فى صوت حسن وارنان شجي وبحح مطرب حتى يحط اللحن فى مستقره ، فتنطلق أصوات السامعين باتف طويلة مديدة من نغمة الغناء •

ويتفق أن تكون هناك فرقة أخرى جاءت متطوعة ومعها شرابها، فتغار ولا يكاد الموال ينتهى حتى ترفع هيالصوت بالغناء ، منافسة به الفرقة المدعوة ومتحدية لها، ويتعصب الانصار لكلمن الفرقتين، وينقسم السامر الى معسكرين وتتوتر الاعصاب ويرسلها واحد ضحكة مقرقعة منطوية على السخر ، وتفور الدماء فى العروق ، وتتعالى الاصوات ويكثر اللغط وتشتد الضوضاء ويتقاذف المعسكران بالنكات تعقبها القهقهات وتذهب كل فرقة تقاطع الاخرى ، واذا بزجاجة تطير وتصيب واحدا فى رأسه أو ظهره ، أو غير ذلك ، فتثب الاجسام الى الارجل ، وترتفع الكراسى فى الهواء ، ويحمل الاقوياء الدكك يضربون بها خصومهم ، وتمتد الايدى الى ما تحت الثياب وتخرج العصى المخبوءة وتهوى المصابيح وتطفأ الانوار فلا تعود ترى شيئا أو تسمع سوى ضوضاء وأصوات الكراسى والدكك المتهاوية على الابدان والعصى تقرقع والصيحات تند عن المصابين •

ثم تنجلى المعركة عن سامر منفض وكراس ودكك محطمة !

ولميكن الناس يطلبون الزواج للزواج فقط بلللنسل ، وللنسل من الصبيان فى الاكثر ، لان الرجل هو الذى يفتح البيت ويحفظ اسم الاسرة ، فاذا لم يرزقه الله ولدا ، تزوج مرة ثانية وسرح

الزوجة العاقر أو المئناث ، أو أبقاها ، ومن هنا فى الاكثر الزواج بغير واحدة .

ولسنا كذلك الآن ، وانا لنطلب الزواج ونريغ النسل ، ولكننا لا نجعل ذلك غاية الغايات ، وأقصى ما تتعلق به اللبانات ، وسواء عندنا أن يجيء نسلنا ذكورا أو أناثا ، ونحن ندرك الآن أن المرء يستطيع أن يخدم النوع بغير النسل ، وأعنى بآثار علمه أو أدبه أو فنه . وللمرأة بيننا مقام قريب من مقام الرجل ويوشك أن يعادله ويساويه ، وليست العلاقة الجنسية بالتى نجعل بالنا اليها ونتحرى ما يساعد عليها ، فى طعامنا وشرابنا ، فان العاطفة الجنسية قد تجد ما يرضيها فيما دون التعارف الجثمانى من حديث ونظر وغير ذلك . وهذا الفرق بيننا وبين اسلافنا فيما يتعلق بالمسائل الجنسية راجع الى الفرق بين ما نفهمه من الجمال الآن وما كانوا يفهمون منه ، فان الجمال ليس جسما ولكنه روح ، وهو ليس شيئا يوزن بالرطل وانما هو معان وتعبير تدرك وتحس بضمير الفؤاد .

# جر الشكل

## شيء من التاريخ ...

جر الشكل : جذبه وجلبه أيضا والشكل ( بالتحريك) الاشكال. وجر الشكل فى اصطلاح العامة هو الشخص الذى يتصدى عامدا لاناس معينين ويتحكك بهم ليثير الشجار ويجر العراك ، وكان لكل حى من أحياء القاهرة ــ منذ عشرين أو ثلاثين سنة ــ عصبة من الرجال الاشداء يدعونهم ( الفتوات ) ينسبون الى حيهم فتقول مثلا ( فتوات المنشية ) أو ( فتوات الدراسه ) أو ( فتوات الكحكيين ) وكانت وظيفة هؤلاء الرجال أن يغيروا على أندادهم من رجال الاحياء الاخرى ــ لا ليسرقوا أو يسلبوا ــ فقد كانوا أنزه من ذلك وأسمى منزع نفس ، بل ليضربوهم ويعودوا معقودا لهم لواء النصر عليهم. وقد يتفق أن يكون خصومهم أقوى منهم وأفحل فيرجعوا محطمين مهزومين ، فكانت الاغارات مستمرة والغزوات لا تنقطع ، وكان يحلو لهؤلاء الجفاة الغلاظ القلوب والابدان أن يوهموا الناس أو يوهموا أنفسهم أنهم فوجئوا بالغزوة ــ وان كانت لهم عيون وجواسيس فى الحى المغير يخبرونهم بموعد الاغارة ــ وذلك ليستطيعوا أن يدعوا اذا انهزموا انهم كانوا على غير استعداد او ان رجالهم كانوا مبعثرين فلم يشهدوا المعركة ولم يحضروا الدعكة ولم يتسن لهم أن يشدوا أزر اخوانهم أو أنهم ــ اذا كتبت لهم الغلبة ــ وسعهم أن يقهروا خصومهم على الرغم من المباغتة وعدم الاستعداد وتشتت النصراء ..

وكانما كان فى قرارة نفوسهم شعور بان من الواجب تسويغ هذه المناوشات ، فكان لكل عصبة صبى هو الذى يدعونه ( جر الشكل ) يتعرض لخصماء فريقه فيقذفهم بحجر أو كرة أو يصطدم بهم ، ويفطن هؤلاء الى أن هذه بداية الشر وفاتحة الحرب فينهرونه وعيونهم تتلفت باحثة عن المختبئين وراء الابواب وفى مداخل البيوت ، فيصيح الفتى ويرفع عقيرته بالصراخ أو الشتم أو الاستنجاد فيخرج المختبئون على صوته لنجدته ، فيختفى الصبى

وتدور المعركة ويحمى وطيسها ويمتد ميدانها وتتسع حلبتها فتجاوز الحارات الى أفنية البيوت ، تتحطم العصى فيعتاض منها المتضاربون كل ما تصل اليه أيديهم ، ثم ينكشف الغبار عن أنوف دامية وعيون وارمة وأشداق مقطعة ورؤس مشجوجة وعظام مرضوضه ومع ذلك لاشكوى ولا ألم ٠٠

و ( جر الشكل ) لا تقتصر مهمته على ما أسلفنا الاشارة اليه فان عليه ـ والمعركة دائرة ـ أن يحضر الغائبين وأن يغذيها بغير ذلك مما يدخل في طوقه من الاشتراك العملى ٠ وقد تسأل « وماذا يسع صبيا كهذا أن يصنع ؟ ماذا يبلغ من جهده وهو لين العظام؟» فأقول ان الذى يقدر عليه لا يقوى عليه الكبار لانه يؤدى فى هذه المعارك وظيفة ( المتراليوز ) ذلك أن هؤلاء الصغار يدربون أنفسهم على ضرب من الرماية كان مألوفا فى تلك الايام ، ولا أعلم أن أترابهم فى هذا العصر يحسنونه ٠ فكانوا يخرجون الى التلال أو الصحراء ويجمعون حجارة دقيقة مستديرة بحجم الريال أو نصفه ودون سمكه ـ ويتناولها الواحد بين ابهامه وسبابته ويطيرها مسددة الى ما يقذفه بها فتصيبه بحدها وتكون أقطع من السيف ويفتن الواحد منهم فى ذلك فيأتى بالمطرب المعجب ولا يخطىء هدفه أبدا ٠

وان المعركة لدائرة وقد اختلط الخصوم بالانصار ، فهنا اثنان يتماسكان بالتلابيب ويتناطحان بالرؤوس ، وهناك العصى تقرقع وتقع على الرؤوس تارة وعلى الجنوب أو الظهور أو السيقان تارة أخرى ، وقد تنقصف فترمى الى الارض وتنوب عنها الايدى والركب والادمغة والحجارة ، وها هنا يعيث آخر بعصاه كالشيطان ويخبط يمينا وشمالا ويضرب كل من يلقاه بلا تمييز بين عدو وظهير ، وتتمزق الثياب ، وتنهار الشقوق والفتوق فى كل ناحية، وتشوه الوجوه بما يسيل عليها من الدم ، وما يحدث لها من الانتفاخ والورم ، وما يكسوها من الاتربة والاوحال ، فيجىء الصبى ويقذف ولا يغلط ولا تخطىء يده خصمه ولا تقع ( الرائقة ) ـ كما كانت تسمى هذه الحجارة ـ الا على يافوخ الخصم العاتى فتقطع ( اللاسه ) و ( اللبدة ) التى تحتها وجلد الرأس تحتهما ، وتدور الارض بالمسكين فيترنح كالمخمور الى جدار يستند اليه أو عتبة يقعد عليها ولا يعود له عمل فى الحومة ٠

وقد كنت ككثير غـــيرى مفتونا برمى ( الرائقة ) فاتفق يوما أن كنت أتدرب عليها فى الحارة فأصابت ابن شيخ من العـــلماء كان ينازع صبيا من أصدقائى الذين الاعبهم فهـــوى الى الارض كالجثة وفزعت وعذت بالبيت • ولا أدرى كم مضى من الزمن واذا بالشيخ العالم ومعه صاحب له وبينهما الغلام المصاب ، يصفق فى فناء الدار وينادى أن ( هاتوا الولد اللعين • لا بد من سوقه الى البوليس ) وكنت مطلا من الشباك ( شيش النـافذة ) فطار عقـلى وكاد يقف قلبى ، فهربت واختبأت فوق عدد من المراتب كانت مطروحة فـوق صندوق كبير ، ودخلت تحت الغطاء المنشور عليها ، وعلقت أنفاسى على قدر ما يستطاع ذلك • والدموع فى عينى تترقرق • وفى حلقى شىء يخنقنى • والبحث عنى دائر فى كل مكان • أمى وجـــدتى تدخلان واحدة فى أثر الاخرى ثم تخرجان • وأسمع منهما مايطمئن وما يقلق فى آن معا • ولا أتحرك • ويشـــتد قلقهما على وعجبهما لاختفائى فجأة وقد كنت منذ لحظة تحت عيونهما • فأقـول لنفسى معتذرا من ازعاجهما ( لان يزعجهما غيابى خـير ألف مرة ــ لى على الاقل ــ من أن أساق الى البوليس وأحبس فى القسم ) وبعد فترة طالت على ، صارت أمى تدخل كل غرفة وتقـــول فيها بصوت عال ( لاتخف يابنى • لقد ذهبوا • اخرج الى ) فلا أصدق واسىء الظن حتى بأمى وأتوهم أنهاحيلة لاقتيادى الى البوليس وأخيرا يهتدى أخى الصغير الى مكانى وتلمح عينه شيئا يتحرك فوق المراتب فيصيح بأمى فتشد الغطاء فأنفجر بالبكاء المكتوم •

ولا أطيل •• ظهر للشيخ العالم انى ابن فلان ابن فـــلان وكان جدى شيخه واستاذه فصفح عنى ولكنه أبى الا أن يسدى الى نصحا فجرونى اليه وأنا لا أزال أتوجس وأخشى أن تكون تلك حيلة لحملى الى القسم • فلم أعرف الاطمئنان الا لما رأيتـــه يهش لى ويمسح لى رأسى ويرقينى ليطرد عنى الشيطان الذى يغـــوينى « بالشقاوة » ومنذ ذلك اليوم أكره البوليس •

* * *

وأكثر ما كانت تدور المعارك فى الليل حـين يزف الرجـــل الى زوجته وكانت العادة الشائعة أن يخـــرج به أهله والمدعـــوون الى

عرسه ويوقدوا الشموع حوله ويسيروا به فى الطرقات وأمامه الزامرون والراقصون على الانغام • فيجىء « الفتوة » ويقف الجمع ويطلب أن يزمروا له دورا معينا يرقص عليه • وما من بأس أن يجاب الى طلبه • ولكن العجب أن القبول لم يكن يحدث الا فى اللفتات المفردة ويغضب الفتوة أن يرفض رجاؤه • فيهوى بعصاه أول مايهوى على الزامرين ويثنى بالزوج المزفوف وما أسرع ماتظهر العصي وتحمى الوقدة ويتبعثر الموكب ويعود الزوج وعلى وجهه وثيابه ندوب وجروح وآثار لا توائم ما كان يحتفل به من أجله •

ولم أر أنا هذا ولكني سمعته من صديق أديب قال : « انه كان يعرف رجلا من هؤلاء الفتوات كان فيه شذوذ غريب فكان لايتعرض للزفات لان هذا لا يلائم مزاجه ، وانما يتعرض لجنازات الموتى فينهال على حاملى النعش بالضرب ويمطرهم وأبلا من قرع عصاه حتى يحطوا حملهم أو « الشغل » كما يسمونه ويجروا ، فيتركهم ويمضى راضيا عن نفسه •

ولم تكن « ضمة » من « الضمم » تنتهى الا بموقعة عنيفة • والضمة كما يعرف أو كما لا يعرف القراء هى الحفله التمهيدية لليلة الزفاف • فيجىء أولاد البلد ويجلسون على الدكة ويغنون والناس يستمعون • وهؤلاء المغنون فى الاغلب والاعم متطوعون من أصدقاء الزوج ، أو اخوان معارفه ــ كما بينت فى الفصل السابق ــ يجيئون بشرابهم معهم ، وقل أن يطلبوا من رب الدار شيئا من الطعام يتنقلون به على شرابهم • فكان يحدث أن يجىء فريق آخر من « أولاد البلد » ــ يغلب أن يكونوا من حى آخر ــ ويتخذون لهم دكة فى الطرف الآخر من السرادق ، أو الحارة ، وينطلقون يغنون بدورهم ، وقد يقاطعون الاولين • وقد يكتفون بالمنافسة حين يسكت أولئك • وربما اختاروا من الادوار ما فيه تعريض بهم ، وقد يطلق واحد من هؤلاء أو أولئك نكتة يرد عليها آخر من المعسكر المقابل ، ثم تسكت الالسنة ، أولا تسكت • وتنطق العصى ، ولكن ميزة هذه المعارك وفضلها على سواها أن الدكك والكراسى هى أدوات الضرب • وهى مناظر كانت تروعنى وتفتننى ، فأقف مسحورا أتأمل الكراسى الطائرة والدكك الصاعدة

الهابطة والمصابيح الهاوية والظلام الشامل المحيط والصياح ، والضجيج ، والصخب ، ثم الفرار حين تجيء قوة كافية من الشرط

ولا أزال أذكر أنى اضطررت مرة أن اختبىء تحت الدكك العالية التى توضع للمغنين والتى تسمى « التخت » فلما خلا السامر ، وأطفئت الانوار ، وفر المتضاربون أمام الشرطة هممت بالخروج من تحت الدكة واذا بيد خفير تمتد الى وتقبض على ويقول صاحبها « تعال الى القسم » •

فضحكت وقلت : « ياهذا • أتترك الذين تضاربوا وهدموا السرادق وأحالوه كوما من الكراسى المحطمة ، وتلا من الدكك المتراكمة وتجىء الى ضيف متوار مخافة أن يصيبه سوء تريد لتسوقه الى القسم • »

فلم يقتنع وجرنى الى القسم وهناك لقى من الضابط جزاءه •

* * *

وقد مضى ذلك العهد بشره وخيره ـ ان صح ان له خيرا ـ وجاء عهد آخر ليس فيه « فتوات » فقد انتظمت شئون الامن ، واستقر النظام ، وتهذبت النفوس ، ورقت أيضا • ولكنى كلما فكرت فى الامر بدالى كأن طراز آخر من الفتوات قد نشأ وحل محل القديم• وكان ضربا جديدا من « جر الشكل » قد برز الى الوجود ـ طراز لا يتقاتل فى الحارات ولا يفسد «الزفات» ولا يحيل ليالى «الضمم» الصادحة كوما من التحطيم والخرس ، ولكنه يفسد الحياة ويسود وجوه العيش ـ وجر شكل لا يتحكك بالافراد ولا يرسل «الرائقة» تشدخ الرأس وتفتح اليافوخ وتقطع الانف أو الصدغ ، ولكنه يتصدى للجو فيعكره وللنفوس فيثيرها ويرهج الغبار ويرسل القذائف يضرم بها النار ثم يمدها ويغذيها بما يؤرثها ويدعها تزغرد ـ تلك هى على الترتيب أحزابنا وصحفنا ••

وكم رحت أعجب لقسمة الحظ • كنت فى حداثتى لا أتردد أن أؤدى وظيفة « جر الشكل » فى معارك الحارات • وقد شببت عن الطوق جدا ولكنى أرى آخرتى ما زالت معقودة بأولاى ، فقد طوفت ما طوفت ثم انتهيت الى الصحافة وعدت ـ كما كنت ـ «جر شكل»

# الساحر

كنا بضعة صبيان فى الحارة نلعب « النرجيلة » وهى كما أعرف الآن ـ وكما يعرف كل من كان صبيا ، فى زمانه ، وقد كنا جميعا كذلك . فما يولد الناس كبارا بلحاهم وأسنانهم ـ لفظة محرفة عن الفرنسية ـ تر يونجل ـ معناها المثلث . نرسمه بسن الحجر على الارض ونقيس بضعة أمتار ونرسم خطا مستقيما لا نحسن رسم مثله بالقلم على الورق فى المدرسة ـ لا أدرى لماذا ـ ثم يضع كل منا « بليه » أو أثنتين أو ثلاثا فى المثلث ويرمى كل منا بواحدة الى الخط فمن كانت «بليته» أقرب اليه كان له الابتداء من الخط فى اتخاذ ما فى المثلث هدفا له لاخراجه منه وربحه . وهكذا . كذلك كنا نلعب واذا بالساحر بيننا ، ولم يقل لنا أحد أنه هو ، ولا كنا رأيناه من قبل ولكن عينيه الحادتين الغائرتين دلتانا عليه ، ولحيته الكثة الهائجة وشت به والخيزرانة التى فى يمينه نمت عنه ، وكان فى ما عدا ذلك كسائر خلق الله . على قدميه ـ وهما أول ما رأينا ونحن مثنيون ننظر الى البليات المتصادمة ـ « بلغة » عتيقة كانت فى أيام جدتها صفراء ثم ازداد لونها على الايام لاشحوبا ـ كما هو حالنا نحن بنى آدم ـ بل قوة وعنفا وامتلاء ، فانقلبت حمراء ثم أخذت حوافيها ولا سيما حيث تحف بالاصابع ـ تسود وفوق ذلك ساقان عاريتان عليهما غابة كثيفة من الشعر ومما يلى الركبتين خيوط وهلاهل من نسيج قميص أزرق باهت مشدود الى وسطه بحزام من الليف فوقه عب منتفخ لم نشك ـ ونحن ننظر اليه ـ أن فيه غلاما مخبوءا ، فارتفعنا بعيوننا عنه بسرعة فلقيتنا عينيه بنظرة سمرتنا حيث كنا فتراخت أعصابنا فتفلت « البلى » من بين أصابعنا الى الارض ولم يعد بيننا واحد ربح وآخر خسر .

هو الساحر بلا ريب . لا الحاوى . كلا ، فقد كنا نعرف الحواة ولا نرهبهم ولا نتقى أن نعابثهم ، أما هذا فخلق آخر وطراز جديد ، نظرته وحدها كفيلة بمسخنا حجارة أو عصافير . وخيزرانته لها ـ وهو يحركها على الارض ـ صدى فى رؤوسنا . ولحيته خيل الينا

أنها غربان حول وجهه فارتعنا ولنا العذر ولو رأيته الآن مرة أخرى لكان الارجح أن أرتاع للذكرى على الاقل ، ووقفنا جامدين • ولم يخط الينا ولا رفع عينه عنا ولا كف عن هز خيزرانته هزا رفيقا كأنما يستعين بذلك على التفكير فيما يصنع بنا والى أى حيوان أو طير أو جماد يقلبنا ••

ولبثنا كذلك دهرا كاملا ثم غلبنا الحزن على أنفسنا فاستهلت عيوننا وارتفعت اليها أيدينا الفارغة وانثنت رؤسنا التى كظها هذا الساحر بالاهوال التى اعتزم أن يذيقنا اياها •

ومن حسن حظى أنى أفقت قبل سواى • لا لأنى كنت أقوى من غيرى أو أقل استعدادا للتأثر بالسحر ، بل لان الحذاء كان ضيقا جدا .وكانت الحركة تعيننى على احتمال ضغطه ، واللعب يساعد على الذهول عنه ، ولكن الوقفة لطولها جعلتنى أحس كأن مسامير محمية تغرز فى أصابعى • فلم يسعنى من فرط الالم الا أن أنصرف الى أوجاعى ، ولم يخف على الساحر أن شيئا يوشك أن يرقينى ، ورآنى أتلفت الى ناحية بيت فردنى الى سحره بتوجيه الكلام الى • فقال ما معناه « هذا بيتك » مشيرا بالخيزرانة •

فدهشت من هذه القدرة على معرفة بيتى ، ولم يكن رفقائى أقل دهشة منى على ما يظهر فقد انطلقت ألسنتهم وانحلت عقدها فراحوا يتلاغطون فيما بينهم بكلام لم يكن بالى مجعولا اليه •

وبعد هنيهة قال الساحر « اسمع يابراهيم ، فانى أظن هذا اسمك ، اذا لم تجئنى حالا بنصف ريال « سخطتك » عقابا لك على ما فعلت وذلك بعد خمس دقائق فأنت الجانى على نفسك »

فصعقت • وماذا كنت تنتظر ؟ لقد عرف اسمى أيضا بعد أن عرف بيتى • فلا بد من أداء الفداء والا ••

وبينما كنت أفكر فى نصف الريال من أين أجىء به وأنا أسمع به ولا أراه سمعت صبيا يقول له « أتستطيع أن تمسخه قردا ؟ نصف ساعة فقط ! لنرى ونلعب ثم تعيده •• نعطيك كل ما معناه

فلم أسمع الباقي لاني انطلقت أعدو الى البيت وقلت لامي «نصف ريال · بسرعة · »

فقالت : وهي لا تكاد تصدق ما تسمع « نصف ريال ؟ اجننت؟ مالك ؟ »

قلت : وأنا أقبلها بعد كل كلمة « اصنعي معروفا · بسرعة · أتحبين أن ترى ابنك قردا ؟ اسرعي »

وأحسست أن الدقائق الخمس كادت تنقضي ، فارتددت عنها وجعلت أمسح وجهي بيدي لأتحقق من أنه لم يلحقه تغيير ، وأتأمل ثيابي وأنظر ورائي ، ومن بين رجلي ، لأرى هل نبت الذيل ؟ ثم تنهدت وعدت الى التوسل ، والرجاء ، فقامت عني وهي تقول : « ماذا جرى للولد يا محمد ؟ »

فتعلقت بثوبها وصحت بها « لا·لا· ساصير قردا بلا شك · » وقعدت على الارض وذهبت أبكي وأندب حظي ، وجذبني محمد ــ وكان خادما كهلا نشأ وتربى وتزوج في بيتنا ، ولكنه قوي حازم ــ وخرج بي الى الطريق ، وأنا أحاول التخلص عبثا · فأقعد على الارض فيسحبني ولا يبالي صراخي ، ولا يكترث للاوحال التي زانت ثوبي حتى صرنا عند الصبيان فأخلي سبيلي ووقف ينظر ــ وأنا من ورائه ــ الى الساحر · على بضعة أمتار منه · وفي هذه اللحظة فقط رأيت أن الساحر ليس وحده وان له رفيقا أقصر منه وأرث ثيابا وأصغر سنا ، وكان محمد يعري ذراعيه ويطوي كمه ، وسمعت الساحر يقول لزميله « أترى النظرة السوداء التي في عينيه ؟ »

فقال زميله « رأيتها من قبل أن يصل · التفت اليها ·· احتياطا ! »

وقال الساحر وهو يتنحى لرفيقه « اذن الكمه · اضربه قبل أن يضربني »

فرفعت عيني الى محمد في دهشة فاذا به ماض في طي كميه غير

عابىء بشىء ، وسمعت الزميل يقول « فلننتظر مرور العسكرى ٠ فلست أحب أن أريق دمه »

فقال الساحر وعينه على محمد « سأشهد لك ٠ فاضربه ومتى القيته على الارض فسأركله برجلى فى وجهه »

وفى هذه اللحظة التفت محمد الينا وقال « ابعدوا قليلا ٠ لاتدنوا منا ٠ أو ادخلوا البيوت ، وأطلوا من النوافذ اذا شئتم ٠ هذا اسلم لكم ٠٠ والآن ٠٠ »

فقال الزميل « ولكنى قلت انا سننتظر العسكرى ! قلت هذا الآن ! أليس كذلك ؟ »

فقال الساحر « لا موجب لهذا »

فقال محمد وهو يخطو « كذلك لا موجب لبقائك على ظهرالارض يا نصاب »

فصاح الساحر لزميله « لماذا لا تضربه ؟ سيسبقك وتفوتنا الفرصة »

فقال الزميل « دعه يبدأ ٠ فانه بذلك يكون المعتدى »

ولكن الساحر لم يقنعه هذا المنطق وأيقن أن لا نجاة له فأطلقها صرخة زحمت النوافذ بالرؤس المطلة ، واختلط الحابل بالنابل كما يقول المثل ، وهوى الساحر الى الارض بلكمة فى صدره ، وتلاه زميله فتداعى الى جانبه من تلقاء نفسه ومن غير أن تمسه يد، وزايلنا الفزع وذهب الروع واطمأنت نفوسنا ، فدنونا وسمعنا الساحر يقول ـ وهو يتكلم بسرعة ـ كأنما يخشى أن تفوته فرصة أو لا تتسع لكل ما يريد الافضاء به ـ انه لا يخاف الموت ، بل هو يتمناه ويرحب به ، وقد كان دائما يدعو الله فى عقب الصلوات الخمس بأن يدنى أجله ويلحقه بالابرار من آبائه وأجداده ، ولكنه يعز عليه أن يحرم الدنيا مزية وجوده ، ويؤكد أن مهمته فى الحياة لم تنته ، وان صحته ليست على ما يرام ، وان زميله اذا لم يدق رأس المعتدى بحجر فانه سيعد احجامه هذا وتقصيره اهانة شخصية له ٠

وكان صاحبه قد نهض ووقف على عتبة باب على بعد مطمئن من حومة المعركة التى لم تمدد فيها الا يد واحـدة ، وكان لا يكف عن إصدار الأوامر الينـا جميعا أن نقف فى مكاننا وأن لا نتحرك يمنة ولا يسرة والا كنا بلهاء مغفلين . ويدعونا بصـوت عال أن يقبض بعضنا على بعض حتى يمر العسكرى والا كنا مستحقين للحكم علينا بالاشغال الشاقة ، وأحطنا نحن الصبيان ـ بلا خوف ـ بالمهرجين فما كانا غير ذلك وان لم نفـطن الى حقيقتهما فى أول الحكايه . وقضيناها ساعتين أسعد ما مر بنا فى حياتنا ، نضـحك ونمسك جنوبنا من الالم ونتلوى ونقع على الارض ويترامى بعضنا على بعض ونتعانق والدموع مسبلة على خدودنا من فرط السرور والضحك .

# كيف كدت أقتله

اظنني يومئذ فى العاشرة أو الحادية عشرة وكان بيتنا فى أحد تلك الاحياء الوطنية التي يتجاور فيها الغنى والفقر · وكان البيت عجيب الطراز ، له بوابة ضخمة تصلح أن تكون لقلعة ، ومع ذلك لا تغلق فى ليل أو نهار ، ثم مدخل طويل ضيق على جانبيه الغرف وهى أبدا موصدة الابواب وان كانت أفرغ من فؤاد أم موسى — أعنى أنه ليس فيها شىء سوى جدرانها المدهونة ، وبين هذه الغرف اصطبل لبغلة الشيخ — أخو جدتى — وحمار ابنه وهذا المدخل يفضى الى فناء واسع فى ناحية منه مصلى وميضاء جافة — أعنى ليس فيها ماء — وقبالة المصلى ما كان يسمى فى ذلك العهد « التختبوش » وهو يرتفع عن الارض درجة ، أو درجتين وتحف به المقاعد والكراسى ويجلس فيه الشيخ وضيوفه فى الصيف ، فاذا كان الشتاء هجروه الى المنظرة وبابها على التختبوش ·

وكان الوقت صيفا والمدارس معطلة ولا عمل لنا نحن الصبيان الا اللعب فى الحارة · لكنى لم أكن ألعب مثلهم النهار كله فقد كان أهلى اذا عطلت المدارس فى الصيف يبعثون بى الى كتاب فى الازهر لاحفظ القرآن ، فلم يكن يتاح لى أن ألعب الا بعد العصر ، فاتفق يوما ان كنت عائدا من الكتاب ، فلما اقتربت من البيت ألفيت اثنين من الصبيان جيرانى يشتجران ، فوقفت أنظر ثم ذهبت استحثهما كما يفعل سواى من الغلمان المحيطين بهما وأصيح كما يصيحون « الديك يتف فى وش الفرخة » حتى حميت الوقدة وصارت المعركة حارة · وأعدى غيرهما بحماسة الموقف فتشابكوا وعم التضارب والتلاكم · كنت أنا بمعزل عن ذلك ، أنظر وأصفق وأحدث كل ما يدخل فى مقدور حنجرتى الصغيرة من الضوضاء ، ولكنى لا أندفع الى الاشتراك فى الموقعة ، وأخيرا خارت الايدى وتخاذلت الارجل وفترت الحماسة بعد أن تمزقت الثياب ونزفت الانوف ، وتحاجز الابطال ولم يبق سوى اثنين لم تبرد حرارتهما ولم تكل أيديهما ،

فعالجت التفريق بينهما كما عالجت التحريض من قبل ، واقبلت عليها أريد أن أفصلهما ، واني لاحاول ذلك واذا بانفي تصيبه لكمة غير مقصودة ، ولكنها أدارت رأسي فلم أعد أعي ما أفعل فاهويت على أحدهما بيدي ورجلي بغير احتياط ، أو حذر ، وكانت تلك مزيتي في معاركنا الصبيانية ، فبينما كان غيري يتقي أن يصيب عين خصمه أو أذنه أو غير ذلك من المواضع الحساسة ، كنت أنا لا أتقي شيئا من ذلك ، ولا أبالي على أي موضع تقع يدي أو رجلي فكانت ضربة أو اثنتان تكفيان لالجاء الخصم الى الفرار وان كان أقوى وأمتن مني أسرا ·

ويظهر أني أصبت المسكين في موضع حساس حين رفسته فهوى الى الارض وانطرح عليها كالجثة ، وقيل مات ، فجمد الدم في عروقي واستولى علي الفزع فذهبت أعدو الى البيت ، ومن الغريب اني لم أشعر بشيء من العطف عليه أو الرثاء له فقد كان كل ما يكظ رأسي ويدور في نفسي اني لا محالة مأخوذ به وأن البوليس لا شك قابض علي فملقي بي في الحبس ، فماذا أصنع ـ كيف أتقي الحبس ؟ ـ تسللت الى ما يسمى في بيوتنا القديمة « الخزنة » وهي غرفة ضيقة مظلمة يكدس فيها مالا يحتاج اليه من أثاث البيت وأمتعته من مثل الصناديق والمراتب والمخدات وما الى ذلك · كان فيها صندوقان عليهما المراتب مسواة الى قريب من السقف ، فصعدت الى ظهرها وسترت نفسي بالمخدات ورحت أنتظر الشرطة الذين سيجيئون للقبض علي ، وأنتظر المعجزة التي ستنقذني منهم · وكنت أبكي وأنتفض من الخوف ، غير أن الامل مع ذلك كان شائعا في نفسي ، مالئا لشعابها وكنت كل بضع دقائق أرفع رأسي وأكف عن البكاء ، وأنظر الى الدموع التي بللت الفراش تحت خدي ، وأتسمع هنيهة ثم أقلب المخدة وأضع رأسي ·

ثم كان ما خفت أن يكون ـ شرق فناء البيت بالرجال والصبية وكثر اللغط وعظمت الضجة ووصلت الضوضاء الي ، وان كنت قد بقيت عاجزا عن تبين الالفاظ وفهم ما يقال · سمعت أمي وجدتي تروحان وتجيئان وهما تناديان وتسألان عني ، ولا تجدان أحدا يرشدهما الى مخبئي أو يفضي اليهما بنبأ عني · وكنت أسمع

اسمي فأتجمع وأحبس أنفاسي ، وصارت أذناى مرهفتين لكل صوت . وكنت أحاول أن أغمض عيني فلا أستريح ، فأفتحهما وأرفع رأسي قليلا . أفعل ذلك بالغريزة ولا أدرى لماذا يكون فتح العين أعون على حدة السمع . ثم خفتت الاصوات ، وسكنت الضجة واذا بأمي داخلة تتجسس المراتب ، وتلمس يدها في الاركان وتهيب بي أن أنزل وألا أخاف فقد انتهى الامر ، ولم يبق ما أخشاه ، وأنا قابع لا أتحرك ولا أجيب ولا أطمئن كأن من الممكن أن تكون أمي البا على مع الشرطة .

فخرجت ولكنها لم تغب سوى دقيقة أو نحو ذلك ثم عادت فجأة ونادتني بغتة فخانتني الارادة ، وأذهلتني المباغتة عن الحرص فرددت فضحكت وجذبتني اليها وقالت « تعال يا مجنون . عسى أن تهذبك هذه الحادثة فقد كاد الولد يموت ، وكان أبوه متشددا مصرا على سوقك الى البوليس ولكنه لما عرف من أبوك ومن جدك لان وفاء الى الرضى ، فقد كان جدك شيخه فاذهب واعتذر له فانه يريد أن يراك»

وقد ترددت في الذهاب مخافة أن تكون هذه مكيدة مدبرة للقبض على ، غير أن أمي ظلت تلح وتداورني حتى اقتنعت ، وانحدرت الى التختبوش .

والمدهش بعد ذلك من أطوار الطفولة انى دخلت على الرجل أبتسم ! والواقع الذى أذكره انى كنت أحاول وأنا في طريقي اليه أن أعبس واتكلف مظاهر الحزن أو الاسف أو الخجل ولكن محاولاتي هذه كانت تزيد ميلى الى الضحك .

وتلقاني الرجل ـ وكان شيخا وقورا ـ هاشا ، باشا ، وأخذني بين ذراعيه وقبلني ومضى يحدث من معه عن جدى ويقول : «لا يسعني غير الصفح ، فان من علمني حرفا صرت له عبدا ، وقد كان جده شيخي وأستاذى رحمة الله عليه . الفاتحة على روحه »

وبينما كانوا هم يقرأون الفاتحة ـ دوني ـ أدرت عيني فرأيت الغلام المسكين الذى كدت أقتله ، فمضيت اليه وأقبلت عليه أعانقه ولم يكن هو دون أبيه مروءة وكرم نفس

# الحـارة اللعينة

كنت فى الثانية عشر أو الثالثة عشرة من عمرى الذى لم أكن أقدر أن يطول – على خلاف ما يحسبه الشاب عادة من الثقة بأن الاجـــل مديد ، والموت بعيد – بل هو لا يكاد يخطر بالبال ، أعنى الموت ، حتى يقال أنه يبدو للمرء فى صباه بعيدا ، والمرء فى شبابه يكون أشبه بالمصعد فى جبل لا يرى ما راءمن الناحية الاخرى ، ولا يفكر الا فيما هو فيه من مشاغل الاصعاد ومتاعب التوقل ، ولكنى كنت على خلاف ذلك أعتقد أنى كالزوبعة – والزوابع قصيرة ألاعمار ، لا تكاد تثور حتى تستنفد مجهودها وتذهب من حيث جاءت – غير أن هذا الامل خاب كما خاب كثير غيره – ان صح أن يسمى اليأس من الحياة أملا

وكان مسكننا يومئذ بيتا من البيوت التى يدعونها «بيوت الغز» ولا علم لى بهؤلاء الغز ، ولا رأيت منهم أحدا فى حياتى ، وكنت فى حداثتى أخجل أن يقال ان بيتنا من بيوت الغز لتوهمى أن الغز لا شك أناس معيبو السيرة ، فلما كبرت عرفت أن المراد المماليك أو من هم فى حكمهم ممن كانوا هم السادة فى وقت من الاوقات ، ويظهر أن بيتنا كان لرجل دائم الوجل لا يزال يتوقع العـــــدوان ويحذره ويحب أن يتقى مفاجاًته ؛ فقد كانت بوابته كبوابة المتولى – كبيرة هائلة تغطيها المسامير الضخمة التى يعدل رأس الواحد منها رأس طفل وكان له رتاج غليظ يدخل فى جدار عظيم السمك ، أما المدخل مما يلى البوابة فطريق ملتوى ينعطف يمنة ويسره ، وفيـه مخابىء ومكامن تتصل بها دهاليز خفية ، والمرء لا يستطيع فى النهار أن يبصر كفه من شدة الظلمة ، وكنا نضع مصباحا ولكنه لم يكن يضىء شيئا ، بل كان كل ماله من النفع هو أن يرينا شدة السواد ويزيده وقعا فى النفوس ·

وفى الصحن الواسع شجرة جميز عتيقة عظيمة كثيفة الغصون

تسد النوافذ وتمنع النسيم أن يروح عن نفوسنا في الصيف ، وكنا نعرف أن الجو جميل والهواء عليل من خشخشة الاوراق لا من مصافحة الهواء لوجوهنا ، وقد يكون اليوم حارا والهواء فى الغرف راكد ونحن نكاد نختنق ، ثم نسمع صوت الاوراق فيلتفت بعضنا الى بعض ونبتسم ونتشهد ونقول « الله ٠٠ لقد رق الهـــواء وطاب الجو » ـ ونمسح عرقنا مع ذلك ٠

وكثيرا ما كنت أستغنى ـ فى نزولى ـ عن السلم ، فأهبط من النافذة الى الارض مباشرة بلا حاجة الى لف السلالم ودورانها ، ومن غير أن أتعرض للتدحرج عليها والتكسر على حجارتها، وكانت طريقى هذه الجميزة العظيمة الذاهبة فى الهواء الى السطح ، فكنت أقف على حافة النافذة بعد رفع زجاجها وأتناول فرعا غليظا وأتعلق به وأتوكل على الله ، وربما طاب لى المقام بين الاغصان فأقعد كالقرد وأجمـــع بكلتا يدى وأرمى فى فمى ، ياما أكثر ما تصورت أنى عصفور غرد وان كان حشو فمى الجميز ، فانطلق أغنى ، ولا شك أن غنائى كان جميلا ، فقد سمعت أن الجميز فى الشدقين يجعل الصوت حلوا ٠ ولو وكل الامر لاختيارى لآثرت السكنى فى هذه الشجرة ،ولقضيت حياتى بين أكل الجميز والغناء ، وهذا على كل حال خير من قضائها ـ كما فعل الفارابى ـ بين زجاجتين من خمـــر وحبر ، ولكنى كنت لا ألبث أن أكف عن التغريد وأنقطع ـ مرغما ـ عن الشدو ، لانى كنت أشرق ـ لا أدرى لماذا ـ بل أنا أدرى ، فقد كان أخى ـ وهو أصغر منى ، أو على الاصح « كان » أصغر منى ثم صار هو الاكبر على ما يدعى ـ يحسدنى وينفس على حلاوة صوتى ، وكان ربما ذهب يبكى الى أمى ، وكان الخبيث يزعم أنه انما يبكى خوفا على أن أقع فأموت ، فتأمل !! فكانت أمى تجىء الى النافذة وتأمرنى أن أنزل حالا ، والغريب أنى كنت لا أخاف النزول ـ حالا ـ الا حين تكون مطلة من النافذة ، فكنت أبلع ما فى فمى ـ أزدرده بلا مضغ ـ وأدس الباقى فى جيبى ثم أعلن اليها انى خائف ، اذا نزلت ، أن تدق عنقى ، فتسأل

« وما العمل ؟ »

فأقول مقترحا : « يحسن أن تأمرى الخادم أن يسند السلم الكبير الى الشجرة لانحدر عليه »

فتحدجنى أولا بنظرها ، ثم تذهب ، وأتوهمها فرصة ، فأكر على الجميز ، واذا بالماء ينصب على رأسى ويغرق ثيابى • واذا بكفى تعلان بين الغصون ، وبعد ثوان أكون على الارض من غير سوء الا هذا البلل ـ وهو فى الصيف مستحب ـ

وكانت غرف البيت قاعات قد تصلح للرقص والمحاضرات أو سباق الخيل ، ولكنى لا أراها صالحة للسكنى وبخاصة فى الشتاء ، وكانت نوافذها المطلة على الطريق من النوع الذى يسمى ـ المشربيات ـ وهى طنف أو كنة أو سقيفة أو روشن مشرف خارج من حائط الدار الى الطريق ـ مساحة الواحدة من هذه المشربيات تسع فيلا عظيما ، وسبب هذه السعة أنها بارزة من الحائط فى الطريق ، فاذا عرفت أن للبيوت المقابلة مشربيات أيضا وأن الطريق حارة ضيقة ، وان هذه المشربيات من الجانبين تتدانى وتكاد تتلاصق ، فهل فى وسعك أن تصدقنى حين أقول لك أن الحارة كانت فى الحقيقة أشبه بسرداب أو نفق تحت الارض •

وكنا نضع قلل الماء على حوافى هذه المشربيات لتبترد ، وكنت أحيانا ألفيها فارغة فأمد يدى الى مشربية الجار وأشرب ، ثم أفرغ قلله فى قللى ، فكان الجيران يغيرون القلل كل يوم ، أو على الاصح يشترون قللا جديدة غير هذه التى لا يبقى فيها ماء ظنا منهم أن فيها ثقوبا ، ثم عرفوا الحقيقة ـ اتفاقا ـ أو على الاصح بصروا بى أصب قللهم فى قللنا فباغتونى مرة فارتبكت وأردت أن أسرع فأرد قلتهم الى مكانها ، ولكنى اضطربت فسقطت القلة من بين المشربيتين على عمامة خالى !

ولا أحتاج أن أقول انى عدوت الى سريرى وتناومت

* * *

والحارة كما أسلفت ضيقة ، ولكن هذا الوصف لا يغنى فى تعريف القراء بها ، لذلك أحب أن ازيدهم بها معرفة فأذكر انى فى ثلاث سنوات طويلة لم أبصرقط بائعا متجولا يدخل هذه الحارة ، ودع الحمير وغيرها من دواب الحمل فقد كانت اذا مرت بالحارة

تدير وجوهها الى الناحية الاخرى ، فتالله ما كان أحلاها من سنوات هادئات لم يزعجنا فيها أو يطر النوم من جفوننا بائع أو صائح أو ناهق ، ثم أنها فضلا عن هذا كانت حارة تترفع عن أن تكون ميدانا للعب الاطفال ، وتتعمد أن تكون عونا لآبائهم على احسان تربيتهم فكل لعبهم فى صحون بيوتهم • ثم أنها كانت تخيفهم وتعبس لهم فتسود الدنيا فى عيونهم ويهربون منها ويتقون أن يخرجوا اليها فى الليل • واذا أرغموا على الخروج فى نهار الناس مشوا على حذر ، وسايروا الحائط ، وقلوبهم تجف ، ومفاصلهم تتخلخل ، وركبهم تصطك ، حتى اذا بلغوا رأسها وضعوا ذيول أثوابهم بين أسنانهم وخرجوا منها كالمدفع ، فتهز الحارة رأسها وتقول : « حسن ! وهل نويتم ألا ترجعوا حتى تفرحوا بالخروج ؟ سترون ماذا أصنع بكم حين تعودون • فصبرا قليلا ، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الادب يا ملاعين » •

وكان الواحد منا حين يؤوب ، يقف بباب الحارة والعرق يتصبب ، والرعب باد فى معارف وجهه ، فيظل يتمسح بالجدار مستعطفا وهى لا يدركها عليه عطف ولا تأخذها به رحمة ، فيقف منتظرا وقد شاع اليأس والرعب فى نفسه ، حتى يدخل الحارة رجل فيفرح ويدخل معه ويتحكك به ويتحبب اليه ويتطفل بالحديث عليه ، حتى اذا بلغ باب بيته قطع الحديث فجأة ودفع الباب بكل ما فيه من قوة ، ثم رده وراءه بعنف مخافة أن تتعقبه الحارة ، فانها خبيثة ماكرة ، لا أمان لها ، ولا اطمئنان اليها

ولم نكن فى رمضان أحسن حالا ، أو أقل خوفا من هذه الحارة القوية ، وكان صبيان الحارات الاخرى يكتفى الواحد منهم بمصباح واحد •أما نحن فلم نكن نقنع بأقل من مصباحين كبيرين لكل منا•ولم نكن أطفالاعلى الحقيقه •ولكنى أسلفت أنها حارة قوية يتضاءل أمامها المرء حتى يرتد جنينا ، فكنا اذا أردنا الخروج نتنادى أولا من المشربيات ثم نوقد المصابيح ونقف وراء الابواب مستعدين للبروز والهجوم ، حتى اذا سمعنا الصفير المتفق عليه ، فتحنا الابواب مرة واحدة ، وخرجنا متماسكين ، والمصابيح ممدودة بها أذرعنا ، كالحراب نشق بها كبد الحارة ـ ولكن هيهات •• هيهات •• فما

كانت أقل منا استعدادا لهذا الهجوم فكانت ترسل على مصابيحنا تيارا من هوائها البارد فتنطفىء ، فنروح نحن نتخبط ونتصادم ، فيتحطم زجاج المصابيح ، ويهوى بعضها الى الارض ، ويوطأ بالاقدام واذا بالجيش المتساند قد انقلب فرقا وشيعا متضاربة ، والحارة اللعينة تضحك منا وتطلق فى آذاننا صفير السخرية والتهكم .

★ ★ ★

وما زلت الى اليوم أذكر كيف خرجت مرة مع الخارجين فى رمضان ثم تركتهم ومضيت لشأنى ، فلما عدت كان الليل قدتنصف فوقفت على باب الحارة مترددا – أأدخل ؟ . ومن أين أجىءبالشجاعة الكافية لاقتحام هذه الحارة ؟ واذا لم أدخل فماذا عسى أن أصنع ؟ أأذهب الى بيت عمتى ؟ . ولكن بيتها فى شبرا والحارة فى درب الجماميز .. أم أقصد الى بيت جدى . ولكن هذا أبعد .. فما العمل ؟..

وقفت أتلكأ برهة وأفكر فى حيلة أغافل بها الحارة فلم يفتح الله على بشىء ، وضاق صدرى وكدت أيأس ، واذا بى ألمح الخفير مقبلا وفى يمناه النبوت المألوف يدق به الارض ويتنحنح ، فقلت يا فرج الله ! وانبسطت أسارير وجهى ولمعت عيناى – أو لا بد أن يكون هذا قدحدث وان كنت لم أر وجهى – ودنوت منه ، وعلى فمى ابتسامة عريضة وتمنيت فى هذه اللحظة لو أن لى شاربا طويلا لافتله وأنا واقف أمامه لاشعره انى ند له ، وحييته برقة فقال بخشونة :

« انت مين ؟ »

فقلت فى سرى « سيىء الادب » غير أنى ربأت بنفسى أن أنزل الى هذا المستوى وقلت ببساطة

« أنا »

فكأنى زدته بنفسى جهالة فعاد يقول

« انت مين ؟ »

فقلت شارحا مستغربا « ما قلت لك أنا »

ويظهر أن هذا الشرح أقنعه فقد انتقل الى سؤال آخر

« واجف هنا ليه »

فقلت معترضا منكرا

« مش واقف »

فعاد يسأل ملحا « امال بتعمل ايه دولوغت ؟ »

فقلت « ولا حاجة »

فلم يقنعه هذا النفى الشامل وقال « ولا حاجة ازاى يعنى ؟ ٠انت منين ؟

قلت « من هنا »

قال « هنا فين ؟ »

فحمدت الله وقلت « تحب تشوف بيتنا ؟ ٠ تفضل ان كنت مش مصدق »

وظننت أنه لا محالة مجيبى الى ما اقترحت ، ولكن السخيف اكتفى بأن يقول :

* * *

« طيب روح ٠٠ ولا تبجاش تتلكع فى السكك بالليل »

وأدار وجهه ومضى عنى كأنما كان كل بغيتي أن يجود على بنصيحة

عدت الى الحارة أجر ساقى ٠ وقد نسيت أن أقول ان فى الشارع مصباح نور لشركة الاضاءة قريبا من مدخل الحارة ، وهو يرسل نوره فيها منحرفا ولا يضىء الا خطوات ، فلما بلغت الحارة رأيت رجلا قادما فدخلتها ووقفت فى النور ، حتى مر فبرزت مرة أخرى ، وصنعت هذا مرات حتى مللت فاستخرت الله وقلت أعدو الى الباب

ولكن الباب قد يكون موصدا فماذا أصنع ؟ وبأى شىء أدق الباب حتى يسمعنى من فى البيت ويفتحوا لى ؟ فعدت الى الشارع لانتقى حجرا ، ولكن الخوف ظل يساورنى فقد يطول دقى ووقوفى بالباب، ولم يكن خوفى أن يظهر لى عفريت ، كلا فما أخاف العفاريت ، وانى لاحبهم ، وقد حاولت مرات أن أخرج واحدا منهم أو « أحضره » فلم أوفق مع الاسف ، وعلى أن العفاريت – حتى لو كنت أخافهم – لاتظهر فى رمضان ، وانما كان خوفى من الحارة ، وأظن القارىء قد عذرنى بعد الذى قصصت عليه من صفاتها ٠

ولم يكن بد من الدخول ، فوقفت هنيهة فى النور أقرأ الفاتحة ثم تلوت آية الكرسى ، ثم قرأت آية أخرى كنت أسمع أنها تقى السوء ، وتجعل المرء فى أمان من المخاوف ، وبعد أن فرغت من هذا



obeikandi.com

كله وضعت الخطة ـ أقطع طول الحارة عدوا بلا تريث ، حتى اذا بلغت الباب أهويت على صدره بالحجر ولا أزال أدق وأنادى بأعلى صوتى ـ أنادي اسمى انا فما يليق أن أنادى من فى البيت من النسوة حتى يستيقظ أهلى والجيران أيضا ، ولا بأس من الدق على الباب المواجه لبيتنا كذلك فان مثل هذا الخطأ مغتفر فى الظلام ، وحتى اذا غضب الجار واحتج وذهب يشتم ويلعن ، فان هذا يكون خير لان صوته خليق أن يؤنسنى فى وحدتى ، وحبذا لو استطعت أن استدرج الجار حتى ينزل الى الحارة ولو أدى ذلك الى ضربى ٠

والباقى ـ أعنى باقى الخطة ـ مفهوم يسهل تخمينه فلا داعى للافاضة فى بيانه ، وهل هو الا أن أدخل البيت كالقنبلة وأصعد السلم كل ثلاث درجات أو أربع دفعة واحدة ؟

وسرتنى هذه الخطة المحكمة التدبير فدرت أواجه الظلام وهممت بالعدو واذا بى أصطدم بجسم لين ، واذا بذراعين بضتين رخصتين تلتفان بى ، وكانت هذه مباغتة لم يجر لها فى بالى حساب ، فما قدرت قط أن ألقى مخلوقا كائنا من كان ، ولو كنت أتوقع أن أقابل انسانا لما عرانى خوف ولغلب الحياء ٠

ودار رأسى وفقدت وعيى وأنكرت هذه الطراوة التى أحسها فى الجسم الذى يحتضننى ، وأذكر أنى رفعت عينى فأبصرت مثل بريق الذهب على جيد اتلع ، وكانت المرأة ضخمة وأنا كالعصفور بين ذراعيها،وهى تشد على وأنا أدفعها ـأو أحاول أن أدفعها ـأمامى وهى تتراجع خطوة خطوة ولا تطلق سراحى ولا تخلى سبيلى ، وفمى وأنفى بين ثدييها وأنا أكاد أختنق ، وهى لا تتكلم ولا تقول شيئا ولا تهمس حتى بلفظ ، ووجهى مدفون فى صدرها ، ولا أسمع الا صوت الخلخال فى رجليها وهى تخطو متراجعة شيئا فشيئا وعلى مهل جدا بلا اكتراث لحالى ، وأنا لا أفكر الا فى الخلاص ، ولست أدرى الى هذه الساعة لماذا لم يخطر لى الا هذا ٠٠ لماذا لم يجر ببالى مثلا أن أكف عن محاولة التملص لاعرف من هى ٠٠ وماذا تبغى ٠٠ ولماذا فاجأتنى على هذا النحو السخيف ٠٠ وهل كانت تنتظرنى أم تنتظر سواى ٠٠ ٠٠ وهل وقعت بين يديها خطأ أو كنت المقصود بالذات ٠٠ كل هذا وما اليه لم يدر منه شيء فى رأسى فكان همى

كله أن أنجو ، ونسيت خوفى من الحارة واستهوالى السـير فيها ، ونسيت الحجر بل لا أعرف ماذا صنع الله به ، ولا كيف أو أين وقع منى ، وذهلت عن الجار الذى كنت أنوى أن أزعجه وأطـير نومه وأغريه بشتمى بل حتى بضربى ، ولم يبق الا هذه المرأة العجيبة التى لا أريد أن تظل تطوقنى بكرهى والتى أكاد أختنق على صدرها

ولم تزل تتراجع بى والخلخال يؤنسنا بصوته حتى بلغنا الباب فحلت وثاقى ــ أعنى أطلقتنى من قيد ذراعيها ــ فوقفت أتنفس ، ثم نظرت الى ناحيتها فلم أر شيئا ٠٠ فمددت ذراعى فى الهواء ودرت بهما فلم تلمس كفى شيئا ٠ فتقدمت خطوات فلم أصطدم الا بحائط فعدته أبحث فلم يجدنى البحث ، فوقفت ساكنا أتسمع لعل صوت الخلخال ينم عليها ويشى بمكانها ، ولكنى لم أسمع سوى أنفاسى ، فاستندت الى الحائط مذهولا ، وحاولت أن أفكرُ فيما وقع لى ، وقد شغلت عن الحارة ومخاوفها ، فأعيانى أن أحل لغز مباغتتهـا لى ثم اختفائها وتسربها فى الهواء ٠

ورأيت نفسى قد تعبت على غير جدوى فرحت أجس الارض بقدمى حتى لمست حجرا فتناولته واتجهت الى الباب ورفعت يدى وأهويت عليه بكل قوتى واذا بى أقع على وجهى

ذلك أن الباب كان مفتوحا فلم يكن هناك شىء يتلقى دقتى فذهبت فى الهواء وأنا وراءها ٠ ٠

ولا أطيل على القارىء ــ وما الحاجة الى الاطالة ؟ ــ أفقت بعد مالا أدرى كم من الزمن ، ونهضت بأنف دام ، ووجه وارم ، وعظـام مرضوضة ، ولم أصعد السلم كل ثلاث درجات معا بل درجة درجة، ويدى على الحاجز وكفى الاخرى تتحسس وجهى وتمسح ما تجمد عليه من الدم

فهى حارة لعينة كما ترى ٠٠

# فى جهالة الشباب

هى ليلة الاحتفال الذى تقيمه الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل عام • وكان يومئذ يوما عظيما نفرح به نحن الشبان ونتسابق من أجله الى حديقة الازبكية ، ونتزاحم عليها ونطوف حولها نمتع العين بمنظر الشموع الموقدة فى مصابيحها الزجاجية الملونة ، والسعيد من تكون بيده تذكرة يدخل بها الحديقة ، ويشهد حفل زينتها وما فيها من ألعاب وملاه • وربمااغتنم « الاشقياء » فرصة هذه الليلة ، فذهبوا يركبون بشبابهم مايركب الناس ، وهم فى أمان من المخاوف وأهلهم يحسبونهم فى « الحديقة »

وقد اختلسنا ليلتها مرة وأغرانا شيطان الشباب فقلنا نفعلها والسلام ، ثم نصبح تائبين مستغفرين ، ألسنامثالالاستقامة والادب الحسن ؟ نخجل أن نغشى القهوات ، واذا شاقنا الدخان واشتهينا أن نقلد الرجال ، اكتتبنا بالملاليم وجمعناه قرشا نبتاع به علبةفيها عشر سجائر نقتسمها بالحق ونبغى لنا مكانا غير مطروق ندخنها فيه ـ كما يفعل الحشاشون الآن ـ حتى اذا صارت أعقابها على الارض ، ذهبنا نمحو أثر التدخين من أصابعنا وأفواهنا ، فاما أيدينا فنغسلها ونفركها ونكاد نسلخ جلدها ، وأماأفواهنا فنعالجها بالقرنفل أو « الستنسن » والاول أفضل ، لانه أرخص ، ثم يقبل بعضنا على بعض فهذا يفتح فمه على آخره ، وذاك يمد أنفه ليشم به، حتى نطمئن ••• وهيهات ، فما كنا نجرؤ مع ذلك كله أن نخاطب أهلنا عن قرب لئلا يشموا رائحة الدخان ••• ولكن غويننا ليله ، وأطلعها الشيطان فى رءوسنا وزين لنا أن نضحك من الناس •• وكيف يكون ذلك ؟ قال واحد منا •• الفرصة مهيأة ، والليلة ليلة الجمعية فلا حرج علينا أن نسهر ، فلنشرب كأسين ، ثم لنخرج الى الشوارع ولنركب الناس فيها بالمزاح والدعابة • فصفق ثان وقال •• « برافو » هيا بنا • وأيده ثالث فصاح وهو يجر بعضنا ••

« هلم بنا .. ماأبرعها فكرة . »

وقد كان .

***

وكنا خمسه فلقينا في بعض الطريق ثلاثـــة راقهم الاقتراح ، فمضوا معنا وآثرنا دكانا للحلوى ، لانه أخفى وأستر ، وجلســـنا حول زجاجة من الكونياك وأطفنا بهذه اللذة البكر وحرصنا عـــلى الاحتفاظ بوقارنا ، ونحن نحتسى الكؤوس ونترشفها على مهل ــ لاول مرة ــ حتى لايظن بنا من عساه يرانا أنا حديثو عهد بالخمر وحمياها ، وكففنا عن النكات ثم عن الحديث ، وان كنا من أصــخب خلق الله ، فكأنما كنا في مأتم ! وخرجنا صامتين ، وتناول كل منا ذراع جاره وسرنا خطوات ، ثم رأينا اننا خط طويل واننا زحمنـــا الطريق ، فتقاطرنا ، ومشى كل واحـــد وراء الآخر ، ولكن الكلام تعذر فسرنا صفين متدانيين ، فلما قربنا من حديقة الازبكية وضربنا في زحمه الخلق قويت قلوبنا وسار أجرؤنا فى الطليعة ، وأقبل على الناس يحييهم على غير معرفة ، والناس ينظرون اليه فاغرين ومنهـــم من يستغرب ومنهم من يرد التحية ومنهم من يحدجه بالنظر الشزر أو يغضبه هذا التطفل أو يفطن الى السخرية فيبتسم ، وقد يهم بعضهم بالشجار ولكنه يرانا كثيرين فيعدل ونحن نكاد نقع على الارض من التضحك . وبلغنا ميدان الاوبرا فاستوقفنا القـــائد وقال : لكل جيش ضابط . أنتم الجند وأنا الضابط . أنا آمر وأنتم تطيعون . مفهوم ؟ والآن اصطفوا . حسن أيها الجنود البواسل فى مثل هذه الليلة السعيدة لا يجوز ان نخرج من المولد بلا حمص ، القلعـــة أمامنا : هذه هى الحديقة أترون أضـــواءها .. أترون الشـــموع على سورها ؟ هذه الشموع التى تخايلنا من وراء الزجاج الملون هى حمص المولد .. فلنحمل عليها ولنعد بها أيها الجند .. تقدموا الى الامام يا جنودى الشجعان . وفى ثانية كنا على السور نفتح المصابيح وننتزع الشموع ونطفئها وندفع بها فى جيوبنا غير عابئين بما سأل من ذوبها على ثيابنا . وصاح القائد .. « كفى . »

فوثبنا الى الارض جذلين فرحين واذا بالشرطى يشتير الينا ان نقف لانه سيقودنا الى « القسم »

***

لم تخر عزيمة القائد ، فأمرنا أن نمشى بنظام ، وأن تكون دبة أرجلنا واحدة . وزاد فأعرب عن سروره لوجود رجل « البوليس » وقال انه سيكون زينة لنا فى موكبنا فعلينا أن نعده واحدا منا ـ « صولا » اذا شئنا ، أو ماأحببنا غير ذلك من المراتب دون مرتبة الضابط .

واستقبلنا المأمور « وهو يبتسم » فقد كان دخولنا حجرته على أتم نظام ، ولم يفت قائدنا أن يأمرنا أن نفعل « بربر ألط » قبل أن نقف مرة واحدة .

ثم أدينا السلام العسكرى وانتظرنا .
ونظر المأمور الى الشرطى مستفسرا ، فقص عليه مافعلنا .

فالتفت الينا وقال « أليس هذا عيبا ؟ أفندية مثلكم يسرقون ؟ ما القول اذا ألقيتكم فى السجن ؟ »

فلم نجب ونظر بعضنا الى بعض فى ذهول ، ولكن قائدنا كان حاضر الذهن جرىء القلب على عادته ، فالتفت الينا وقال .
« أيها الجند . هاتوا أسلاب المعركة . »

فأخرجنا الشموع ودفعنا بها اليه فوضعها على المكتب وهو يقول :
« الجنود الشجعان يدعون لصوصا فى هذه الايام ؟ ماشاء الله . أنها الغيرة ياجنودى البواسل فلا تحزنوا . ها أنا أرد اليكم ماكسبنا منكم فلا تبتئس ياحضرة المأمور ـ لالنا الآن ولا علينا . فلعلك تكون مسرورا »
وكان مأمورا ظريفا فاكتفى بأن أخلص لنا النصح وصرفنا

***

وعقدنا مؤتمرا فى الشارع لنفصل فى الخلاف بيننا . ماذا نصنع ، أننصرف الى منازلنا أم نعود ادراجنا الى الحديقة ؟

وأحصيت الاصـــوات فتقرر بالاغلبية أن ننصرف الى منازلنا ، وكانت الحجة الغالبة أن فى وسعنا أن نفعل ونحن فى الطريق الى بيوتنا كل ماكنا نأمل ان نصنعه عند الحديقة من التضاحك بالناس ومن الصياح واللعب والوثب ، فنصيب طيرين بحجر ـ نفـوز بالسرور المنشود نقلل متاعب الاوبة الى مساكننا المتقاربة ، وكانت مبعثرة فى حى « البغالة »

وبلغنا ميدان عابدين فأغرانا السكون الذى يسوده بالعـود الى النظام العسكرى واتفقنا على انه يحسن ـ حين نبلغ شارع خيرت ـ ان نلجأ الى « الحوارى » لانا معروفون فى هذا الشارع الذى كنا نختلف الى قهواته البريئة فى أوقات الفراغ ٠

ولكن الصمت كان شاقا مع طول الطريق والضحك لايسـاعد على انتظام السير ، فماذا نفعل ؟ وقفنا هنيهة نفكر ونعالج حـل هذا المشكل ونستريح أيضا ٠ وكان قائدنا جالسا على عتبة بيت ونحن نتحدث ولانهتدى الى حل ، فما لبث أن وثب الى قدميه وصاح بنا ٠٠

« زنهار »

فاصطففنا

« مارش ٠ »

فسرنا وهو أمامنا يلوح بذراعيه ويرفع عقيرته بمثل أصـوات الموسيقى « تارا ٠٠ لا لا لا الخ »

***

وهكذا حتى سرنا فى شارع خيرت فملنا ـ كما اتفقنـا ـ الى الحوارى الساكنه ، فصرنا ندخـل من واحدة ٠٠ ونخـرج من أخرى ، واذا بسرادق يواجهنا على بعد والناس فيه زمر محشودة ، فسكتت الموسيقى واضطربت الخطوات ولكنا مع ذلك ظللنا نتقدم كأنما كنا فقدنا كل قدرة على ضبط أنفسنا أو كبح أرجلنا عن المشى وحسبناه لسوء حظنا « عرسا » ولم نحفل بمن وقفوا لنا حين صرنا على خطوات من السرادق ، ولم نعد نرى شيئا أو نحس حولنا أحدا

ونحن نخترق المكان ونمشى بين صفوف الجالسين المشرئبين بأعناقهم الينا .

وخرجنا من الناحية الاخرى ومال الطريق فملنا وعادالانتظام الى الخطوات واستأنف القائد العزف بصوت خفيض فى أول الامر ثم أخذ يعلو ويعلو حتى اذا كاد يرجع الى طبقه السابق انقطع فجأة ! ذلك ان الطريق مسدود ..

***

تفرقنا ـ كل الى جدار ـ وماذا عسى أن يبلغ من قدرتنا على احتمال هذه الصدمة ؟ انها أقسى مالقينا وأوعر مااعترضنا فى حياتنا كلها . هذا مأتم جزنا سرادقه على أوقح صورة فلولا أن سلوكنا أذهل القوم لقتلونا . وتصور غلماننا لايتجاوز أكبرهم التاسعة عشرة يقتحمون مأتما كما فعلنا ؟ وقد زال ذهول المفاجأة الآن ، فلو عدنا لاستقبلونا بما نحن أهله ، وبما كان ينبغى أن يصيبنا أول مادخلنا فلم يبق الا أن نظل واقفين حتى ينفض المأتم ويذهب المعزون ويخلو السرادق فنعود

ومرت بنا دقائق خلناها ساعات ، وكلت أرجلنا من الوقوف فجلسنا على الارض ، ثم رحنا ننفخ ونتأفف ، ثم قام أحدنا ودنا من اثنين متقاربين ووقف على رأسيهما وقال ..

« واحرتها . »

فلم يجيباه . وماذا عسى أن يقولا له ؟ . وأى آخرة هناك غير آخرة المأتم ؟ فعادالى حيث كان

الا شىء نتسلى به ؟ وكيف يستطاع الصبر على هذه الحال الى آخر الليل ؟ وشاع الضجر وطغى بنا الملال والغيظ والسخط على المعزين وعلى الميت أيضا . وهل كان لابد أن يموت فى هذا اليوم ؟ . وهل لا بد أن يشيع الميت بضجة وزفة ؟ أمن الضرورى أن يحتفل بموته كما يحتفل بميلاده ؟ مات وانتهى الامر فأى داع لمضايقة الناس ؟

ولكن أين القائد ؟ تلفتنا فلم نجده فصرفنا هذا عما نحن فيه ، وكان أول ما خامرنا السخط عليه،لانه فيما توهمناخذلنا فيمحنتنا، ولكن ثلاثة منا أحسنوا به الظن وأبوا أن يصدقوا أنه فروخان رفاقه وهموا بأن ينطلقوا ليبحثوا عنه واذا هو مقبل علينا ووجهه متهلل • فأعدانا بشره ، وأحيا نفوسنا التماع عينه • وانهلنا عليه نسأله •• « ماذا ؟ ماذا ؟ هل وجدت حلا ؟ »

فهز رأسه بتؤدة ثم أدار فينا عينه وقال :

« اذا لم تطاوعونى فسأترككم وشأنكم • »

فبذلنا الوعد بالطاعة فقال ••

« هى ليلة والسلام • فماقولكم فى أن يكون ختامها بارعا كفاتحتها ؟ أما أنا فلا يعجبنى السرور الخافت الوديع • ومادمنا قد خرجنا الليلة لنفرح ونلعب ، كما ينبغى • ولقد احتقرت نفسى من أجل صبرى هذه الدقائق • انها دقائق ضاعت من عمرى • حذفتها منه بالقلم الاحمر • ولن أسمع لمائة ميت أن يفسدوا ليلتى على •• وقد ألهمنى الغيظ والسخط حيلة منقطعة النظير • ستكون أحدوثه الحى شهرا كاملا ، وسنذكرها نحن فى كهولتنافنبتسم ••• تعالوا •• هيا بنا الى العمل • قفوا صفا واحدا • لا • لا •• بالطول لا بالعرض ، واحدا وراء الآخر ، أنا فى المقدمة كالعادة • القائد على رأسكم • الراية فى يدى • سأتلقى الرصاص بصدرى هذا « ودقه بيده » والضرب برأسى •• وسيندم من يتعرض لى •• فسأفترسه •• سأنفجر وأطير أشلاءه •• لانى الآن وابور •• بفو • بفو • بفو •• »

ولا أطيل ـ أمسك كل منا بذيل الذى أمامه وسرنا فى أول الامر على مهل كما يفعل القطار الخارج من المحطة حتى اذا كدنا نميل الى حيث السرادق يعترضنا انطلقنا بأقصى سرعة ننفخ ونزفر ولم نقف الا فى ميدان السيدة •

وهكذا خرجنا من الحارة •••

ولكن والد القائد كان بين المعزين •

# بتاع الكلب

كنا أربعة لانكاد نفترق الا لنتعشى ثم ننام ، ولم تكن مدرستنا واحدة ، ولاكنا جيرانا ، ولاأذكر الآن بعد هذه السنوات الطويلة كيف اتصلت بيننا الاسباب ، وأحسبها المصادفة التي يسقطها أكثرنا من حسابه حين يذهب يلتمس العلل والدواعى ، وكان اجتماعنا فى بيت أحدنا ـ أو على الاصح ـ على بابه : نخرج الكراسى ونجلس صفا واحداأو متقابلين نتحدث ونلعب الشطرنج أو النرد أو غير ذلك ـ الا الورق ـ أو نكتفى بالنظر الى الرائحين والغادين ونتبادل الآراء فيهم والملاحظات التى تعن لنا على ثيابهم أو مشياتهم أو أشكالهم وصورهم على العموم ، وربما قام منا من يقلدهم ويضحكنا ويدخل السرور على نفوسنا بالمبالغة فى التمثيل ، فاذا اشتقنا الى مالا يوجد فى المنازل من مثل « الخشاف » أو « الكازوزة » أو غيرهما ، وكان معنا ثمن مانريد ، بعثنا من يجيئنا به من « قهوة » قريبة ، وكنا فى ذلك اشتراكيين أو لاأدرى بماذا ينبغى أن نوصفه فقد كان القرش فيجيب أحدنا ، له وللجماعة فى آن معا ، وكنا نستحيى أن نغشى « القهوة » فاذا لج بنا النزاع الى غشيانها واشتد اغراء الفونوغراف لنا ، ذهبنا جماعة بعد طول التردد والمشاورة ، جبنا منا عن الذهاب متفرقين ، أو حياء أوسمه ماشئت ، ومازلت الى الآن أذكر أول مرة غشيت فيها « قهوة » ، وكان معى واحد من هذه الجماعة ، وكان الوقت صيفا وصاحب البيت الذى نجتمع على بابه مسافر ، وثالثنا مريض عدناه ولم نطل تجنبا للاثقال عليه ، ثم مضينا نتمشى الى قصر النيل كعادتنا اذا طلبنا الرياضة ، وطال المشى واللف حول القصور والتطلع الى ضخامتها وتخيل ما تحتويه من مظاهر البذخ وآيات النعمة ، وكلت السيقان ولم تغب الشمس ، فحننا الى الراحة ، ولكن أين ؟ جعلنا فى ايابنا ننظر الى القهوات ونتأملها ولانجرؤ أن ندخلها حتى بلغنا القهوة القريبة من دار صاحبنا فاقتحمناها وجلسنا قرب بابها كأنما خفنا أن نتوغل

فيها فيتعذر علينا أن نتسلل منها اذا ثقل علينا الامر فيها ، وطلبنا الخشاف والشطرنج وبدأنا نلعب ، وليس فى هذا كله غـــرابة ، وانما الغريب والذى لفت الينا الانظار وجعل علينا من الحدق نطاقا وأدى الى فرارنا آخر الامر ، اننا جعلنا كلما دخل رجل ـ وكان أكثر الزبائن كهولا ـ ننهض له واقفين احتراما ! وأكفنا الى رؤوســـنا بتحيته ؟ واستغرب الناس هذا السلوك منا ، ولاحظنا نحن اننا قيد العيون وموضوع الاحاديث فعجلنا بالجلاء وأقسمنا لانعـــود حتى تكون لنا شوارب طويلة ولحى حليقة خضراء !

وكان لنا مزاح ثقيل فى بعض الاحيان ، ذلك انا كنا فقراء ماعدا واحد كان والده يحبه ويدلله ولا يبخل عليه بمال ، ومن مظاهـــر ادلاله له انه أعطاه ساعة وسلسلة من الذهب ، وكانت الساعة كبيرة ثقيلة والسلسلة غليظة طويلة ، ولم تكن جيـــوبه تخلو من بضعة جنيهات ذهبيه على حين كانت جيوبنا لا يطول فيها لبث القروش ، وكان صاحبنا هذا على تدليل أبيه له ، شهما جم المروءة الا أنه حسن القيام على المال حكيم فى انفاقه ، ولا أقول بخيلا ، فما كان الذى به بخلا ، ولكنما كان رشدا وحكمة ، ولكنا كنا نحتاج أن نركب زورقا من قصر النيل نشق به النيل ساعة أو ســـاعتين ، ويعوزنا الاجر فنطلبه منه ونتعاقب بالرجاء عليه وهو لايزداد على الرجاء الملح الا لجاجة فى التابى ، فنأتمر به ، ونظهر الاكتفاء من الرياضة والتنزه بالمشى ووجع السيقان والاقدام ، وألازمه أنا ويسبقنا الآخران ، وكانت عادته أن يحمل خيزرانة لاتنفع للتوكيء ، ولاحمار هنـــاك يستحثه بها ، فأغافله وأخطفها منه وأعدو الى الصاحبين وأنا أصيح فيرتدان اليه بالحملة عليه وأساعدهما أنا بضرب أصابعه بالخيزرانة كلما تمكن من أحدهما ، حتى يستخلصا من جيوبه المال اللازم لاجرة الزورق وثمن البطيخة أو الشمامة اذا بدا لنا أن نعرج على « مقاتة » على الشاطيء • ووجه العجب فى الامر كله ، أنى كنت الموكل فى كل مرة بخطف الخيزرانة ، ومع ذلك لم يكن صاحبنا يتقينى أو يحاذر منى أو يريبه ايثارى له كلما اختلفنا معه على نفقات رحلة وطلبناها منه وأباها علينا •

ومن الحوادث التي أذكرها أني مرة ربحت ريالا ! أى والله ربحته وكنت مستحقا له • وكان الريال مكسبا جزيلا يكفى لنفقتنا نحن الاربعة أسبوعا مع التبذير والبذخ ! فما كان للواحد منا سوى قرش في اليوم وما كان أكثر ما يبقى منه الىاليوم التالى بعضه وفيم نضيع القروش ونحن لاندخن سجاير ولا نختلف الى قهوة ولانركب تراما ولا نسهر الليل ولانشاهد تمثيل « الشيخ سلامة » أو « كامل الاصلى » ـ وكان مهرجا مشهورا ـ الا مرة فى السنة ولم تكن السينما قد ظهرت ، ولا كان شيء آخر من الملاهى يصرفنا عن دروسنا ؟

وكنا نمشى قبيل الغروب عند قصر النيل علىالافريز الذى يقابل الآن أو يواجه فندق سميراميس ، فاتفق أن مرت أمامنا فتاتان معهما كلب ضخم من فصيلة « البول دوج » وعلى فمه كمامة ، ولا أدرى كيف حدث هذا ولاماذا أصابنى ، ولكن الذى أدريه أنى أوليت أصحابى ظهرى وسرت وراء الفتاتين ـ أو وراء الكلب على الاصح ، فقد كان كثير التلكؤ ـ وأحسب ان جمالهما راعنيوسحرنيوأنسانى كل ماشببت عليه وتعودته من الاحتشام والتأدب ، ولم يكن فى مرجوى أن أفوز ولا بنظرة منهما ، ولا كان فى وسعى أن أجترىء عليهما بتوجيه كلام اليهما ، غير انى على الرغم من علمى بذلك ثابرت على تعقبهما ، وأنشأت أتصور مواقف وأحاديث لى معهما ، فمرة أتخيل أن احداهما عثرت وأن حجرا صدم قدمها الصغيرة فتهافتت على الارض ، وانى أسرعت اليها فحملتها على ذراعى ورششت على وجهها قطرات من الماء ـ لاأدرى من أين جئت به بهذه السرعة ـ من غير أن أفسد ثوبها القرمزى أو أبله ، فلما أفاقت وعرفت نجدتى ومروءتى شكرتنى وهى تفترلى عن أعذب ابتساماتها ، ونادت صاحبتها ـ فقد أبيت أن أتصور أن الاخرى أختها أوقريبة لها ـ وعرفتها بى وأثنت لها على ، وأعربت عن عجبها من قدرى على حملها بهذه السهولة مع قصرى الشديد وما يبدو من ضعفى لاول نظرة !

وتارة أخرى أتخيل انهما ركبتا زورقا فانقلب بهما وانى لم

أكد ألمح ذلك حتى نضوت أكثر ثيابى والقيت بنفسى فى لجة المـــاء وسحبت اليهما كالسمكة وعدت بهما تحت ابطى الى الشاطىء المأمون وماأحسن من السباحة غير الغوص ، كما يقول ابن الرومى ، ولكن هذا لايمنع أن يقذف بى الخيال فى عباب طام وموج مشرئب كالجبال المتقلعة ، ولم أرض أن أجعل الانقاذ والنجدة الا فى أشدالاحوال حرجا بل أدعاها الى اليأس

وهكذا سرت وراءهما وخيالى الجامح يأبى الا أن يحضرهما لى ـ وهما أمامى ـ فى مثل هذه الصور ، ثم ذكرت رثاثة ثيابى بالقياس الى جمال هندامها وحسن مايلبسان من أفواف رقيقة موشاة ، فاكتأبت وخجلت وقصرت خطاى ، وبعد ما بينى وبينهما ، وانى لاحـــدث نفسى بالعود الى حيث تركت أصحابى واذا بنباح ينبهنى ، فرفعت عينى عن حذائى وكنت أتأمل قدمه واشتـــفاءه على التمزق ، فرأيت كلب الفتاتين ينظر الى كلب آخر نظرة تنطوى على نية القتل العمد ، ولم يكن الكلب الآخر أضأل جسما ولاأقل اســـتعدادا للاجرام ، فوقفت ، وقد دار بنفسى أن أحلامى قد كتب لها أن تصح ، ودعوت الله فى سرى أن يتقاتل الكلبان ، ورحت أتلو ماحضرنى من أيـــات الكتاب الكريم وأعزم عليهما بقوة هذه الآيات وبركتها ، وبودى لو استطعت أن أهيجهما الى القتال وأحرضهما عليه بالاصوات والاشارات غير أن هذا لم يكن اليه سبيل ، وجعلت أدير عينى حولى لاتحقق من أن أصحاب هذين الكلبين لم يفتقدوهما ولم يتنبهوا الى مايوشك أن يقع بينهما .

واستجاب الله دعائى الحار وكان ماتمنيت ، وتشابك الكلبـــان ، وكنت ـ وما زلت ـ أخشى الكلاب كما أخشى المـــوت على نفسى ، واستقذرها أيضا ، ولكن هـــذا كان وقت الشـــجاعة والمروءة والنجدة السريعة والصنيع الجميل الذى يستوجب الشكر وقد يحقق الاحلام ! فانقضضت عليهما وحاولت أن أفرقهما ، وكأنما صـدتنى بقية من الحذر الطبيعى عن رأسيهما ، فجعلت أدور حولهما محاولا أن أمسك أحدهما من ذيله ، وليس للذنب استقرار أو ثبات عـلى امتداد ، وانه لكثير التثنى سريع التفلت ، غير انى مع ذلك وبعد جهد

مضن ، ظفرت بذيل الكلب الذى انتدبت لانجاده ، ولم أكد أفعل حتى لف اللعين – أعنى الكلب لا الذيل – وعضنى أو على الاصح جرحتنى سنه ! فانظر كيف شكر الكلاب للجميل ! فما عضنى الكلب الذى هو خصم ، ولكن عضنى الكلب الذى هو ٠٠ الذى أنا له صديق ٠٠ ؟

وسأل الدم من أصابعى وأفزعنى لونه القانى ، ولكنى لم أشعر وقتئذ بألم بل شاع فى نفسى السرور وتوقعت أن يكون ما أصابنى مضاعفا لحقى فى الثواب وزائدا فى استيجابى للتعظيم ، واجتنبت الذيل بعد ذلك وأهويت على الطوق وأمسكت به ورفعت الكلب اللئيم عن الارض بكلتا يدى وجعلت أزجر الآخر بقدمى ٠

وانى لكذلك واذا بالفتاتين تهرولان الى ، وبصاحب الكلب الثانى يحمله معتذرا عنه ، فأبرقت أسارير وجهى وكاد الفرح يطير لبى ، ولكنى ضبطت نفسى وقلت هذه ساعة الوقار فما يليق بالبطل المنقذ أن يكون خفيفا طياشا ، أومزهوا منانا ، فحططت الكلب على الارض وكان ثقله قد أوهى ذراعى ، فتناولت احداهما الاربة المشددة الى الطوق ، وأقبلت على تشكرنى هى وصاحبتها ثم أخذت عيونهما الدم الذى أريق فى سبيلهما فقالت واحدة

« لقد جرحت ! مسكين ! »

ونظرت الى صاحبتها فى حيرة وارتباك وألم ، فكادت نفسى تذوب رقة ، وهممت أن أقول شيئا ، ولكن لسانى انعقد فدسست يدى فى جيبى لأخفيها ، فقالت الثانية وهى تشد ذراعى ٠

« كلا ! لاتصنع هذا ٠ يجب أن تذهب الى الطبيب حالا ٠ »

فلم يفتح الله على بأكثر من قولى « الامر تافه ٠ ولايستحق الذهاب الى الطبيب »

فقالت الاولى « بل يجب أن تذهب ٠٠ حالا ٠ من يدرى ؟ »

فهززت راسى وأنا أبتسم ابتسامة الاستخفاف كانما كان من عادتى أن تعضنى الكلاب

وتدانى الرأسان الصغيران ، وتحركت الشفاه الدقيقة بالهمس الخافت ، وأنا أتشاغل بلف يدى فى منديل ، ثم تقدمت احداهمـــا منى وتناولت يدى السليمة وصافحتنى وشكرتنى بينما كـــانت الاخرى مكبة على حقيبتها تبحث فيها عن شىء ، ومضت عني التى صافحتنى ، وأقبلت الاخرى تفعل كما فعلت وأنا واقف كالحمار وقد أدار رأسى انى علمت أن المصافحة والشكر هما الختام ولا شىء بعدهما وهبطت آمالى وتضاءلت مطامعى وأصبحت أقنـــع بأن تسالانى عن اسمى • وهل أقل من ذلك ؟ وبينما أنا ذاهل شارد الذهـــن اذا بالفتاة تسحب يمناها وتضع بيسراها شيئاً كبيرا بـاردا فى كفى وتطويه عليه ثم تذهب تعدو !

بعد أن ابتعدنا قليلا أفقت فنظرت الى كفى فاذا فيها ريال جديد براق ! فكاد عقلى يطير من الغيظ والسخط والحقد • ريال ؟ وهل أنا أجير ؟ أترانى عامى المظهر الى هذا الحد ؟ وصـــوبت عينى الى حذائى ورفعتها الى البنطلون ثم أقصرت • فقد كانت ثيابى صريحة الوشاية برقة الحال • فعدلت عما كنت أهم به من الجرى وراءهما والقاء الريال اليهما • وعزانى أنهما لن يريانى على الارجح بعـــد ذلك ، فانكفات راجعا الى حيث خلفت أصحابى فلما التقيت بهم بسطت لهم كفى بالريال اللامع ، فدهشوا ونظر بعضهم الى بعض وقـــال أحدهم •

« لقية ؟ »

فهززت رأسى • فقال آخر :

« سرقته ؟ »

فعبست تعبيس المصمم على القتل ، فقال الثالث :

« عفوا ولكن •• ريال •• هذا كنز ! فهلا قلت لنا كيف وقعت عليه ؟ »

فلم أرحهم ولم أنطق بحرف بل أخرجت يسراى من جيبى وفككت عنها المنديل ووقفت كالتمثال ! فثارت نفوسهم وقد حســـبوا أن اعتداء وقع على صاحبهم ، وأقبلوا يسالوننى عن الشرير الذى جرحنى

ويدفعونني أمامهم ماضين بي من حيث عدت ، فضحكت وقد بدت لي سخافة الحكاية كلها ، وقلت :

« كلا . لم يعتد على أحد .. ولكن عضني .. عضني .. كلب »

وقصصت عليهم ماحدث . فضحكوا ومضوا بي الى أقرب صيدلية وصارت دعوتهم لي بعد ذلك حين يمازحونني : « يابتاع الكلب ! »

openikandl.com

# من ذكريات المدرسة

كانت المدرسة .. الابتدائية على أيامنا
مثلما ضمت سبيل    من صنوف الخلق وفدا

أو كيوم الحشر ، أو وقفة عرفات على الاقل ، سوى أنها كانت خالية بفضل الله ولطفه ، من المرأة ، وكانت أسنان التلاميذ متفاوتة أشد التفاوت ، ومتباعدة أعظم التباعد ، وكنت أصغرهم ـ فيما أعتقد ـ فما كانت سنى تزيد على التاسعة لما دخلت هذه المدرسة، وكان فيها من جاوزوا الخامسة والعشرين ، وصارت لهم شوارب مفتولة يعتزون بها ويباهون بكثافتها وطولها ، ولم يكن هؤلاء تلاميذ ، اذا أردت الحقيقة ، وانما كانوا يجمعون من المدينة ويحملون على قبول التتلمذ فى هذه المدرسة ، وتلم لهم «المصروفات» ـ أو نفقات التعليم ـ بالاكتتاب العام من التلاميذ والمدرسين ، وكانوا لا يكلفون أن يدخلوا الفصول لسماع الدروس ، ولا يجشمون حفظ شىء أو فهمه ، وانما عليهم أن يكونوا فى « اليمك خانة » ـ أو حجرة الطعام وقت الظهر ليتناولوا الغذاء ، وهو حق لهم ما دامت أجور التعليم قد أديت عنهم ، ولكن غداءهم كان ممتازا ، وكانت مائدتهم غاصة بالالوان، والاطباق مفعمة . ولامانع من الاستزادة ، ولا حرج من اعادة الطلب مرة وأخرى وثالثة ، وكنا نحن الصغار نقول ان المدرسة « تعلفهم لانها كانت تتحرى أن تسرهم وتبرهم وترعاهم وتتعهدهم، وكان الناظر يبالغ فى ذلك حتى انه ليبعث بخادمه فيشترى لهم ( المخلل ) ليضاعف اقبالهم على الاكل ويقوى رغبتهم فيه ، ولو كان ( الابرتيف ) معروفا فى تلك الايام لكان الارجح أن لا يبخل عليهم به أيضا ، وكان ناظرنا رجلا طيبا ، مستقيم الفطرة ، فأذن لنا أن نشترى ـ بمالنا ـ ( المخلل ) فكنا قبل أن يدق الناقوس الذى يرسلنا متدافعين متزاحمين متعثرين ـ الى حجرة الطعام ـ نقف من وراء بوابة المدرسة ، وفى أيدينا القروش ننادى « الطرشجى » أو صانع المخلل ، أن يبيعنا مما عنده ، وليتصور

القارىء خمسين أو ستين تلميذا ـ ما بين طويل وقصير ، وبدين وهزيل ـ ينادون جميعا فى وقت واحد وبأصوات متفاوتة ، « ياعم محمد ، هات وحياة أبوك بقرش طرشى » أو « كتر الخيار يا عم محمد » أو « وصيتك الدقة » أو « لأ . أنا عايز مية لفت مش عايز دقة » أو « البصل والفلفل يا عم محمد » وهكذا الى آخره .

ثم ننقلب عن البوابة ـ واحدا فى أثر واحد ـ حاملين هذه المواعين الملآى بأصناف المخلل والمغطاة أو المزينة بالجرجير الاخضر أو البقدونس والكرفس ، ونظل واقفين أمام حجرة الاكل وهذه الاطباق أو المواعين فى أيدينا حتى تفتح الابواب وندخل فنجلس الى الموائد ، ونضع أمامنا ما نحمل .

وكان الباعث للمدرسة على العناية بهؤلاء التلاميذ أو أشباه التلاميذ ، « الكرة » ، وكان الاهتمام بها فى تلك الايام عظيما ، والتنافس بين المدارس الابتدائية فى التفوق فيها لاحراز ( كأسها ) على أشد ما يكون ، وقد بذت مدرستنا سواها فى هذا الباب ،وأذكر أن الكأس ظلت معها سنوات متوالية ، لان لاعبيها كانوا فحولا معلوفين ، ولا تزال أسماؤهم مشهورة الى اليوم . وان كان منهم من لم يقصر فى واجب العلم مثل ( أبو تيفة ) و ( عبد الله ) رئيس الفرقة ، وقد نسيت بقية الاسماء ، ولكن اسما آخر لا أظنه يغيب عنى أبدا ، وهو « سليمان » وكنا نسميه « سيلى مان » على سبيل المزاح ، وكان ضخما أحمر الوجه كالايقوسيين ، وكان لا يرى الا و « البيبة » بين شفتيه أو أسنانه ومن هنا حرفنا اسمه وجعلناه « سيلى مان » وكان يشاع انه لا ينزل الملعب الا وهو ثمل ، والويل اذن لمن يصطدم به من لاعبى المدارس الاخرى ! وكلما هزمنا مدرسة قضينا بعد ذلك أسبوعا فى الهتاف والتصفيق وفى احداث أشد ما يدخل فى طوقنا من الضوضاء ، من غير أن نخشى زجر أو عقابا ، لأن السرور بالفوزكان يوسع صدر الناظر ويزيده تسامحا ولينا .

وكانت مقاعدنا فى الفصول عتيقة بالية ، سوداء مشققة ،وكانت أشبه بالدكك ، وكان لكل ستة منا مقعد مشترك ، ولكن لكل واحد

درجا ينفرد به ، وكنا نشترى لها أقفالا ، غير أن الاقفال كان يسهل نزعها لما قدمت من تشقق الخشب وتقادم عهده ، وكنا لتلاصقنا على المقاعد ، يكثر بيننا التدافع والتلاكم والترافس تحت الادراج • وما تحرك واحد فى مكانه ، أو اعتدل فى جلسته ، أو أكب على الدرج ، أو قام أو مال على جاره ، الا خرج من هذا الخشب العتيق صوت مزعج ، وكانت هذه الاصوات تثقل على سمع المعلمين وتفسد أعصابهم ، فيخرجون عن أطوارهم ويوسعوننا شتما وتأنيبا ، ويشبعوننا ضربا أيضا •

وكان أقسى المعلمين علينا وأغلظهم كبدا معنا شيخ نسميه « الاسد » وكان نحيفا مديد القامة أسمر اللون حاد النظرة بل مخيفها ، وكانت له خيزرانة قصيرة ، يدسها فى كم القفطان ، فاذا سار بين المقاعد جعلت عيوننا تلحظ هذا الكم لحظاتا لا فتور فيه ، وكان الضرب ممنوعا ، والوزارة تنهى عنه،غير أن شيخنا كان يكتفى من الطاعة باخفاء العصى فى كمه ، فاذا دخل الناظر ، أو جاء مفتش ، لم ير فى يده شيئا ، ولم يربه من كفه اليسرى أنها أبدا مثنية الاصابع على طرف الكم ، حتى اذا خرج الزائر برزت الخيزرانة الناشفة وسلمت علينا !

وقد أطعمنيها مرارا كثيرا • وذاقتها كفاى وذراعاى وساقاى وظهرى وعرفت طعومها كلها بالخبرة الطويلة والتجربة المعتادة ، فصرت اذا أبصرتها ترتفع أستطيع أن أعرف على وجه الدقة أى وقع سيكون لها على جسدى ، وبأى درجة من الالم ينبغى أن أتلقى هذا الوقع ، وأى الضربات تسيل الدموع ، وأيها تطلق الصرخات العالية والحفيضة ، وأيها تبعث على الانين المطوط، وأيها تقابل بالتقطيب، أو التلبد ، أو التلويح باليد ، أو اخراج اللسان للمعلم بعد أن يتحرك عنى الى سواى •

وأنا امرؤ فى طبعه الانتقام ، لا يمنعنى من ذلك جمال الصبر وطول الاناة •

وتلك مزيتى فليعرفها القراء فقد يكون العلم بها نافعا لهم ،أعنى

أنى لست طياشا ، ولا عجلا ، ودأبى أن أتريث ، لعل الاساءة كانت عفوا ، أو عسى أن تعقبها التوبة ، فأمسح اللوح وأعفو عن مقدرة ، وأتناسى ما أبدعته وابتكرته من ضروب الانتقام ، والا حل بالمسيء ما حل « بالاسد »

وشرح ذلك انه ثار بنا مرة كالمجنون ، وكان الوقت صيفا والباذنجان كثيرا – أعنى أن المدرسة كانت تقدمه لنا بين ألوان الغذاء كل يوم تقريبا ، وقد خفيت عنى حكمة ذلك ، ولا تزال خافية ، فقد كنا مقبلين على الامتحان وكانت بنا حاجة الى كل ما عسى أن يكون قد بقى فى رؤوسنا من العقل ، ولكن هكذا شاءت المدرسة أو المسئول من رجالها عن اختيار أصناف الطعام ، فجن « الاسد » كما قلت وصاح بنا حتى لصرنا نقفز من فوق الادراج ونعدو أمامه ، بين المقاعد ، وهو ملاحق لنا ، يميل على الادراج بقامته الطويلة ، ويمد ذراعه وبين أصابعه الخيزرانة الملعونة ، فلا يخطىء البرىء اذا فاته المذنب ، وكان – أى « الاسد » – يدمن التدخين ، فنهج ، ووقف يستريح وأعاد العصا الى مخبئها فى كمه وأخرج من صدره منديلا يمسح به العرق ، فتسللنا الى مقاعدنا ، وجلسنا ساكتين ، فاغتنمتها فرصة واستأذنت فى الخروج فلما صرت فى الفناء عدوت الى الناظر فدفعت الباب ودخلت عليه ، وكان رأسه محنيا على صدره ، وهو يشخر شخيرا مختلف الطبقات متنوع النغم على كل درجات السلم الموسيقى ، فليس يمل أو يسأم ، فلولا أن الضرورة تقضى بالسرعة لوقفت أسمع وأطرب

فعدت الى الباب ونقرت عليه نقرا شديدا ، فلم يفق !

فدنوت من مكتبه وسعلت بأقوى ما يدخل فى طوقى

« احم ... احم ... احـ . م »

فلم يجد هذا أيضا !

فغنيته صوتا شائعا

« عصفورى يامه ، عصفورى ؟

فلم توقظه حلاوة الصوت ، ولم ينبهه علو الطبقة ، على أن الغناء

في غرفة الناظر ، أمامه ، وتحت عينه اذا فتحها ، وعلى مسمع منه اذا تنبه راقنى فمضيت فيه ورفعت عقيرتى أقول ـ أو أصيح !

« تضربنى ليه ؟ يا سعادة البيه !
وأنا لسه صغار
ماأحملش هزار »

ودارت « الراء » من هزار » دورتين ، وسكت ، وشرعت أفكر فى أغنية أخرى أو وسيلة غير هذه لايقاظ النائم ، اذا به يشخر شخرة عظيمة ، انتفخ لها صدره وارتد رأسه فصحت به

« ياسعادة البيه ! ياسعادة البيه ! ياسعا ..

« ايه ؟ »

« يا سعادة البيه ! »
« مين ؟ أنا ؟ »
« سعادة البيه ! »
« عايز .. ا ... سعادة البيه ؟ آ
« أيوه يا سعادة البيه »
« مين ده ؟ »
« سعادتك ! »
« سعادتى ؟ »
« آه ! »
« آه . طيب »
« سعادة البيه »

« جرى ايه ؟ عامل لى سورة هنا ليه ؟ »

« الشيخ ... نازل فينا ضرب »

فأفاق جدا ، فقد كان يكره أن يضرب المعلمون التلاميذ ، وكان فى هذا مخلصا صادق السريرة ، وكانت له خيزرانة طويلة لا تؤذى ولا تؤلم لانه كان يتقي أن يصيبنا بطرفها ، ويتوخى أن يدنو من التلميذ جدا ويطوقه بالخيزرانة فلا يكون لمسها الم .

ووصفت له ما جرى فى الفصل ودللته على مخبأ العصا،فصرفنى وتبعنى على مهل ، فسبقته الى الفصل فدخلته وأنا أرمى الى التلاميذ نظرات لا تخفى معانيها ، وجلست أبتسم راضيا عن نفسى مغتبطا بما سيكون ، وجاء الناظر بعد برهة وجيزة ، فوثبنا الى أقدامنا ، ورفعنا أكفنا الى رؤوسنا بالتحية وسار الناظر الى « الاسد »وتناول ذراعه وقال :

« ايه ده اللى فى كمك » ؟

وأخرج الخيزرانة وقال

« الضرب ممنوع فى المدارس يا شيخ ٠٠ اياك تضرب العيال تانى » وخرج ٠

ووقف « الاسد » وبه من الخجل أضعاف ما بنا من الشماتة ، ولم يكد الناظر يبعد حتى صحنا جميعا ـ كانما كنا على اتفاق ـ « هيه ٠٠ هيه ٠٠ »

* * *

وكان معلم الرياضة رجلا طيبا حاذقا ، فاتفق يوما أن كتب على السبورة مسألة حسابية ، وشرع يسألنا عن حلها ، فدخل الناظر على عادته أحيانا ، ووقف هنيهة يقرأ المكتوب على السبورة ثم التفت الينا وقال :

« المسألة رأسها غلط »

فادهشنا أن يغلط معلمنا ، ونظرنا اليه ، ولكنه كان ساكن الطائر وعلى فمه ابتسامته المألوفة ، وعاد الناظر يسأل

« مين يعرف يورينى الغلط فيها ؟

ففرنا مليا ثم جعلنا نرفع أصابعنا قليلا من شدة التردد ، وقال واحد أن الغلط ان الجواب كسر ، لا عدد صحيح ، وزعم آخر أن المسألة لا حل لها ، وادعى ثالث انها خارجة عن المقرر ، والناظر يعقب على كل جواب بهذا الصوت « تؤ ٠ تؤ »

وأخيرا وضعنا أصابعنا فى الشق ، واعترفنا بأن حمارنا «غلب» وقلنا له ذلك ٠٠ أعنى أنا لم نقله ، بل اكتفينا بأن نظهر عجزنا

بالكف عن رفع الاصابع ودسها فى شقوق الادراج ، فقال الناظر

« أيوه غلط لانها كدب • منين نعرف أن محمد أعطى على الفلوس دى ؟ تؤ • تؤ • ده كدب وعيب • ما تبقاش يا فلان افندى تعلم العيال الكدب • حرام • »

وخرج

* * *

ولا غرابة أن يكون خطى رديئا ، فقد كان الشيخ الذى يعلمنا الخط وحشا ، أعنى لم يكن وحشا حقيقيا وانما كان وحشا آدميا ، غليظ القلب منحوس الضريبة ، وكان بناء المدرسة عتيقا متداعيا ، والابواب ذات مصراع واحد ، وكانت اذا فتحت تسند بالحجارة ، فكان هذا الشيخ لا يعاقب التلاميذ الا بشىء واحد • يضع الواحد راحته على المكتب ، ويجىء بحجر الباب ويدق به عقل الاصابع •وكان هذا عقابه الوحيد على رداءة الخط ، وعلى خطأ أو ذنب يرتكب،فكيف يرجى ممن تدق أصابعهم بالحجارة أن يحسنوا الخط ويجيدوا الكتابة ؟ فهذا سبب ان خطى ردىء

وكان الذى يعلمنا « الاشياء » بالانجليزية ، فى السنة الرابعة شابا نال الشهادة الابتدائية فى العام السابق ، وكان أمرد شديد التكلف ، مسرفا فى التانق ، مغاليا فى التظاهر بغزارة العلم وسعة الاحاطة ، مفرطا فى مطالبتنا باحترامه من غير موجب لهذا ، ولم نكن نفهم منه شيئا ، ولا كان هو يدرى ما يقول ، وقد أغراه الغرور مرة فتحرش بأحد لاعبى الكرة الذين أسلفت القول عليهم ، فما كان من التلميذ ــ اذا صح هذا الوصف ــ الا أن تناوله بيديه ، وحمله ورماه خارج الفصل وأغلق الباب وجلس

وكان هذا الشاب يعطينا درسا أواثنين ــ لا أذكر ــ فى الاسبوع فصار يغيب عن هذه الدروس ويصيبه مرض مفاجىء فى أيامها أو أوقاتها ، وظل هذا المرض يعاوده الى آخر العام المدرسى ، فكنا ندعو له بالشفاء وكان بعضنا اذا لقيه فى ممر أو فى الفناء يقول له « أوحشتنا جدا يا فندى » فينظر اليه شزرا ولا يجيب • كلا • لم يكن ظريفا هذا الشاب !

وقد قضيت سنى التعليم الابتدائى كله ـ وكانت أربعا ـ وبعض سنى التعليم الثانوى ، من غير أن أتلقى خطابا واحدا أو رسالة أو كتابا أو رقعة ، أو ما شئت فسم هذا الذى يحمله اليه ساعى البريد فتفضه وتقرأ فيه كلاما من قريب لك أو صديق أو حتى ممن لاتعرف وقد يستغرب القارىء أن يلتفت الذهن الى حالة سلبيه فى ايام الحداثة ، فان التذكر يكون لما كان لا لما ليس له وجود ، ولكن لهذا الالتفات عندى سببه ، ودواعيه ، فقد كان البيت الذى سلخت فيه هذا الصدر من عمرى ، واسعا رحيبا متعدد الجوانب ، كثير البنى ، ويخيل الى الآن انه كان كالثكنة ، لكثرة من فيه من الخلق ، ولكنى فى تلك الأيام كنت أراه أشبه « بالربع » لانى لم أكن رأيت ثكنة بل حتى ولا جنودا ، وكان هؤلاء السكان جميعا أقرباء أو أنسباء ـ من بعيد ـ فكنا أشبه بالقبيلة منا بأهل البيت الواحد ، وكان الذى جمعهم طلب العلم ، وكانوا « مجاورين » ـ أى ممن يطلبون العلم فى الازهر ـ ما خلا اثنين أنا أحدهما ، وكان زميلى هذا أكبر منى سنا وأضخم جسما وأوفر طولا وعرضا ، وأكبر عقلا أيضا ، وأعرف بالدنيا والناس ، وكان أبوه قد مات وصار هو زعيم بيته، فلم ينقطع عن المدرسة ، بل ثابر على التعلم ، وكان يجىء معه من البلد شيخ حاذق « جاور » فى الازهر زمنا مديدا وخرج منه بعلم كثير وان لم يخرج « بالعالمية » ، وكانت مهمة هذا الشيخ أن يكنس الغرفتين المفردتين لسكناهما ، وأن يهيىء الطعام ، ويدرس لزميلى النحو والصرف والانشاء والاملاء والتطبيق ، وأن يؤم به الصلاة فى أوقاتها وأن يقرأ « عشرا من القرآن الكريم فى الصباح و « عشرا » مثله فى المساء ، وأن يقص عليه فى أوقات الفراغ ما يحضره من الحكايات والنوادر ، وأن يصبر فى ساعات التبسط على عبث الصبيان ، ويتشدد لاحتمال ما يركبونه به من الدعابة الخفيفة أو الثقيلة ، وكان الرجل طيبا سمح النفس رضى الخلق ، وكان له ثوب واحد أسود ـ يسمونه « الزعبوط » ـ لا يغيره فى صيف أو شتاء ، ولا يزيد عليه ولا يزال يرفو فيه ويرقع ، ومع ذلك كان الصبيان لا يتقون تمزيقه له بأظافرهم وبعنف جذبهم له من أطرافه ، وكان لتقادم عهده وشدة خلوقته ، سريع الانهيار ، فكان جسمه الاسمر ، يبدو من الفتوق ، فيلح الصبيان أحيانا فى عبثهم ويخجلون أحيانا

أخرى وينصرفون ، ويجلس هو للرفو والترقيع بوجه لا غضب فيه ولا سخط لا تذمر ، فكأنه ما أوذى وفجع فى مرفعته التى لا يملك سواها فى هذه الدنيا .

ومع فقره المدقع واملاقه الشديد ، كان ساعى البريد يحمل اليه كل يوم كتابا أو كتابين من أهل القرية ، وكذلك كان زميلى - فى البيت وفى المدرسة - يتلقى الكتب بغير انقطاع . فكنت وأنا واقف فى الصف ، استعدادا لدخول الفصول وتلقى الدروس أسمع الضابط يناديه فيبرز له من الصف ويتسلم منه الرقعة أو الرقعتين ، ويعود الى البيت فاذا له فيه كتاب متروك ، فكنت أقول لنفسى : أماصاحبى فلا عجب أن ترد عليه الكتب ، فان له أرضا وأهلا فى قريته ، ولكن هذا الشيخ المسكين من الذى يكتب اليه ياترى ؟! انه لا أهل له فيما أعلم ، ومثله فى مثل فقره خليق أن لا يكون له أصحاب أو أصدقاء يتفقدونه ويتعهدونه بالسؤال والاستفسار ، ويرعون وده ويحفظون عهده ، والفقر فى المال فقر فى كل شىء ، كما عرفت ذلك حتى فى طفولتى ، ولم أكن أعلم يومئذ أن الحديث السرى ، والصبر الجميل والفكاهة الحاضرة ، والبديهة المؤاتية ، والخاطر المسعف ، عوض كاف عما يفوت الانسان ، اذا استطاع أن يروض نفسه على الرضى بهذا العوض ، كذلك لم أكن أعرف ان علم الشيخ ، وان نقصته الشهادة به من العلماء ، ميزة فى قريته ، وجعل له حاشية كبيرة من المحبين « والمريدين » يبرونه ويكرمونه ، فهو عند هؤلاء شيخ وقور يستفتى ويتبرك به ، وعند سراة القرية جليس أنيس ، ومحدث ظريف ، وخادم نافع يقضى الحاجات ويحتمل من بينهم الصفعات ، ويقنع من الجزاء بالفضلات .

وكان زميلى هذا فى المدرسة - والبيت - مستفردا وحدا . أعنى انه كان قليل الاختلاط بالتلاميذ ، لا يلاعبهم ولا يسابقهم ، ولايفعل ما يفعلون ، وأحسبه انما كان كذلك لكبر سنه ، وامتداد قامته ، ولعله كان يخجل أن يرى عاديا فى الفناء الرحيب ، أو ضاربا بالكرة ، أو واثبا طافرا ، أو لاعبا بالحصى أو قاذفا بالنوى ، أو صانعا غير ذلك مما كنا لا نمله من ضروب العبث الصبيانى ، وكان

التلاميذ لا يألفونه لما يرون من نفرته وايثاره التفرد ، واكبابه على القراءة ، وأظن هذا ثقل على نفسه فقد جاءنى يوما وفى يده رقعة ، وأخبرنى أن أخته رزقت غلاما ، وان زوجها يسأله ماذا يسميه ، لانه يحب أن يختار له اسما جميلا ويطلق عليه عنوانا حسنا ، فهنأته ودعوت للغلام بطول العمر والسعادة ، ولامه بأن تقر بهعينها ، فشكرنى ، ورجا منى أن أساعده على اختيار الاسم الجميل الذى يطيب وقعه فى السمع ، فشعرت ان قامتى امتدت وانى زدت شبرين . فما استشارنى أحد فى شىء قبل ذلك ، ومضيت لفرحتى أقص على الصبيان الخبر وأرويه لهم متوسعا متزايدا ، وأذكر انى قلت لهم ان الغلام المولود له فى كل يد ستة أصابع ، وفى كل قدم عشرة ، وجعلت أعجب ويعجبون ، وأتحدث ويتحدثون بقدرة الله ، وأقبلوا زرافات — أو جماعات — على الزميل يهنئونه ويسألونه ، وهو — على ما بدا لى — مسرور بانجلاء الوحشة وانصرام عهد الوحدة ، ولما أخبروه مستغربين بالاصابع وعددها فى اليدين والقدمين ، ضحك ولم ينف ولم يثبت ، ولم يخاطبنى فيما هولت به عليهم ، ولم ينكر على ما تخيلت لانه شغل بلذة المخالطة الجديدة ومتعة العطف الذى لم يكن يحلم به ، عن هذه الاكذوبة التافهة التى لا تقدم ولا تؤخر ، وأحسبه لم يجترىء أن يكذب بغير علم ، ومن أين علمه أن الغلام لم يكن له أكثر مما نحلته ؟؟ وعسى أن يكون قد قال لنفسه ان الذى يخلق خمسة أصابع لليد قادر ولا شك على أن يخلق عشرة أو عشرين ؟ أليس يخلق مئات وآلافا من الشعرات فى اللحية الواحدة ؟ وما الفرق من حيث القدرة ، بين ابراز الاصابع فى اليد وانبات الشعر فى لحى العلماء ؟ فقد كان لا يرى أن لحى غيرهم تستحق الذكر ، ولو قال لنفسه هذا لما كان عجيبا منه ، فقد كان شيخه الذى أسلفت القول عليه لا يمل تحديثه بعجائب الخلق ، فى الناس والجن والملائكة ، وقد سمعته مرات عديدة يصف له الشرر الذى يتطاير من عيون الجان والملائكة والرؤوس الكثيرة المركبة لها أو لبعضها — فقد نسيت أيها — على ما روى — برأس واحد وأيها برؤوس

وتوالت الايام ، فما يثقل الدهر رجله ، أو يتلكأ فى الخطو »

وفترت حرارة العطف الذى أحسه الزميل بفضل هذا المولود ونضب معين السرور بمقدمه ، وعاد التلاميذ الى ألعابهم وأنا معهم ، وكنت ممتازا بسرعة العدو ، فما سبقني قط في ذلك الزمان أحد ، وأحسب ذلك لضآلة جسمي وخفة الساقين ، ولشدة جبني أيضا ، وارتد زميلي وحيدا مستفردا لا يكلمه أحد وهو يتمشى وبين يديه كتاب من تلك الكتب الثقيلة التي كنا نتقزز منها وننفر كما نتقزز من زيت الخروع ، ولم يكن في وسع هذا الغلام ـ وهو في أول عهده بالدنيا ـ أن يظل يشغلنا . ولم يكن له في الحياة عمل يروى فنتناقل أخباره ، ويظهر أن الوحدة بعد الانس كانت أشق عليه منها قبل أن يذوق حلاوة العطف ويجرب مزية المخالطة ، ولا عجب أن يكون الامر كذلك ، فما كان في أول الامر يحس أنه محروم شيئا ، لانه لم يكن ممتعا بشيء ، فلما جرب وأنس واستراح صار الحرمان محسوسا .

ففي صباح يوم من الايام ، دنا مني وهو مكتئب ، وانحنى يهمس في أذني أن الغلام ما كاد يجيء حتى أوشك أن يودع ، فدهشت وقلت كيف ذلك ؟ قال انه مريض ، قلت بأي شيء ؟ ففكر برهة وقال انه لا يدري ، قلت لا عليك ، فان الاطفال كالخضر ، على ما يقول النساء ، سريعة الذبول ، ولعل بردا ما به أو تلبكا أو نحو ذلك ، فلا يلبث أن يزول ويعافى

وكان في بيتنا أطفال كثيرون ، يأخذ المرض من أيامهم فوق ماتأخذ الصحة ، وانه اذ أقول « بيتنا » أشعر أني هرلت على القارىء ، فما كان بيت أحد من ساكنيه ، ولا كان لهم حصة فيه ، وانما كان بيت من شاء من الاهل والاصهار أن يأوى اليه ، فليتفضل وليخص نفسه منه بما يجده خاليا ، بلا أجر أو كراء . وقد وسعنا كما وسع سوانا واحتللنا منه جناحا كبيرا ، وأقمنا فيه ثلاث سنين ، فتأمل

فأذعت خبر المرض الخفي الذى انتاب الغلام ، وكما بالغت في الاولى ، كذلك بالغت في الثانية ، ورحت أتخير له من الامراض وأنتقي من العلل أبعثها على اليأس وأبعدها عن الشفاء ، فانحرف تيار المدرسة عن مجراه وانحدر نحو زميلي ، وكان مبالغتي في تصوير الداء أوحت

الى صاحبنا خاطرا ، فجاء يوما والدمع يترقرق في جفنه يخبرني أن الغلام قد استخار الله وانتقل الى جواره ، ففزعت ، ولم أدر كيف أعزيه ، وبأى كلام أواسيه ، فما كان في معجمي ذخيرة لهذه المواقف سرعان مانعيته ــ أعني الغلام ــ الى المدرسة قاطبة ، فاحتشدالتلاميذ حول صاحبي يبثونه أسفهم ويعربون له عن مشاطرتهم له في حزنه وكانت حجرة الناظر تطل على فناء المدرسة ، واتفق أنه كان ينظر من النافذة فرأى هذا الحشد العظيم ، فخرج يسأل ما الخبر، وكنت انا على محيط الدائرة التي رسمها الزحام ، فأبصرته مقبلا ولمحت الخيزرانة المشهورة في يمناه ، فسرت اليه وحييت وقلت

« يا سعادة البك ( وكان يحب أن يلقب بذلك ) فلان ، ابن أخته مات »

قال ، وكان اخن بطيء الكلام ــ والفهم أيضا ــ « مات ازاى يعنى يا منى يامن عبد الكادر »

قلت « يا سعادة البك ، طلعت روحه »

قال « لا حول ولا كوة الا بالله العلى العظيم ، انا لله وانا اليــــه راجعون »

قلت « أيوه يا سعادة البك »

قال « الفاتحة على روحه »

فوقفت أحرك شفتي وأنظر الى شفتيه اللتين تتحركان ببطء

ولما فرغ قال « وده مات بايه يامنى ؟ »

فخذلني خيالي ، ولم يحضرني ما كنت قد تخيرت له من الامراض ثم أردت أن أقول شيئا فجرى لساني بغيره فقلت

« مات بالحسرة ! »

فقال « يا حفيز يا حفيز يا رب ! يا سابل سترك ٠امتى يامنى ؟ »

ولم أكن أعرف هذه التفاصيل فما أخبرنى بها صاحبى ، وساءنى منه هذا التقصير ، وقلت أول ما جرى بخاطرى « دلوقت أهو » فما راعنى الا أنالرجل راح يصيح كالمجنون

« يا خبر اسود وزى الطين ؟ الحصبة فى مدرستى ؟ ياعم أحمد · يا عم أحمد ، الحا هات الصحة هنا · يالله روح · وانت يا سامى أفندى ، فركش لى العيال دول لحسن يا خدوا عدوى · بالعجـــل يا أخى · ودى بلاوى ايه دى اللى كانت مستخابية لنا فى الغيب · »

ولا أحتاج أن أقول انى لم أكن أتوقع هذا ، ولا كان صاحبى ، فبهت كما بهت من قبل الذى كفر ، وذاع فى المدرسة ان الوفاة بالحصبة وان هذا مرض معد ، وانه يفتك بمن يصيبه ، ففررنا من صاحبنا وتراجعنا عنه وخلفناه واقفاً وحده فى الفناء الواسع ·

وذهب وفد منا الى الناظر ، وذهبت معه ، فقال أحدهم

« يا سعادة البيه ، احنا خايفين من العدوى »

فقال « أمم · أيوه تمام · برده عندكم حق ، ياسامى افندى · ادى الولد ده اجازه لحسن يعدى العيال »

فقال سامى افندى « ولكنه مش عيان يا سعادة البك ؟ »

فقال « زى بعضه · اديله بقول لك · دنا خايف على نفسى ، ايش حال العيال المساكين ؟ »

فتقدمت وقلت

« يا سعادة البك · لكن ده ساكن معاى فى بيت واحد »

فقال « مين ده اللى مسحوب من لسانه ؟ تعال هنا · أمن عبـد الكادر عايز ايه يا أخى »

فأعدت عليه الخبر فقال

« روح انت الآخر أجازة »

فسألته « لامتى يا سعادة اليك ؟ » .

فقال بضجر « ما عرفش ، روح أجازه والسلام »

فألححت وسألته « لغاية ما يموت لاخر ؟ »

فقال وهو شارد « أيوه . أيوه . روح . روح امشى من هنا انت وهوه »

* * *

وأظن القارىء قد أدرك من تلقاء نفسه أن موت الغلام لم يكن سوى كذبة كذبها صاحبنا كسبا للعطف ، ولكنه ينقصه أن يعرف ، أن أخته لم تلد غلاما وان الحكاية كانت ملفقة من أولها الى آخرها ، أما الاجازة فلم تطل ، لان صاحبنا جاء بشهادة من طبيب بأنه صحيح معافى البدن ، ولو لم يفعل لبقيت فى « الاجازة » الى الآن فانه لا يزال حيا يرزق .



obeikandl.com

# فى طلعة العيد

ينكر أهلى على جمودى أو برودى ، أو غلظ كبدى ، أو فتورى ، أو لا أدرى ماذا ، فليسألهم من شاء ليعرف منهم ، فما يجرى بينى وبينهم فى هذا كلام ، وأقصى ما يكون منهم أن يحدجونى بعيونهم وهم يحسبوننى غافلا عنهم ، فاذا تلاقت اللحظات ـ لحاظهم ولحظى ـ رفعوا حماليقهم الى الصورة المعلقة فوق رأسى ، فأتباله وأبتسم ولا يبدو على أنى أستغرب أن يتفق أن ينظروا جميعا ، ومعا ، وفى لحظة واحدة ، الى هذه الصورة المشرفة عليهم من فوقى ، فترتسم على ثغورهم ـ أو أفواههم فانها فى مثل هذه المواقف على الاقل لاتستحق أن تسمى ثغورا ـ صور شتى لما يراد به أن يكون ابتساما ، ثم ينظر بعضهم الى بعض ، ومنهم من يتنهد ، ومنهم من ينهض ويمضى الى المرآة اذا كانت سيدة، أو يدفع يديه فى جيبه اذا كان رجلا ،ويروح يتمشى على مهل وهو مطرق يفكر • وأعود أنا الى كتابى أقرأ فيه ـ أعنى أكب عليه ولا أقرأ شيئا ، وأخالسهم فأدير عينى فيهم ••

وهذه الاجتماعات اللذيذة تعقد فى بيتى قبيل العيد أو المواسم الاخرى التى جرت العادة بأن تزار فيها المقابر ، والغرض منها أن نتفق على ما نصنع فى الموسم الذى تكون الايام قد دارت به ، وهل نخبز الفطير فى بيت أحدنا أو نشتريه مخبوزا ؟ ومتى يزار قبر أبى ومتى يزار قبر أمى ؟ ومن منا يؤدى الزيارة هنا ، ومن ذا يؤديها هناك ؟ وهل يتعذر التوفيق والجمع بين الواجبين ليتسنى لكل واحد من هذه الاسرة الوفية أن يزور القبرين ؟؟

وعادتى فى هذه الاجتماعات أن ألزم الصمت وأن أدع غيرى يتكلم ، لأنى أعلم أن السؤال الذى يدور فى نفوسهم وتضطرب به شفاههم ولا تجرى به ألسنتهم هو « كيف يمكن حملى على أداء هذا الواجب » ؟ فان لى ـ كما لا يعلم القارىء ـ سنوات لم أزر فيها

قبرا ، وقد جربوا مرة أن يكلموني في هذا فبينت لهم أني لبيب واته يحسن الاكتفاء معي بالاشارة ، وقد نسيت ما قالوا وقلت يومئذ ، فلا داعي لاعادته .

وكانت آخر زيارة أديت وأجبها في عيد الاضحى سنة ١٩٢٠ ، وهو عيد لا تزال حوادثه حية تصيح ، أعني عندي أنا ، فما سمع بها البوليس ، ولا اتصل خبرها بالصحف ، ولا عرفها الا صديق لي مات بعد ذلك لحسن الحظ ... كلا لست أعني هـذا ... وانما أعني ... لا أدري كيف أقول !

وكانت العادة في تلك الايام أن نخرج عصر يوم الوقفة الى المدفن، بعد أن تسبقنا اليه خزانة الفطير والخبز وسلة الفاكهـة والورود والخوص والمرسين ، والمواعين والادوات اللازمة لطهى الطعام وغـلى القهوة ، والمراتب والألحفة والحصر والبسط ، ومصابيح البترول وغير ذلك مما يحتاج اليه من ينوى أن يقضي ليلتين في جوار موتاه ليؤنسهم ويجلو عنهم وحشة الوحدة الطويلة في هـذا الابد المظلم وقانا الله شره .

وكنت آخر من ذهب ــ في ظني ــ فقد سبقوني ، ورأيتهم بعيني يخرجون من البيت ويحشرون في مركبة وأبصرت الجوادين المعروقين يجرانها بحملها الباهظ ، على قدر ما يستطيعان ، ولكني لما بلغت المدفن لم أجد الا الاثاث والرياش والمواعين والادوات ، والا خروف العيد يصيح « ماء .. ماء » ، وقد شد بحبل الى حجر من أحجار قبر أبي ، فسخطت واستهجنت أن يربط الخروف الى قبر أبي ، وأن يزعج رفاته بصيحاته العالية ودبيبه المتواصل ، وكان في الحجرة قـبر آخر قديم دفن فيه ــ قبل مولدي ــ من لا أعرف . فنقلت الخروف اليه ، وأنا أقول ان الذي في هذا القبر قد شبع موتا ولا شك ، فلن توقظه أو تتلف أعصابه دبات هذا الخروف الصخاب ، وعلى أني لا أعرف من يكون ، ولعله غريب متطفل ، وعسى أن يكون لمفاوى المزاج أو كثيف الجلد ، فلا خوف من أن ينغص الخروف عليه رقدته ، أما أبي فقد سمعت من أمي أنه كان رقيـق الشعور حي الاحساس ، ساكن الطائر ، يحب الهدوء ويكره الضوضـاء ، وهو ــ على كل

حال ـ أبي ، وان كان رحمه الله وعفا عنه ، قد شاء أن يعجل بالانتقال الى تلك الدار الآخرة قبل أن أبلغ السن التى أستطيع فيهـــا أن أنازل أخي الأكبر ـ رحمه الله أيضا ـ وأن أمنعه أن يبدد مالنا ٠٠

وأحسست ، لمـا طاف هذا الخاطر برأسي ، بما يشبه أن يـكون موجدة ، على أبي ، ورأيتني أقرض أســـناني ، وهي قوية حادة ، فخطوت الى القبر الاخر ـ قبر المجهول ـ ومددت يدى الى الحبل ، وهممت بأن أفكه وأن أعيده الى قبر أبي ، وترددت برهة ، ثم‌ذكرت أن أخي ـ الاكبر فان لى أخا أصغر ـ مدفون مع أبيه ، فزال التردد ، وقلت وأنا أعيد الحروف الى مكانه الاول :

« الحقيقة ان أبى كان ينبغي أن يكون أذكى من ذلك ٠ ماذا يصنع بنا جميعاً ؟ ألا يكفيه أن يكون له ابن واحد ـ مثلى مثلا ؟ أكان لا بد أن يجيء الى الدنيا بجيش منا ؟ أخ أصغر وأخ أكبر ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟! وهناك أخوة آخرون ماتوا فى طفولتهم ٠ فلو أنهم حلت فى عيونهم الدنيا وعاشوا أيضا لكنا ماذا ؟ قبيلة ! والمصـــيبة أن هؤلاء الاخوة الاموات كلهم أســــن منى ، يعنى أنى كنت أكون أخا أصغر لو أنهم خطر لهم أن يعيشوا ٠ بففف !! فيظهر أن أبى لم يكن قنوعا ولا كان يحب الهدوء كما تزعم أمى ؟! »

وشددت الحبل الى قبر أبي ، ورضيت عن نفسى ، وشرعت أنفض التراب عن كفى ، وأنا أحدث نفسى بأني لا أريد ـ حين يقسم لى أن أموت ـ أن أحشر فى هذه الزمرة ، كلا ، الدنيا ـ أو على الأصح الآخرة ـ واسعة ، ولا موجب لأن أكون معهم فى الحياة وبعد الموت أيضا ٠٠ لا ٠٠ ان هذا يكون كثيرا ٠٠ ان أقل ما يقتضيه العدل . . أوه ! من هذا ؟

ونظرت الى الواقف بجانبى مستغربا ، نعم كنت أتوقع أن يقتحم المدفن بعض القراء ، ملحين ملحفين ، ولكن هذا لم يـكن قارئا ولا شبهه وانما كان شيئا مرعبا ٠ فقد كان طويلا عريضا ، لو أن طينته كانت قد خلطت بطينتى لأمكن أن يخلق منا رجلان رائعان ، فكيف وهو قد استأثر بالطين كله يوم خلق ، وفى هذه اللحظة التى وقف فيها الى جانبى وبين أسنانه سكين طويلة مسنونة لامعة ؟

ولم يطل فزعي ، فاني حاضر الذهن سريع البديهة ، ولو كان غيري في مكاني ـ أي فريدا في هذا المدفن ليس معه الا موتى لانجدة فيهم ، وخروف ، في لحمه الغريض ، لا في غوثه ، المطمع ، لهالته هذه السكين الحامية ، ولأحسب بخياله من فرط الرعب أن حدها يحز في عنقه ، ولكن هذا الذي كان خليقا أن يرعبني هو الذي رد الى نفسي وأسبغ على حلة ضافية من الشجاعة والثبات . وهل غريب أن يدخل جزار لعله يفوز بذبح هذا الخروف السمين المغرى ؟

وابتسمت وأنا أقول للجزار :

« غدا . غدا يا صاحبي . فما زلنا في يوم الوقفة » .

فلم يتكلم لأن السكين بين أسنانه واكتفى بأن يزوم :

وهممت بأن أنصرف عنه ، فما بقي كلام يقال ، بعد أن أخبرته أن في عمر الخروف يوما آخر ، أو ليلة على الاقل ، ولكنني لم أشعر بحركة تحركها فالتفت اليه مستغربا بقاءه ، فتناول السكين بيمناه وقال ـ بلغتي أنا لا بلغته العاميه السخيفة ـ :

« تنح . تنح » .

وكان يشير بذراعه التي في طرفها يده التي كانت أصابعها مثنية على مقبض السكين ، فلا بدع اذا كنت قد تنحيت .

وقلت له وأنا أتراجع :

« ماذا تعني ؟ لقد قلت لك ان هذا الخروف لا يذبح الا غدا . فهل تريد أن تقصف عمره قبل الاوان ؟ »

فقال وهو يمشي الى حيث الخروف ويلوح بالسكين :

« أدخل هناك ... امض الى هذا الركن .. »

فلم أفهم وقلت : « ولكنني لا اريد أن أذبحه اليوم .. أما ان هذا لعجيب ؟ ثم اني لا أحب أن أرى أحدا يذبح أمامي ولو كان خروفا »
فقال : « سأذبحك أنا اذا لم تفعل ما آمرك ! »

قلت : « تذبحنى ؟ تذبحنى أنا ؟ »

قال : « نعم . فاطع ولا تجادل »

قلت متشجعا : « ولكن لماذا ؟ هل أنا .. أشبه الخروف ؟ »

وارتفعت يدى الى رأسى تتحسسه ، كأنما تبحث عن القـرنين ! وضحك هو وقال :

« أدخل . أدخل ... هذا أحسن »

هذا لأنى شرعت أمشى الى الركن الذى أشار اليه ، وكنت أقول لنفسى :

« اذا كان كل ما فى الامر أنه يريد أن يسرق الخروف فقد هانت المسألة .. فليأخـــذه وليذهب به الى جهنم .. وعسى أن يلهم الله الخروف أن ينطحه بقرنيه العظيمين نطحة ترديه ... »

وقطع اللعين خواطرى بأمر جديد :

« اخلع هذا »

فحسبته يشير الى الحذاءين ، فنظرت اليهما آسفا فقد كانا جديدين مصنوعين للعيد خاصة ، ولكن ما حيلتى ، وهذا الوحش الاحمق يريد أن يسلبنيهما ؟ . وخطر لى أن أصرفه عنهما فقلت :

« اسمع يا صاحبى ، لست أبخل عليك بالحذاءين ، فانى كريم ، ولكنهما لا يصلحان لأحد سواى ، أنظر اليهما ؟ ألا ترى أحدهما عالى الكعب والثانى قصيره ؟ ذلك لأن ساقى متفاوتا الطول ؟ والسبب فى ذلك شرحه يطول فلنتجاوز عنه ، اذا سمحت ، فاذا أخـذتهما لم تستطع أن تلبسهما ولا أن تبيعهما .. أرأيت ؟ من الواضح جـدا أنهما لا خير فيهما لك ولا لغيرك .. » .

فضحك الخنزير وقال :

« لا أريدهما .. فأبقهما .. وهنيئا مريئا .. انما أشـــير الى البنطلون .. » فصحت : « ايه ؟؟ »



obeikandi.com

قال : « لا حول ولا قوة الا بالله !! لم أكن أظنك أصم ·· اذن لا فائدة في الكلام ·· وعبثا أبح صوتي معك ·· فلأرحمك منهما بيدى · »

فعدت أصيح وأنا مذهول :

« ايه ؟ تقول البنطلون ؟ هيه ؟ »

فلم يعبأ بى ، وتناولنى كما أتناول أنا فراشة ، وأقبل على البنطلون ، فصحت به مرة أخرى :

« ارفع يدك ·· دعنى أنا أخلعه ·· يا ·· »

وأمسكت ، فما من الحكمة أن أشتمه ، وان كانت الحكمة كل الحكمة أن أقتله لو أنى أستطيع ــ وأن أدفنه ، أين ؟ مع أبى ؟ مع·· مع هذا الدفين المجهول ·· أو فليكن مع أبى ، فما عدت أبالى شيئا·

ومددت له يدى بالبنطلون ، فطواه تحت آبطه وفك حبل الخروف واقتاده وهو يقول :

« الآن أستطيع أن أثق أنك باق هنا » ·

فلم أفهم ، ولى العذر ، فان هذا الضرب من أساليب التفكير · تفكير السفاحين الذين يحملون على أجسادهم طوائف شتى من الاوحال والاقذار · وبين أسنانهم سكاكين طويلة لو رآها فيل عظيم لتضاءل من الرعب حتى صار دجاجه هوجاء ·

وقال السفاح شارحا :

« نعم · الآن لا تقدر أن تخرج ورائى لتثير الناس وترسلهم فى أثرى » ·

قلت وقد هدأت نفسى :

« اطمئن · اطمئن · ان أسفى ليس على الخروف · فخذه واذهب · ولا بورك لك فيه ، أو بورك لك فيه ــ سيان عندى · انما حزنى على البنطلون يا هذا ، ولو أنك فى حياتك لبست مثله مرة ، لفطنت الى

ما أعانيه من الألم والغيظ أو الحنق ، ولكنك ٠٠ اسمع ٠ اذا رددت البنطلون فاني أتعهد لك بأن أدع لك الحروف ولا أتبعك ٠٠ هات مصحفا وأنا أقسم لك عليه » ٠

قال وهو يبتسم : « هات أنت مصحفا وأنا أحلف لك عليه أني لا أصدقك » وخرج ٠

٠ وماذا يجدى الغيظ ؟ ما خير أن أقطع عشرة فراسخ وأنا أروح وأجيء في هذه الحجرة ؟ وماذا ينفعنى أن أشد شعر رأسي وألكم الهواء بجمع يدى ، وأصب على رأس اللعين الذى اختفى بالبنطلون خرطوما حاميا من اللعنات النارية ؟

لا فائدة على الاطلاق !

واستندت على قبر أبي واندفعت يدى الى جيب البنطلون الذى ذهب ، فلم تدخل في شيء فعدت الى اللعن والشتم ، وكنت أريد منديلا فمسحت عرقي بكمي وأشعلت سيجارة ، ووقفت أدخن ، ثم تذكرت فجأة أن باب المدفن لا يزال مفتوحا كما كان ٠ واني مهدد بالزائرين من هذا الطراز ٠٠ وخفت اذا تركت الباب مفتوحا أن أتعرى شيئا فشيئا حتى يصل الامر الى السروال ! فعدوت أريد ايصاده ٠

ولم أكد أضع يدى عليه حتى رأيت صديقا لى يرفع رجلا ليتخطى العتبة العالية ، فتركته يدخل وأغلقت الباب وراءه ودفعته ــ أعني صاحبي ــ الى الحجرة المنحوسة وهو يتعثر أمامي ويعجب ويقول : « آيه ؟ ايه ؟ جرى ايه ؟ ما هذا المزاح ؟ »

قلت : « لا مزاح ٠٠ اخلع هذا ٠٠ بسرعة ٠٠ حالا »

قال : « هذا ٠ ــ ؟ ماذا جرى لك ؟ »

ونظر الى ساقي المجردتين مما ألف هو وسواه أن يرى عليهما من الكسوة ، فقلت :

« عجل ٠٠ عجل ٠٠ »

قال : « هل جننت ؟ أين بنطلونك ؟ »

قلت : « على ساقيك ـ أعنى أنك ستخلعه وألبسه أنا ! »

قال : ولكنى لن أفعل شيئا من هذا ... »

قلت « ستفعله مرغما ... »

قال « مرغما ؟ »

قلت « نعم ... بحد السكين ! »

قال « السكين ؟ »

وسرنى أنى شعرت بفتور وضعف فى صوته ، ورأيت وجهه يتغير قليلا ولا شك أنه ظن بعقلى الظنون ، ولكن هذا لم تكن له أضال قيمة فقلت ملحا

« السكين ... هل أنت أصم ! اذن لا فائدة من الكلام ... وبح الصوت ... سأخلعه عنك بيدى هاتين واذا قاومت فانك تكون الجانى على نفسك ... » فلم يقاوم

* * *

ومنذ ذلك التاريخ ، زهدت فى القبور وكففت عن زيارتها ، وقلت لنفسى من شاء أن يموت فليمت فليس هذا ذنبى .

# التدخين

بدأت أعتاد التدخين منذ خمس وعشرين سنة ، وأمر هذا الرقم معي عجيب ، فاني أرى كل شيء لي يرجع الى خمس وعشرين سنة، حتى لقد أخذت أشك في سنني ، وعلى أن العبرة بالاحساس لا بعدد السنين ، فمن كان يحس أنه ابن عشرين فليس يضيره أن تقــول شهادة الميلاد انه ابن أربعين أو خمسين أو ستين ، ومن كان يشعر بالتقادم،وأنه هرم كالجبال، وانه أخو نوح أو آدم، فليس بنافعة أن تخبره الشهادة أنه ما زال في عنفوان الشبــاب ، وكنت في ذلك الوقت سقيم الاعصاب مضطربها ، وبلغ من سوء حالي وتلف أعصابي اني كنت أقصد الى دار الكتب وأقضي فيها ساعتين أو حوالي ذلكاقرأ وصف الامراض وأسبابها وما تحدثه وتؤدي اليه ، ثم أسأل نفسي: أي هذه الادواء بي ؟

ولم أكن أختار منها الا أخبثها وأسوأها مغبة ، ولا يرضيني الا أن تكون في أشد حالاتها استعصاء على العلاج ، وحدث مرة أن انتقيت لنفسي منها طائفة صالحة ، وقصدت الى صديق لي وقلت له :

« اسمع يا صاحبي ، أني مصاب بالسل ... »

قال مرتاعا « بالسل ؟ ، أتقول بالسل » »

قلت « نعم بالسل ، وبالسرطان أيضا ، وأغلب الظن اني أصبت كذلك بذبحة صدرية »

قال « هل جننت؟ كيف تتوهم ... »

قلت مقاطعا « أتوهم ؟! لقد قرأت كل ما كتب في هذه الأمراض فوجدت كل أعراضها عندي ، ولم أجيء لأخبرك بهذا ، بل لادعوك الى مرافقتي الى الدكتور س .. قريبك »

واتفقنا على اللقاء فى موعد قريب ، ثم مضينا الى الدكتور ، وكان اليوم يوم جمعة ، ولا عيادة له فيه ، ولكنه تفضل فقبل أن يرانى فى ذلك اليوم ، وكان حديث العهد بفرنسا ، وقد عاد منها بلحية كثة كأنما وضع على صفحتى وجهه جناحى غراب ، وجلسنا دقائق ننتظر ثم أقبل الدكتور لابسا « الردنجوت » احتفاء بمقدمى فيما أعتقد

وجلست أمامه فى غرفة الكشف فنظر الى مليا ثم قال «نعم»

قلت « نعم ؟ »

قال « تفضل »

قلت « اتفضل ؟! يعنى ماذا »

فقال « ماذا بك ؟ »

قلب « أعتقد انى مريض بالسل »

قال « بالسل ؟ »

قلت « طبعا · وبالسرطان أيضا ، وبالربو والسكر والزلال »

فقال « مهلا · مهلا · انتظر قليلا »

قلت « انتظر انت »

وأخرجت ورقة فيها أسماء الامراض الاخرى فقرأت « وبالذبحة الصدرية ، والملاريا والنقرس ، ويجوز ـ لأنى غير متأكد ـ انى مصاب بالفالج وبحمى النفاس ! »

فأدهشنى انه صار يقهقه كأن فى جوفه ألغاما تنفجر ، فجعلت أنظر اليه متفرسا وقد طاف برأسى أنه مخبول ، وشعرت بالخوف يستولى على ، وأشفقت أن ينالنى منه سوء ، ولكنى قلت · وماذا يخاف أو يتقى من يعانى كل هذه العلل ؟

وأقبل على الدكتور يقول بعد أن فرغت الالغام

« لنأخذها واحدا واحدا . بالترتيب . ولنبدأ بالسل . فهل تسمح لى أن أختبر صدرك ؟ »

قلت « صدرى لماذا ؟ »

قال باسما « لأرى الى أى مرحلة بلغ السل »

قلت « وهل هذا ضرورى ؟ أعنى انى لاادرى كيف تريد أن تختبر صدرى ؟ ماذا تصنع به ؟ »

قال « لا شيء . لا تخف فلن أخطفه أو آكله . اخلع هذه الثياب » فجعلت أنضوها . المعطف أولا ثم السترة فالصديرية ثم ما تحت هذه ، وكانت أشياء كثيرة لا يأخذها الحصر فقال الطبيب .

« ماذا تظن نفسك ؟ كرنبة ؟ خرشوفة ؟ دكانا متنقلا ؟ وأين أنت فى هذه الثياب ؟ انى أخشى أن لا أجدك بعد طول العناء » !

واختبر ما شاء ثم قال

« آسف يا صاحبى . لا أمل لك فى أن تصاب بالسل . فهات غيره فان جعبتك حافلة على ما أرى »

وهكذا ظل يوئسنى من مرض بعد مرض حتى شككت فى علمه ولم تعد بى ثقة بطبه ، ثم قال آخر الأمر .

« اسمع يا صاحبى . ان أعصابك مرهقة ، فأرح نفسك قليلا ، واضحك والعب كثيرا ولا تجالس من يقول ان الدنيا دار شقاء »

وقد فعلت ـ أعنى أنى من ذلك الوقت وأنا أضحك وألعب ولا أجالس الذين يزعمون أن الدنيا دار شقاء ، ولا أفتح كتابا فى الطب فقد رأيت أن قليلا من العلم يضل ويحير .

* * *

وأعود الى التدخين فقد استطردت عنه لغير سبب أعرفه ، فأقول انى كنت مرة أسير فى الصباح على جسر قصر النيل ، وكان ترام الجيزة ينتهى عنده ـ فى الجزيرة ـ وكنت يومئذ مدرسا فى المدرسة السعيدية الثانوية ، فأردت أن أدرك الترام فعدوت ، فنهجت وانقطع

قلبي واضطررت أن أقف لاستريح ، وشق على أني في شبـابي لا أستطيع أن أجرى مائة خطوة ، واغرورقت عيناى بالدموع فأخرجت علبة السجائر وعلبة الكبريت والقيتهما في النيل ــ للسمك، وتوكلت على الله واستأنفت السير

وظللت يومى هذا فرحا مغتبطا بجدة العزم وصرامة الارادة

وما لقيت أحدا من معارفى أو حتى ممن لاأعرف الا أخبرته انى كففت عن التدخين ، حتى عامل الترام قلت له وانا أناوله القرش

« اليوم رميت السجاير في النيل · يا أخى ماذا كنت صانعا غير ذلك ؟ تصور شابا مثلى يجرى مائة متر فتنقطع أنفاسه ! هل تدخن أنت ؟ »

قال « أى والله مع الاسف »

قلت « لالا ·· هذه جنايه على نفسك روح ارم هذا الدخان في النيل »

قال « لا أستطيع »

قلت « كيف لا تستطيع ؟ ألا تراني أمامك ؟ ألم أستطع ؟ لمـــاذا لا تكون مثلى ؟ »

قال « كم يوما لك ؟ »

قلت وانا أحك راسى « ا ··· ا ··· ربع ساعة »

فضحك وقال « أوه ! آه ! ربع ساعة ؟ ابق قابلنى »

قلت « كلام فارغ » وانصرفت عنه نادما على الكلام معه

ولم أشعر في ذلك اليوم بالرغبة في التدخين ، لانى كما أسلفت، كنت فرحا بنفسى ، مسرورا بامضاء العزم ، وفى اليوم الثانى أصبحت مكتئبا كاسف البال مطاطىء الرأس أجر رجلى اذ أمشى ، ولم آكل شيئا قبل الخروج كما كانت عادتى أن أفعل ، وشعرت بعطف عجيب على نفسى وعلى الدنيا كلها ، ورقة في قلبى لا عهد لى بها ، فما سألنى أحد في ذلك اليوم شيئا الا أسرعت في اجابته اليه ، ولقينى متسول

ويده مبسوطة فوضعت فيها نصف ريال ، وطلب زميل أن يستعير مني كتابا فوعدته بأن أحمل اليه مكتبتي كلها في الغد ، ودخلت في المساء مقهى فألفيت صديقا لي يشرب رطلا - فما يقل عن ذلك - من الجعة فدفعت عنه الثمن فأغراه هـــذا الجـود بأن يسر الى أنه يكون مسرورا شاكرا اذا أقرضته جنيها يرده في أول الشهر الجديد فأشرق وجهي - وقلت :

« جنيه ؟ جنيه واحد ؟ هذا ظنك بأخيك ؟ يا سبحان الله ! »

قال « أتظن أنه كثير عليك ؟ اذن اجعله نصف جنيه · وسأرده والله ! »

فقلت « لا لا · اني استقله ولا استكثره · لقد كنت انتظر منك أن تكون أحسن بي ظنا من أن تكتفي بجنيه »

قال وقد لمع في عينيه نور البشر

« نقول جنيه ونصف ؟ ·· أو ··· ربما استطعت أن تستغني عن اثنين ··· مثلا ··· ؟ »

قلت « هل يكفيك خمسة ؟ أو عسى أن تكون حاجتك إشد ··· فلنقل عشرة جنيهات ؟ قانع؟ حسن اذن! سأسبقك الى البيت فمر بي لأعطيكها »

وخرجت أمشي عائدا الى البيت ، فقابلت صديقا دعوته الى العشاء في منزلي أيضا ، فلما صرت في غرفتي عاودتني الكآبة ، وثقل على الاحساس بأن كل شيء ينقصني ، وضاق صدري ، وساورتني هموم غامضة · فجعلت أتمشى وأنا مضطرب ، وكانت حـركاتي حادة ، عنيفة ، ولمحت كرسيا في زاوية فسرت اليـه فجعلت أركله حتى قذفت به خارج الغرفة ، ودخلت الخادمة على تسالني ماذا صنع الكرسي وبأي شيء استحق هذا مني ، فقبضت على عنقها وكدت أخنقهـــا ، فلولا أنها تخلصت - لا أدري كيف ؟ لما تركتها الا ميتة ، ولم تبق في نفسي ذرة من العطف على أحد من خلق الله ، وتمنيت كما تمنى نيرون - أم ترى غيره الذي تمنى ذلك ؟ - أن يكون لأبناء آدم جميعا عنق واحد فاضربه بالسيف ، ونظرت الى الكتب على رفوفها فعبست

وأقسمت لأؤدبن ذلك الذى اجترأ أن يستعير أحدها

وصفق فى فناء البيت صاحبى الذى وجدته فى البار ووعدته أن أقرضه ـ أو أهبه فقد كان المؤدى واحدا ـ عشرة جنيهات ، فأشرفت عليه من النافذة وسألته عما يريد

فقال « هات الامانة يابطل وأكثر الله من أمثالك »

قلت وأنا أتميز من الغيظ « أى أمانة ياحمار ؟ »

قال ووجهه الى فوق ويسراه تسند طربوشه من الخلف لئلا يقع . « الله يسامحك طيب هات بقى »

قلت « ألا تنوى أن تخرج ؟ »

قال « لا بأس . اذا كنت لا تريد أن تنزل فأرم الامانة فى منديل »

فتناولت كرسيا قريبا وقذفته به ، فخرج يعدو وهو يسب ويلعن

وبعد برهة دخل صاحبى الثانى الذى دعوته الى العشاء ، وصفق كالأول فأطللت من النافذة وفى عزمى أن ألقى على رأسه زهرية فأحطمها معا ، ولكن عينى أخذت سيجارة فى فمه ، فارتدت عن النافذة وهبطت اليه كالحجر الساقط ، ودفعت يدى فانتزعت السيجارة من فمه وارتميت على كرسى وقعدت أدخن . فنظر الى مبهوتا ، ودنا منى وهم بأن يقول شيئا فرفعت يدى وقلت :

« هس ... ليس الآن ... انتظر لحظة .. حتى أدخن هذه السيجارة ... » وجعلت نفسى تعود الى ، شيئا فشيئا ، وأسارير وجهى تنبسط ، وفرغت السيجارة فقلت :

« هات أخرى .. هات بالعجل . »

فلما دخنت نصفها ابتسمت راضيا عن نفسى وعن الدنيا ونهضت أقول .

« أهلا وسهلا .. يا ألف مرحب .. تفضل »

وصفقت فجاءت الخادم المذعورة وفى ظنها انى سأبقر بطنها على الاقل ودخلت على حذر ، غير أنها أبصرتنى أضحك وسمعتنى أمزح فاطمأنت ، وناولتها ريالا وقلت :

« هاتى سجاير ... هاتى به كه . حالا ... »

# بين الحياة والموت

كان ذلك فى ليلة من ليالى رمضان • وكان بيتى يومئذ قريبا من « عين الصيرة » وعلى بضعة أمتار من الطريق الممهد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الامام ومسجد عمرو • وفى هذه الصحراء تقع مدينة الفسطاط • وكانت عادتى أن أحيى الليل مع أصحابى بالقاهرة حتى اذا انتصف ـ أعنى الليل ـ تناولت العصا وانثنيت ماشيا فلا أزال أدب برجلى وبالعصا حتى أبلغ البيت بعد ساعة ونصف ساعة فأجد طعام «السحور» مهيئا وأصيب منه كفايتى وأشرب القهوة وأنام ـ الى الظهر •

وجزت فى ليلتى تلك الامام الشافعى وانطلق مدفع السحـــــور فأسرعت وصرت فى الشارع المؤدى الى الامام الليث ، فلمحت من بعيد شيئا كالمارد يسد الطريق • ولست ترعابة ولا أنا حديث العهد بسرى الليالى فى هذه المنطقة على الخصوص ومع ذلك سرت فى بدنى رعدة ورأيتنى أتبطأ وأميل الى الحيطان • ودنوت على مهل ولكن الشبح لم يتحرك ، فشجعت نفسى وقلت لعل عينى تهذيان من التعب أو الجوع أو غيرهما • وأقبلت فى غير اطمئنان ، واذا الواقف مجنون مشهور أعرفه هادئا لا يمس أحدا بسوء • ولكن الجنون هو الجنون ، وليس ثم ما يمنع أن تهيج لوثته ، وليتصور القارىء رجلا عريضا كالحائط، ضخما كالفيل الصغير قد لف وجهه فى لحية كثة طويلة لم يشذبهـا مقص منذ سنوات ، وقد انفرج جيب القميص الازرق الذى يلبسه على لحمه عن صدر عليه غابة من الشعر ، وساقاه كالعمودين ولا يغطيهما القميص الذى يقصر عنهما ، وقد اعترضك فى طريق موحش وليس الى جانبك أو على مقربة منك أحد • الحق أقول انى خفت أن يأكلنى! ولم لا ؟ الم أره قبل ذلك يطوى الرغيف طيتين ويدسه فى فمه مرة واحدة وشدقه مع ذلك لا ينتفخ كأن الذى فيه ليس رغيفـــا كاملا

قطره عشرون سنتيمترا ؟ الم أبصره يشرب الماء من « الجردل » يرفعه ملان فيصيب ويصب ولا يضعه الا فارغا ؟ والناس يمصون « القصب» وهو ياكله بقشره - ويكسرون « جوز الهند » بالحديد وهو يقرضه باسنانه بلا عناء ولا جهد ، فماذا يمنع أن يغرز أسنانه فى حلقى أو يستملخ ذراعى فيملخه أو ... ؟

ولم أستطب هذه الخواطر ولم يرقني أن أتصور نفسي اشلاء ممزقة بين يديه وفمه ، وتخيلت هذه الطواحين التى فيشدقيه دائرة على عظامي ـ فما يكسوها الا جلد رقيق ـ تفتتها ، ويصبح الصباح فاذا المازني قد غاب ، بلعه هذا المجنون فاستولى على الرعب ودارت عينى فى كل ناحية وانطلقت اجرى فى زقاق ضيق يفضى الى أرض غاصه بالمقابر حتي ليس بين القبر والقبر متر واحد ولم يكن فيوسعه ان يدركنى لانى خفيف سريع ولى من الفزع مستحث لايفتر ، وهو ثقيل بطيء ، ولكنى لم أتريث ولم أتلفت وذهبت أعدو فى الظـــلام الحالك وأصطدم بحجارة القبور وأتعثر بينها حتى سكنت نفسى قليلا وارتد الى بعض ما طار من عقلى ، فوقفت وأدرت وجهى أنظـــر وان كنت من كثرة القبور المنتشرة وتعرج الطريق بينها وشدة الظلام لم أعد أدرى من أى اتجاه جئت ولا الى أين أنا سائر

وفى الامثال « جن الذى نجا من الموت »

كذلك أنا ـ سرت على مهل وعينى تارة الى الامام وتارة الىالوراء ـ فقد كان الخوف لا يزال فى قلبى فاذا بى أهبط فى جوف الارض ـ هبوطا عموديا لا تدرج فيه ولا ميل ـ ذلك انى وقعت فى قبر قديم خرب

وكان اول ماطاف برأسى أن ماذا اصنع اذاادركنى هذا المجنونوأنا فى هذا القبر ؟ ورفعت عينى الى فوق كأنما توقعت أن أراه جاء ينظر الى ، ولكنى طردت هذا الخاطر المخيف وقلت ـ ونا قاعد على التراب والانقاض ـ «ان المسألة هى كيف أصعد» وبعبارة أخرى ، أينالسلم اذا كان قد بقى منه شيء ؟ ومن الغريب أن كون القبر خربا متهدما وان فيه لا محالة عظام موتاه لم يفزعنى ، كأنما كانلقاء هذا المجنون

قد استغرق كل ما فى نفسى من الخوف واستنفده فلم تبق ذرة لغيره، فنهضت وقلت توكلت على الله • ودرت على عقبى الى الجدران لعلى اهتدى الى مصعد • وانحنيت لابصر وأتقى أن أصدم بشيء • ومددت رجلى لأخطو فدست ما حسبته سن حجر صغير • واذا بانسان يستوى واقفا أمامى ويطوق عنقى بذراعيه

أحسب صرختى فى تلك الليلة وأنا فى جوف القبر وبين ذراعى الجثة قد حركت الموتى فى مضاجعهم ، ولقد مضت على تلك الحادثة خمس عشرة سنة ولكننى مع ذلك كلما ذكرتها أنتفض وأحس بالعرق البارد يتصبب من جبينى وأطراف أصابعى و • قد اصابتنى بعدها النيراستينيا ولبثت أعانى كربها وغصصها شهورا طويلة • وكان أوجع ما أكابد انى لا أصدق طبيبا ولا أطمئن الى دواءه ولا أتوهم انى مصاب ألا بأشنع امراض وأفتكها • فمرة يخيل الى انى مريض بالسل فأطوف بالاطباء واحدا بعد واحد ويؤكد كل منهم انى سليم الجسم معافى البدن فأخرج وأنا أشد ايمانا بأنى مسلول • وتارة أتوهم انى مصاب بالسرطان فى المخ أو فى المعدة أو فيهما معا • فيضحك الاطباء ويقهقهون فى وجهى فلا اطمئن بل استاء ويسخطنى عليهم انهم يأبون أن يوافقونى وكان كثيرا مايحدث أن يجيء الطعام فأجلس اليه وأنا شد ما أكون اشتهاء له ورغبة فيه ، وأمد يدى لاصيب منه واذا بى أكبح نفسى وأنهض وأناموقن أن الحمى ستصيبنى وانى سأهذى بعد دقائق وانى ميت فى هذه المرة ، مافى ذلك شك ، ويشيع فى الرعب فأدعو أهلى أن يحيطوا بى وأن يلمسونى ويمسكوا يدى ورأسى ورجلى • أو أن يحتضنونى كان روحا شريرة ستخطفنى • أظل كذلك ساعة وساعتين أقاسى من الغصص والاهوال مالا قبل لأحد بتصوره ، والطعام مهمل حيث كان ، وقد قام عنه كل أحد وأقبل على يعنى بى ، والقطط تلتهمه وهى آمنة مطمئنة ولا تكلف نفسها أن تختطف وتجرى على عادتها ، ثم أفيق ويزايلنى الاضطراب واعود وكان لم أكن قبل دقائق اشبه بالمجانين •

واذا نظر المرء بعين العقل فلا داعى لأن يخيفه وجوده فى قبر أو معانقة جثة له ، وليس فى الموت نفسه ما يروع ولكن أعصابى كانت كالوتر المشدود ، بعد لقاء ذلك المجنون الذى كتب لى أن القاه مرة

أخرى وأن يكسر لى عصاى ، وكان للمفاجأة فعلها وللظلام وقعه،وقد أغمضت عينى لما طوقتنى الجثة وارتددت الى الوراء حتى لصقت بالجدار ومع ذلك أرانى كانى كنت قد أبصرتها تحت نور الشمس ولا يزال أمامى الى هذه الساعة ذراعاها الممدودتان عموديتين علـــى صدرها ، وأصابعها المتشابكة كأنما كانت الحياة قد ردت الى صاحبتها فى القبر برهة فجاهدت ثم أدركها الموت ثانية ، وساقاها المثنيتان ، وأصابع قدمها الملتوية ، والشعر الذى تموج خصله على كتفها ، والفم المفتوح كأنما كان يصرخ ، وصفا أسنانها وأضراسها يلمعان فى سواد القبر، ومحجرا عينيها اللتين لا أشك ان نظرتهما كانت الى فوق كأنما تعلقت بشىء مفزع .

وتفسير ما حدث هو انى دست على أصابع الرجلين فانتفض الجسم قائما ودخل رأسى بين الذراعين لا أدرى كيف ؟ فتعلقت بى الجثـة، وأعجب ما حصل انى لم أفكر فى تخليص نفسى من هذا العناق ، بل أخذت أحاول الصعود من هنا ثم من هنا والجثة متعلقة بى وحركتى تدفعها الى اليمين فيطالعنى وجهها الصارخ ، وأخـــرى الى اليســـار فيخيل الى أنها تسخر منى وتضحك ، وتارة تكون على ظهرى ويدها تحت ذقنى وشعرها يلامسنى ، حتى وفقنى الله وخرجت من القبر

وشرعت أعالج الفكاك منهـــا ، وكانت الى يمينى ، واذا بى أرى أصابعها مشتبكة برباط رقبتى ، فاندفعت كالمجنون أخلص نفسى منها حتى أخرجت الرباط من بين أصابعها ، فدارت الجثة حولى وواجهتنى بكهفى فينيها وبفمها المفتوح اللامع الاســـنان ، وقد صار شعرها على كتفيها ، واضطررت أن أسندها حتى أخرج رأسى من بين ذراعيها ولم أكد افعل وأرخى يدى ، حتى كانت الجثة قد غابت عن نظرى

فلو كنت حاضر العقل لادركت انى على حافة القبر وانها سقطت فيه ، ولكنى كنت منهولا ، واجف القلب ، مستطار اللب ، فخيل الى انها غاصت فى الارض ، وهتف به هاتف من الوجل والاضطراب انها ليست جثة ميتة بل روحا أو شيطانا أو عفريتا من الجن برز لى على هذه الصورة ، فلم أتحرك كأنما كنت قد سحرت أو مسخت حجرا . وظللت كذلك لا أدرى كم حتى سمعت مدفع «الرفع»

في هذه اللحظة فقط أفقت ـ ولكن القبر الذى حملت جثته كان كأنما يقيدني اليه فقعدت على الارض وهممت أن أضع رأسي بين كفي. غير اني ذكرت انهما امسكتا الجثة وعالجتا أصابعها ، فمددت ذراعي وأسندت كوعي على ركبتي ، ماذا أصنـــع بيدى الآن ؟ يدى اللتين تناولتا الجثة بينهما ؟ يداى هاتان كيف استعملهما بعد ذلك؟ وثيابي؟ أوه ، ثيابي أحرقها ـ أخلعها الآن اذا شئت ٠ ولـــكن يدى ، يدى وذقني ؟ وأحسست كأن الجثة قد عادت تطوقني بذراعيها فانتفضت قائما وقد عاودني الذعر

كلا ، يجب أن أعرف أهي جثة ميت أم ٠٠٠ أم ماذا ؟ لا أدرى ! وانما الذى دريه أن على أن أتثبت وأن أعرف أين ذهبـــت الجثة ؟ وتحسست الارض بقدمي فعلمت انى على شفا القبر الذى كنت فيه ٠ اذن الجثة قد هوت اليه ، واستقرت فيه مرة أخرى ؟ لا شك ٠ ولكن من يدرى ؟

فقطعت الشك باليقين وانحدرت الى جوف القبر لاتحقق ٠٠٠

* * *

ودخلت على أمي وزوجتي في فجر ذلك اليوم بوجه ميت ، وعيني مجنون ، فبهتتا وسألتا وألحتا ، ولكني أويت الى فراشي في صمت وسكينة متكلفة وأصبحت غيرى

وسمعت أمي يوما تقول لزوجتي « لقد تغير ابني منذ تلك الليلة ، أتذكرينها ، ترى ماذا وقع له ؟ ألا تستطيعين أن تستدرجيه؟ » فقالت « كلا ! وخير الا أفعل اذا صدقت فراستي ٠٠ »

ولست الآن أخشى القبور أو أفزع من حلالها أو أرهب عناق الجثث لو خطر لها أن تضمني بين ذراعيها ، فقد تبلدت ولم تبق لي الحياة عقلا يطير أو لبا يزدهف أو أعصابا تضطرب ، وصرت كدافن الموتى الذى يقول عنه « هازلت » ( انه يضرب الموت على ركبتيه )

# جيرة السوء

كان الشرطي ـ على خلاف المألوف أو المعتقد ـ وديعا لين العريكة، طويل البال ، ظريفا ذكيا ، ولم يكن كذلك جاره الذى يستنكف من هذا الجوار بعد أن استغنى ، ويرى أن من المهانة له ان يجترىء على السكنى لصقه ، شرطى بسيط لم يبلغ حتى أن يكون ( شاويشا ).

وكان الجار مدرسا أثرى من كتبه فابتننى له بيتا تخير له موقعا فى رقعة لم يكن أحد يظن أن سيمتد اليها العمار ، فلم يبهظه ثمن الارض ولا تكاليف البناء لقرب المكان من المحاجر.فلما تزاحف الناس ببناهم قامت البيوت على غير طراز أو نظام أو نسق فهنا بيت كالقصر له بستان تخترقه ميادين ، ولصقه آخر درجة وراء بابه ، والى جانبه حظيرة للسيارات ، يليها بيت من طين، فحانه لتسوق الخمر الرديئة، فبيوت قائمة على عيدان منصوابة مظلل عليها ، وبعض هذه تنحدر فى الارض اليه ، وبعضها ترقى فى سلمه الذى وراء الباب ، وهـذا له شرفات وعلى بابه شىء كالسدفة ولحيطانه طنف ، وذاك منكشف ، وهكذا

وكان بيت الجار فسيحا ، وله حديقة يعتز بها أحمد أفندى ـ فهذا اسمه ـ ويعنى أيضا ، وفيها يقضى أكثر وقته « الفارغ » ـ أعنى الذى لا عمل له فيه ـ ولم يكن يحتاج أن يعد دروسه لانه أعدها مرة وكررها فى كل سنة ، فصار أحسن حفظا لها من تلاميذه ـ حتى الذين يرسبون فى الامتحان ويحتاجون الى الاعادة ـ مثله ! ، وكانت فيه كزازة بغيضة وبخل ثقيل ، وكانت زوجته فى أول عهدها به تتناول من جيبه ما تريد لقضاء حاجات البيت ولا تكلف نفسها أن تسأله ، فلما رأى أن انتهاره لها لم يجده،وضع مرة فى جيبه خطافا حادالسن مما يستعمل لصيد السمك ، فنالها من حد الخطاف ما صرفها بقية العمر عن دس يدها فى هذا الجيب .

وكان اذا سئل عن الموجب لـكراهة جاره الشرطى يزعم مرة ان الفونغراف يزعجه ويطير صوابه ، ويدعى مرة أخرى أن زوجة الشرطى قذرة وانها فوق ذلك تلقى بكناسة بيتها فى حديقته ، وأن الشرطى وزوجته لا يكفان عن العراك والشجار ، ولم يكن شىء من هذا أو غيره صحيحا سوى الفونغراف فقد كان سلوى الشرطى وزوجته ، وكان أحمد أفندى يقول حين يسمعه :

« طبعا ! لو كنت أنا شرطيا مثله لاستطعت أن أقتنى مثل ما عنده من الاسطوانات ! ولكنى لست سوى مدرس ، أما هو ... هو ... هه .. ؟ مثل هذا الحيوان يفرض على الباعة الاتاوات ويجبيها بفضل بذلته ويشترى الاسطوانات ولعله يأكل من أصناف الطعام خيرا مما نأكل .. »

فتقول زوجته معرضة « وهل فى هذا شك ؟ »

فيستريب بها ويرى فى عينيها التماع التهكم فيواجهها مقطبا ويسألها « ماذا تعنين ؟ »

فتخشى سوء خلقه ، ولا تحب أن تعكر على نفسها صفو الساعة بلا جدوى ، فتقول مفسرة « أعنى انه لا يتعب فى جمع المال . ألم تقل أنت هذا ؟ »

فيطمئن ويكبح نفسه عن الاسترسال ، مخافة أن يفضى به الى مس الموضوع المخيف ، ويستأنف الانحاء على جاره فيقول

« لست أدرى لماذا لايشترى « بيانو » ! ؟ انى واثق انه لو مات اليوم لوجدوا عنده ثروة »

فيثقل على زوجته ذكر الموت وان كانت لا تتمتع من حياتها الا بالهواء وتقول

« أعوذ بالله ! يا شيخ قل كلاما غير هذا ! »

فيحملق ويواجهها سائلا « ومالك أنت ولهذا ؟ هو الذى أتمنى له الموت ، فما شأنك أنت ؟ »

فيضيق صدرها وتقول « ولكن لماذا ؟ ما لنا وماله ؟ هو في شأنه ونحن في شأننا »

فيثور وينسى كل ما يحتج به ويعلل به كرهه لجاره ويصيح « أكرهه ‥ أكرهه والسلام ‥ وأقسم بالله العلي العظيم ان لم ‥ »

ويمسك حائرا ، لا يهتدي الى شيء معين أو نوع من التهديد محدود ، ثم ان بذلة الشرطي حماية كافية له ، أو هي كذلك في نظر الناس حتى الخواص منهم ، ويرتبك أحمد أفندي ويهيجه شعوره بعجزه فيذهب يتمشى في الحديقة الوسيعة ، وكفاه مشتبكتان وراء ظهره وعينه الى الارض ٠ فتتمتم زوجته ان أهل العقول في راحة ، وتدخل البيت ٠

★ ★ ★

وعجز أحمد أفندي عن الاهتداء الى حيلة يضايق بها جاره على كثرة ما جشم نفسه من عناء التفكير ، وفي صباح يوم كان أحمد افندي خارجا فالتقى بالشرطي ، أو على الاصح بصر به واقفا على عتبة البيت ، لا ينقصه من البذلة الا الجاكتة فرمى اليه نظرة طيها كل ما في نفسه من بغض ومقت ، وهم أن يحول عنه عينه ولكن الشرطي حياه

« نهارك سعيد يا سيدنا الافندي »

فلم يرد أحمد أفندي التحية بل التفت اليه وانفجر عليه

« ألا تنوي أن تخرس هذا الفونغراف يا محدث ؟ »

فابتسم الشرطي وقال متبالها

« أخرسه وقد صنع لينطق ؟ »

فصاح به أحمد أفندي

« انك تدير الاسطوانات عمدا لتمزق لي أعصابي ٠ لا شك في ذلك ٠ حسنا ٠ سنرى »

فدنا منه الشرطي وهو يقول :

« أنا أيضا يزعجني صوته العالي ٠ فهل تعرف طريقة لخفضه وكتمانه ؟ »

فكاد أحمد أفندى يجن وصرخ

« وهل أنا صانع فونغرافات يا رجل ؟ أتشتمنى ؟ »

فقال الشرطى « عفوا ، ولكننى أنا أيضا لست صانع فونغرافات»

فأطلقها أحمد أفندى ضحكة عصبية وقال « طبعاأنت عسكرى! وكفى »

فتكلف الشرطى التعبيس وقال بلهجة المحتج :

« عسكرى ؟ تريد أن تهيننى !؟ »

فاشفقأحمد أفندى أن يكون قد تورط فيما لا تحمد عقباه وقال متراجعا

« أهينك ؟ ومن الذى يستطيع أن يهينك وأنت تلبس هـــذه البذلة ؟ لا . كله الا هذا »

فقال الشرطى « لقد ظننتك تقصد الى ذلك ... »

ولما رأى سكوته قال يعابثه « ولولا بذلتى ؟ هيه ؟ »

فصاح أحمد أفندى وقد خرج الرشد من كفه

« لولاها ؟ لولاها ؟.. آه .. لولاها لقتلتك .. »

فضحك الشرطى ضحكة مقرقعة ، فلم يسع أحمد أفندى الا أن يمضى لشانه .

* * *

وجعل الكره ينمو فى نفس أحمد أفندى هذا كالسرحة ، وما رأى جاره الشرطى وابتسامته المثيرة الا هم بأن يجازف ويخاطر بحريته ووظيفته ، وكثيرا ما قضى ساعات وهو يفكر فيما عسى أن يصيبه اذا دق له رأسه وطحن جسمه وألهب جلده بالخيزرانة ، فلولا الخوف أن يحكم عليه بالحبس أو بالتغريم أو بكليهما لاشبعه ضربا ، وكان ضخم الجسم هائل الانحاء شديد الاسر ، على الرغم من سوء الغذاء والتقتير على نفسه فيه ، ولم يكن يصده عن هذا الاعتداء الا فزعه

من الخسارة التي تلحقه لا محالة ، وتصيبه في ماله ، وقد هان عليه أن يحبس في هذا الشرطي لولا أن الحبس يجر الفصل من الوظيفة، وانقطاع « الدروس الخصوصية » التي يعول عليها في نفقته على مدار السنه ، وان كانت لا تكثر الا في ختام العام الدراسي ، وقد يؤدي الحبس أيضا ـ بل هو لا شك يؤدي ـ الى اطلاق يد زوجته في التصرف ، وهذا وحده مصاب يجب اتقاؤه

وكان تلاميذ أحمد أفندي يحضرون الى البيت ليتلقوا عليه الدروس التي يغريهم بتلقيها منه ويجسم لهم حاجتهم اليها ، وكان أثناء الدرس أو بعده يستعين بهم في تنظيف الحديقة وغير ذلك من الاعمال التي يقوم بها الخدم في المنازل الاخرى ، وكانوا هم يفرحون بذلك لأن فيه تسلية لهم وانصرافا عن الدرس ، ولانهم كانوا يرجون من ورائه أن يكون مظهر شكره لهم التساهل معهم في الامتحان ، وحسن الوساطة عند المعلمين الآخرين .

فلما ضاق صدر أحمد أفندي بما أجن من الكره لجاره ، وقلبه بما وجد من النقمة عليه ، وأعيته الحيل لجأ الى تلاميذه وسلطهم عليه وأغراهم به ، فصاروا يرشقون نوافذه بالحصى ، ويكومون الكناسة على عتبته ، ويفعلون غير ذلك مما يفتح الله به عليهم من أعمال الصبيان ، ولكن الشرطي لم يبال هذا ، واكتفى بزجرهم مرة فخافوا وانصرفوا عن هذه الحماقات ، ثم تلطف معهم فتألف قلوبهم ، وانسوا هم اليه فصاروا يتسللون اليه في غفلة من معلمهم ويقضون عليه ما يعرفونه عنه .

ورأى أحمد أفندي ان هذه الطريقه لم تعد تجدي وانها إمتنعت عليه أيضا ، فلجت به الكراهة وعذبه شعوره بالعجز ، وظن في ساعة نحس أنه ، كأفندي ومعلم ، يسعه أن يتصل « بالمأمور » ويوغر صدره على الشرطي ، فلما صار عنده لم يجد سببا معقولا للشكوى سوى ان هذا الجندي يسخر منه ، ولكن كيف ؟ بالابتسام حين يلقاه ! فصرفه المأمور وقد اقتنع بأن الرجل خفيف العقل

ولم يكن الشرطي قبل أن يعلم بأمر هذه الشكوى السخيفة يجعل باله الى أحمد أفندي أو يبادله الكره أو يقيم لما يبدو منه أي وزن ،

فلما وقف على ما كان منه مع المأمور حقدها عليـه وأسرها له ، فما سبقت منه اساءة الى جاره حتى يسعى الجار لايذائه

وفى ليله من ليالى الصيف الحميدة جلس الشرطى على كرسى أمام البيت ، وخرج أحمد أفندى وفى يمينه كرسى يجره ليجلس عليـه أيضا ، ولكنه رأى الشرطى فشق عليه أن يفسد عليه الليلة بجلوسه هكذا • ولمحه الشرطى وفطن الى تردده ، ولكنه ضبط نفسه وابتسم ودعاه أن يجلس ، فثارت نفس الرجل وخلط فى كلامه ، ونهـض الشرطى وخطا اليه فى تؤدة حتى صار أمامه وقال بلهجة منـذرة بالشر :

« ألا تخرج ؟ »

فقال أحمد أفندى « أخرج ؟ أخرج ؟ أتهددنى »

فقال الشرطى وهو يتلفت وينفض الطريق بعينه « خائف •• »

فقال أحمد أفندى « خائف •• انا •• منـك أنت •• والله لولا ان •• »

فقال الشرطى مقاطعا « لست كأمثالى ، فاخرج ولا تخف ••• وسيبقى هذا بينى وبينك فاطمئن »

ولكن حمد أفندى لم يطمئن ، وخشى أن يستدرجه الشرطى حتى يتهور فتسوء العاقبة ، وتمنى لو كان صادقا فى وعده أن يجعـل الامر بينهما فلا يصل الى القسم ، ولكن أنى له أن يثق بذلك ؟ ؟ وأدرك الشرطى ما يدور فى نفسه ، وكانت حفيظته قد هاجت عليه، غير أنه كبح نفسه ولم يشأ أن يكون البادىء بالعـدوان • فانثنى راجعا الى كرسيه فتشجع أحمد أفندى وقد فطـن الى أن الشرطى مثله ، وان خوف العاقبة مشترك ، واستراح الى هذا الخاطر فتقـدم خطوة وقال يناوشه

« قم ، اقطع زرارا واذهب فادع انى اعتديت عليك ؟ »

فوثب الشرطى الى قدميه كأنما شكه فى جنبه سيف ، وصاح به
« اذا لم تكف عن وقاحتك فوالله ••• »

فقاطعه أحمد أفندى قائلا « والله ماذا ؟ تجرنى الى القسم وتلفق شكوى ؟ »

فلم يطق الشرطى صبرا على هذا ، ودنا منه وهو يقول بصوت خفيض مثقل النبرات بالحقد المكتوم « أنا الذى يشكو يا نذل ؟. يا سافل .. يا جبان » وفقد صوابه فقال « خذ » ودارت المعركة كأحمى ما تكون ، ولكن فى صمت وبغير ضجة أو ضوضاء ، فقد كان كلاهما يود أن يبقى الامر سرا - هذا لانه معلم لا يليق به أن ينزل الى المضاربة ، وذاك لانه جندى موكل بحفظ النظام والامن ، وكان أحمد أفندى أقوى وأضخم ولكن الشرطى أبرع وأخف حركة وأعرف بالمواضع التى يخفى فيها أثر الضرب،فوجه لكماته ورفساته الى البطن على الخصوص ، أما أحمد أفندى فلم يقيد نفسه فأهوى على رأس الجندى ووجهه وصدره وركبتيه ، واستخدم فى ذلك يديه ورجليه ورأسه أيضا ، ولقى كل واحد من صاحبه برحا شديدا ، وظلا كذلك يتضاربان ويتراكلان ويتدافعان الى الحائط وعنه ، ويتحاضنان ثم يفترقان ، ويقعان ثم يقومان ، حتى سمعا - أو خيل اليهما أنهما يسمعان - أصواتا فتحاجزا وما فتر الحقد ولاخمدت ثورة الكره ، والتقط الشرطى طربوشه وهو يلهث ، وقال أحمد أفندى وهو يعتمد على حديد الباب « اشكنى اذا شئت ، فما أبالى بعد أن ضربتك هذه العلقة »

فقال الشرطى « أشكوك ؟ كلا ! بل انتظر علقة أخرى كلما ظهرت على بابك »

فقال أحمد أفندى وهو ينظر يمينا وشمالا «انت ضربتنى؟ سبحان الله العظيم ! إذهب وانظر الى وجهك فى المرآة ثم عد وتكلم »

والواقع أن الذى نال الشرطى كان أكثر مما نال أحمد أفندى ، فقد كان أحدهما محاذرا والاخر غير محاذر ، وكان أحمد افندى أقوى أيضا وان كان الشرطى يمتاز بما يشبه أن يكون حنكة ونظاما. ودخل أحمد أفندى وبقى الشرطى وقد راحت السكرة وجاءت الفكرة . وماذا يصنع الآن؟ ماذا يقول لزملائه ورؤسائه فى القسم حين يرون ما حل بوجهه وثيابه وطربوشه ؟ ودار رأسه فجلس على

الكرسى ولم يهتد الى كذبة مقبولة يكذبها ، وهم بأن يدخل ويدع التفكير الى الصباح ، واذا به يسمع صيحات اســتغاثة وأصواتا تنادى « امسك . حر.امي .. امسك ! فألهمه الله أن يعــدو الى مصدر الصوت ولم يزل يجرى حتى بلغ جماعه محتشدين على باب بيت كبير ، وهم يتلاغطون ، فكاد يقع على الحائط من فرط الاعياء – اعياء العلقة لا الجرى – وأخرج صفارته ونفخ فيها نفخات ، ثم وقف يلهث

وعرف من اللغط الذى حوله انهما لصان هما بتســور المنزل ، ولكن الخادم تنبه فصاح ، فذهبا يعدوان ، ولم يرهما أحد ، فلمـا وصل الشرطة الذين دعتهم الصفارة ، سألوا زميلهم فقال انه كان عائدا الى بيته فرابه رجلان يتهامسان ويتلفتان ثم يمشيان مشيــة مريبة فدعاهما أن يقفا وقد شك فى أمرهما وأراد أن يمســك أحدهما فانهالا عليه ضربا وهو يقاومهما ما استطاع حتى أوقعـاه على الارض ولاذا بالفرار

ولم يبد على هذه الحكاية انها غير معقوله ، فصدقهــا سامعوها وآمن بها « القسم » ، واستراح بال الشرطى ، الى حين على الاقل ، فقد خشى أن يقع اللصان فيدعى الى التحقيق ، فيظهر أثر الخيال فيما وصفهما به . ولكنه تعزى بأنه يستطيع على كل حال أن يقول ان المقبوض عليهما – اذا قبض على أحد – غير اللذين ضرباه .

وبعد بضعة أيام التقى أحمد أفندى بالشرطى على بابه فقال له

« يا كذاب ! يا منافق .. يا مزور .. ضربك اللصوص ؟ هيه؟ لا بد أن أفضح كذبك يا مزور .. وأقول للناس جميعا وللقســم أيضا انى أنا الذى شوه لك وجهك الدميم وبطط لك رأسك وحوله عن شكل البطيخة الى شكل الشمامة »

فنظر اليه الشرطى مبتسما وقد دار بنفسه خاطر خبيث

« انت ضربتنى ؟ متى ؟ انك تحلم .. ومثلك يجرؤ .. انتظر حتى أقبض على اللصين .. انى أعرف صوت أحدهما .. يشـــبه صوتك تماما .. ولم أتبين وجهه فى الظلام ولكن جسمه .. لهمثل

جسمك .. بالضبط .. من يدرى ؟ ربما كنت أنت ذلك اللص . الذى اعتدى على . أظن أن التحقيق يستطيع أن يظهر . الحقيقة . سنرى »

والقى الى أحمد أفندى نظرة فاحصة ثم قال

« لقد قلت انك ضربتنى . أليس كذلك ؟ »

فقال أحمد أفندى وهو يتراجع الى الباب

« أنا ؟ متى ؟ أبدا . أبدا »

فقال الشرطى وعلى فمه ابتسامة عريضة وأصبعه يومىء الى الجار

« لم تقل هذا ؟ غريب ؟ ربما كان غيرك اذن . يخلق من الشبه اربعين » واختفى أحمد أفندى وراء بابه

وقهقه الشرطى



obeikandl.com

# العمدة والشق

كان « عمدة » من الطراز الفاتك .. يقتلك ـ أعنى يقتل غيرك ـ ويمشي في جنازتك ـ أعنى ... ولكنى لا أعنيـــك ، ولا شأن لى بحياتك أو موتك ، ولست أرانى سأفرغ من قصتى اذا كان ينبغى أن أعود فاستدرك وأصحح وأعدل بالكلام عن مجـــراه ، بعد كل ثلاث كلمات أو أربع . فيحسن أن تطمئن الى حسن نيتي من الآن ولنرجع الى حديث العمدة .

وكنت ضيفا عليه ، وللضيف حقوقه وان لم يبلغ مبالغ الرجال، وكان معى فى هذه القرية اللعينة ابن خالتى، وهو أكبر منى وأصغر من العمدة بسنوات قليله ، وكانا ـ أى العمدة وابن خالتى ـ صديقين حميمين ، على ندرة ذلك بين الاقارب ، وكان يعجبنى من هذا العمدة الفحل انه كان ، على ما يبدو لى ، دقيق الرعاية لحقوق الضـــيافة ، فكان اذا دخل الليل وانتشرت على الارض غيابات الطفل ، ينظر الى فى حيثما أكون جالسا ، ويسألنى وهو يبتسم

« جعت ؟ »

فاقول ، وأنا أغطى فمى بكفى لإخفى الثؤباء ـ فقد كان المجلس مملا والحديث لا هو مفهوم ولا هو ممتع ، لى على الاقل

« لا ... » سمطوطة جدا

فيضحك ويلقى الى ابن خالتى نظرة ويقول فى عقب القهقهة

« والله جوعان يا بنى .. الجوع ظاهر عليك »

فينهض ابن خالتى وهو يشير بكفه ويقول

« قم بنا يا شيخ . لقد متنا من الجوع . ما لنا نحن ولمشـــاكل هذا البلد ؟ خل هذا للنهار »

فيفض العمدة المجلس وينهض عن « الدوار » ويكر بنا راجعين الى العزبه حيث بيته الجديد الذى ابتناه ، وقدامنا وورائنا ، وعن يميننا وشمالنا ، الخفراء بالبنادق ، فكنت أعجب لذلك وأعده افراطا فى اتخاذ مظاهر الابهة والسمت ، وكان يزيد فى عجبى انى زرت القرية فى عام سابق وفى شهر رمضان ، فكنا اذا قمنا عن الدوار الى البيت الذى فى العزبة نركب الحمير ، فان المسافة طويلة — والكلاب حولنا — وهى أكثر منا عددا — تملأ الارض والسماء نباحا حتى نترجل وندخل البيت ونختفى عن عيونها ، وأنا أكره الكلاب — من حقيقية ومجازية — ولا أطيقها ، وكان البيت لافناء له الا الطريق ، فكنت لا أترجل الا اذا أحاط بى الخفراء وتلاصقوا وضمنت أن لا ينفذ الى من بينهم كلب • وكان الخفراء يتضاحكون وأنا آمرهم — وان كنت صبيا — أن يضموا سيقانهم ويتلاصقوا • والناس يقولون ان الكلاب وفية ، وانها لا تسىء الى من تألفه ، ولكن ماذا أصنع اذا كنت فى حياتى لم أستطع أن أكسب ود كلب؟ وأذكر انى كنت أسكن بيتا لجارى فيه كلب ، فكان لا ينفك ينبحنى ويهرنى كلما دخلت أو خرجت ، فقال جارى مرة « أعطه لقمة يألفك» فكنت أخجل أن أعطيه لقمة ، ولشد ما كنت أود لو يقبل منى قرشا !

وكلاب هذه القريه — أو على الاصح كلاب العمدة — عجيبة ، سقط له مرة طفل فى قناة صغيرة ولم يكن من الممكن أن يغرق الطفل لأن القناة ضيقة الغور شحيحة الماء ، على أن المهم أن كلبا من هذه الكلاب الضارية رآه وهو ينقلب فى القناة أو يقع فيها فعدا اليه وتناول ثوبه بين أسنانه وجره معه الى الارض اليابسة • وقد شهدت هذا بعينى اللتين فى رأسى — أو فى وجهى أو لا أدرى أين هما على التحقيق — ومن الغريب أن هذا الصنيع زادنى خوفا من هذا الكلب على الخصوص ، ومن الكلاب على العموم •

وكانت أوباتنا فى الليل خالية من ضجات الكلاب ، ولا أدرى ماذا صنعوا بها وكيف كفوها عنا ومنعوا أن ترافقنا بالنباح من حدود الغيط الى مداخل البيت ؟ وكنت أنكر هذا السكون الذى لا عهد لى به فى القرى ، وكان اختفاء الكلاب يريبنى ، ولكنى آثرت

أن أجتنب السؤال حتى لا يثقل عليهم فضولى ، وخفت اذا سألتهم أن ينتج السؤال اطلاق الكلاب ـ اذا صح انها كلاب محبوسة ـ غير أن غياب الكلاب لم يكن كل ما أنكرت من حال القوم فى هذه الزورة ، فقد كانوا يمشون صامتين ـ فلا لفظ كعادتهم ولا كلام ، حتى ولا همس • كأنهم فى مأتم ، حتى نبلغ الدار وندخل الحجرات، فتنطلق الالسنة التى كانت معقولة ، وترتفع الاصوات ويكثر نداء هذا أو ذاك من الخدم أو الفلاحين ، وتنبسط أسارير الوجوه ، وتعود الى أصحابها الحياة • ولكنهم مع هذا كانوا لا يجلسون فى صحن الدار ولا يتعشون فى الرواق ـ وأعنى به المكان المسقف فى مقدمة المنزل ـ وانما كانوا يتخذون لمجلسهم اذا أرادوا الحديث أو الطعام ردهة ، بين الغرف ، يهيئونها لذلك •

وكان الوقت صيفا ، فضقت ذرعا بهذا الحال وشق على أن أقضى الليل محبوسا فى الغرف ، وكنت كلما هممت أن أحمل كرسيا وأخرج به الى عرصة الدار منعونى وزجرونى عن ذلك ، وفى احدى الليالى كنت أستعد للنوم وكان الحر شديدا فأردت أن أجر السرير الى النافذة فقال لى ابن خالتى وكان له سرير آخر فى الغرفة

« لا تفعل • ويحسن أيضا أن نوصد الشباك • »

فكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، فقلت له

« سأعد حقيبتى ، وغدا صباحا أرحل عن هذه البلدة • »

فنظر الى مستغربا وسألنى « لماذا ؟ »

قلت « لماذا ؟ المقام لا يطيب لى هنا • هذا هو السبب »

فأقبل على يسألنى « هل ينقصك شىء ؟ أتشكو تقصيرا أو •• »

فقلت مقاطعا « كلا • لا أشكو شيئا الا هذا الحر • وأظنك توافقنى على انى لم أجىء الى هنا لاحبس بين الجدران •• وفى الليل أيضا ! معقول أن نعوذ بالغرف المغلقة من الحر ولفحه ، ولكن الليل •• الليل؟ الليل الطلق والجو السجسج والظلام الساجى ، لماذا تحرموننى طيب ذلك ؟ حتى النافذة تغلقها وتسدها وتمنعنى أن أتروح ••

لا يا صاحبى متعك الله بهذه الحياة . أما أنا فراحل من الغد . »

فوجم وظل هنيهة مطرقا لا ينطق بشيء . ثم رفع رأسه وقال :
« لا أدرى . ولكنى أظن أن رحيلك يكون عملا غير لائق . »

فانفجرت صائحا « وهل يليق أن تخنقونى هكذا ؟ »

قال « انتظر يوما أو يومين .. لا أكثر .. »

قلت « السفر غدا كالسفر بعد يومين . ولست أرى فرقا يوجب أن أبقى »

قال « لا أعنى هذا ، انما أعنى ان ما يسخطك لن يبقى أكثر من يومين »

قلت « لست أرى انى فاهم شيئا . والحقيقة أن القرية قد تنكرت وتغير أهلها عما كنت أعهد »

قال « لم يتغير فيها شيء . وما زالت كما كانت »

قلت « ربما . على كل حال لا أرانى راضيا بالاقامة فيها أو مطيقا لها واذا لم يكن هذا عيبها فليكن عيبى . والافضل الرحيل . »

قال « بل تبقى . وتتحول الى الجزيرة من الغد . هى آمن لنا »

وكانت الجزيرة ـ كاسمها ـ جزيرة ، يملكها العمدة واخـــوته ، وقد بنوا فى وسطها منزلا حسنا وأقاموا على ساحلها بيتا صـغيرا من خشب لاستقبال الضيفان ، وكانت الاقامة فى الجـــزيرة هى ما أبغى من أيام ولكنى لم أفض برغبتى الى أحد جرى لســـان ابن خالتى بذكرها فقلت متعجبا
« امن ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال « لا شيء سوى أنا هناك لا يصل الينا الا من نبعث اليـــه بالزورق »

قلت « ولكنك قلت انها آمن ، فهل عنيت شيئا غير هذا ؟ »

وطاف براسى كل ما أنكرت من حال العمدة ـ نهوضه عنمجلس الدوار فى أول الليل ، وطول صمته فى الطريق الى منزله ، وكثرة



obeikandi.com

الخفراء حوله ، واختفاء الكلاب النابحة ـ كل هـــذا صار له معنى جديد عندى لما سمعت من ابن خالتى ان الجزيرة آمن ، ولم يخدعنى تفسيره ، ولمحت فيه التعمل والتمحل ، وكان لا يكذب ولا يطيـــق الكذابين فقلت أفاجئه بسؤال مستقيم لا هروب منه وأخـــرج من جوابه ببعض الفهم :

« ألا يحسن أن تأتمننى وتشركنى فى العلم بما تكتمه ؟ »

فقال غير متردد « لا أملك هذا . هو سر غيرى »

قلت « غيرك ؟ تعنى العمدة ؟ »

قال « لا تلح . فاضطر »

فأمسكت .

* * *

فى اليوم التالى تحولنا الى الجزيرة ، فعوضنى الله خيرا ، وأحسن جزائى بما صبرت ، وكانت الجزيرة فردوسا صغيرا ، فلم أبرحهـا ولم أعد قط الى القرية ، وصرت لا أرى العمـدة الا حين يزورنى ، وكان ابن خالتى يلازمنى ولا يفـــارقه ، ولم تستوحش نفسى لأن حولى من الأقارب الكفاية

وفى الجزيرة وقفت على سر ما أنكرت من حال العمدة ، فعرفت أن شريرا من أهل القرية انتفض على العمـــــدة وذهب يعيث فى القرية : يسمم المواشى ، ويحرق المحاصيل ، ويقلع القطن ، ويقتل من يعترضه ، ولا يقوى عليه أحد ، ولا يجرؤ أن يشى به أو يدل على مكمنه مخلوق، ففسد الامن واضطرب حبله، ورأى العمدة أن سلطانه يتقلص ظله شيئا فشيئا وانه يفقد ما كان له من هيبة ، فســـعى سعيه غير موفق فيه ، وأعيته الحيلة وعزه القبض على هذا الشرير ، وزهى هذا ـ أعنى الشرير ـ بما أوقع فى النفوس من الرهبة ، فبعث الى العمدة يتوعده وينذره بالقتل ومن هنـــا ما لا خظت على سلوك العمدة . واستفاض خبر الانذار ، فكاد العمدة يجن ـ لا خوفا فقد كان جرىء القلب ، بل غضبا وغيظا

وقد عجبت لابن خالتى ومبالغته فى التحفظ وغلوه فى كتـــمان سر ذائع ، ولكن بعض الناس هكذا أبدا

وبعد بضعه أيام أقبل على واحد من فلاحى الجزيرة بوجه متهلل وابتسامة عريضة وقال « مبروك يا أفندى »

قلت « بارك الله فيك · ماذا ؟ »
قال « البيه العمدة خلاص »
قلت « خلاص ·· خلاص ·· ماذا تعنى ؟ »
قال « اصطلح »

قلت « قبحك الله يا شيخ ·· ألم تكن تستطيع أن تقول هذا من أول الامر ؟ »

وكنا على الشاطىء ، والنــوتى – فى زورقه – قريب منا يرى ويسمع فقال :

« لا تؤاخذه يا أفندى · أى نعم تصالح هو وعلى · وسيزور الجزيرة الليلة ، ويتعشى مع البك توكيدا للصلح واعلانا له »

ففرحت واشتقت أن أرى هذا الشقى اللعين الذى وسعه أن يقهر العمدة الجبار ويطامن من كبريائه ، ويرغمه على المحاسنة ،واشتهيت أن أعرف شروط هذا الصلح الغريب بين عمدة يمثل سلطان القانون وشرير يمثل التمرد على القانون والانتقاض على النظام ·

ومالت الشمس للمغيب فهبط على الجزيرة مارد أســود لم أر وجهه من قبل ، قالوا لى انه جاء فى ركاب سيدات من أصهار العمدة نزلن بالجزيرة · وبعد العشاء نادى المنادون من الشــاطىء الآخر « يا على ! يا واد يا على ! » فدفع على الزورق عن المضحل حتى كان يخرج به الى الغمر ووثب فيه وانطلق به يفرق المــاء الى حيث يدعونه · وبعد برهة عاد بالعمدة والشقى ونفر من شيوخ القرية وكان ابن خالتى قد سبقهم الينا بساعات نامها كلها ·

ورأيت الشقى فاذا هو شىء ضــئيل قمىء لا يملأ عينا ولا يفزع قطة ولكن له عينين كعينى الثعبان ، وله بهــا نظرات ، يديرها فينفض بها جميع ما حوله وهو لا يكاد يحرك رأسه أو يحول وجهه الى شىء ، أويلاوصك بها فكأنما هو ينظر اليــك من خلل باب أو

ستر ، أو يدومها فكأن حدقته في فلكة ، أو يحجم فلا ترى جفنه يطرف ، وقدينظر اليك بعين ويكسر أخرى ، ويميل وجهه فى شق العين المفتوحة ، فتعجبت مو آمره ، ولم أستكثر علية أن يخافه الناس ويرهبوه .

وتعشينا ودار الكلام وكثر الضحك وعلت القهقهات ، وراح كل من يعرف نكتة يلقيها ، أو قصة طريفة يرويها . ولم يقل أحد شيئا عن الخصومة القديمة والصلح الجديد ، وكان الشقى لا يزيد على الابتسام حتى قارب الليل الانتصاف ، فنهض الشقى مستأذنا فصافحه العمدة وقرئت الفاتحة وتبودلت عبارات التحية والمجاملة ، وانحدر صاحبنا الى الزورق ، فلما صار فيه وهم النوتى أن يدفعه أقبل المارد الزنجى وصاح بالمنوتى أن خذنى معك ، ولم ينتظر بل خاض الماء ثم وثب فاذا هو فى الزورق فمضى بهما

وعاد الامر فى القريةفاستقام فى يد العمدة ولم يفلتمنها العنان بعدها أبدا .

دارت سنوات وسنوات فاذا أنا وابن خالتى فى القرية مرة أخرى نقضى أسابيع من الصيف . وكان العمدة قد انتقل الى جوار ربه وجاء غيره من اخوته ، فقال لى ابن خالتى يوما ونحن نتمشى على سيف الجزيرة :

« هل تذكر ؟ »
قلت « ماذا ؟ »
قال « سنة .. لما كنا هنا .. »
قلت « أذكر انى كنت هنا . معك .ولكنه تاريخ قديم وقد أنسيته »

فذكرنى ثم قال :
« وهل تعرف ماذا جرى للشقى ؟ »

قلت « صالح العمدة ، أو صالحه العمدة .. شىء كهذا والسلام»
فضحك وقال « يا أخى والله لقد كان .. حقيقة جبارا »
قلت « يعنى ايه ؟! »

قال « بعد أن ركب معه العبد وصارا في وسط النيل تحـــرش بالشقى ، فأدرك هذا انه تدبير مبيت ، وقال « أهو غدر ؟ » فقال العبد « وماذا كنت تظنه غير ذلك ؟ » وتناول رقبته فلواها فكسرها ثم شد اليه حجرا كان معدا في قاع الزورق ، وألقاه في الماء »

قلت « هكذا كانت آخرته ؟ »

قال « نعم . وكان بهذه الميتة جديرا »

قلت « لا أدرى »

قال « كيف ؟ »

قلت « على كل حال ، حسابهما على الله لا على أنا »

قال « صدقت . »



obeikandl.com

# الراعيان

## صورة وصفية من العهد القديم

هما فتاة وفتى من أبناء الرعاة فيما يعلم الناس ويعلمان ٠ لايملكان من حطام الدنيا سوى مرقعتين على بدنيهما وعصوين في يديهما ٠ يهشان بهما على الغنم حين يخرجان بها في البكرة المطلولة ٠ ويطلقانها ترعى قبل أن يعلو النهار وتتوسط الشمس كبد السماء ٠ ثم يسوقانها بعد أن تميل الى المراعى النضرة ٠، ثم يوردانها ويكران بها الى حظائرها عند انحدار الشمس الى المغيب ويقيمان عليها الكلاب تحرسها وتحميها وتمنع الذئاب أن تقع فيها وهما نائمان وهكذا شبا بين المعيز والكباش ٠ هي معازة ، وهو غنام ٠ وان كانا — لشبابهما — كثيرا مايترك أحدهما الامر لصاحبه ويذهب هو يلعب ٠

وجاءت مقدمة الربيع وأينعت الازهار وأورق الشجر ورف النبات فعلا وجه الارض نضرة وخفق النحل على الورد يشاكيها الهوى ويسارها ويشور جناها ٠٠ وأرسلت العصافير صدحاتها فضية خالصة ٠ وانطلق نتاج الغنم يطفر ويتوثب فرحة بالحياة الجديدة ٠ وصاحبانا يريان الطبيعة في عيدها فتأخذهما نشوة الشباب وتتقد الدماء في عروقهما فيغردان كالاطيار ويقفزان ويجريان كالاغنام ٠ ويقبلان كالنحل على الازاهر ٠ يقطفانها ويتراشقان بها — ولا يفترقان في ليل أو نهار ٠

***

واتفق مرة ان كبشين تناطحا وكان النطاح قويا فانكسر قرن أحدهما فولى هاربا والكبش المنتصر في أثره ، ورأى الفتى ذلك فهب وتناول عصاه وذهب يعدو وراءهما ليردهما الى القطيع ويزجرهما عن الانتطاح ٠ ولم يكن باله الى الطريق ، فاذا به على يديه ، ووجهه في زحلوقة فندت عنه صرخة غيظ ٠ فاقبلت الفتاة وخاضت اليه

الطين وناولته يدها وعادا معا الى شجرتهما التى كانا فى ظلهـــا ، وجف الطين على ساقيه وذراعيه ووجهه وبعض صدره فقالا نغتسل حين نورد الغنم • ولكن النظر الى وجهه الملطخ المشوه لم يكن يروقها

وبلغا الترعة وخلع قميصه والقى بجسمه فى الماء وخاضت هى الى قريب منه ، وكان شعره أسود طويلا وجسمه أسمر كأن لونه ظل شعره • فارتاحت عين الفتاة ــ وهى تفرك رجليها فى الماء ــ الى منظر جسده ، وعجبت لجماله كيف لم تفطن اليه من قبل • وحدثت نفسها لسذاجتها ان لعل الماء هو الذى اكسبه هذا ، ودنت منه ومدت يدها الى ذراعه تمسحه له • ثم الى كتفه وصدره ووجهه ، ولان جسمه للمسها ، وأحست هى برقته فعادت يدها تنثنى الى جسمها هى لترى أيهما أرق والين • وانحدرت الشمس فعادا بقطعانهما • وليس فى ذهن الفتاة أو نفسها سوى الشوق الى رؤية صاحبهـــا يغتسل مرة أخرى •

***

وفى الصباح تركا الغنم ترعى وجلسا تحت الشجرة على عادتهما ثم تناول الفتى مزماره ليزجى به الفراغ وأرسل أصواته وهو ضاجع وعينه الى الغنم المحيطة به ، وكأنما أطربتها حلاوة ألحـــانه فعطت اليه مصغية وكفت عن الرعى • والفتاة الى جانبـــه تلقى الى الغنم نظرة •واليه عشرا وقدخيل اليها كأنما أصابعه قدأستحالت نسيما وانيا • وكأن فى وجهه حسنا جديدا • وهو فى غفلة عنها • كأنـــه ليس معها ، يلحظ الارض والسماء بعين شاردة الانسان • وهى تعجب لنفسها لماذا تتنزى • ولأصواته المألوفة ماذا أصارها بارعة الاخذ مونقة كالروض • أهو المزمار ــ سر مافى صاحبها من حلاوة ؟ وخطفته منه ونفخت فيه مثله ، ثم القته ودعته الى الماء ليغتسل • فلما صار فيه جعلت تلحظه خلسة ثم مدت يدها ولمسته وهو يخرج منه ولم تستطع وهى عائدة معه أن تكتمه اعجابها بحسنه •

***

ماذا أصابها ؟ لم تكن تدرى • فقد كانت صغيرة ولم تكن تعرف الا الاغنام • أماالحب فلم تسمع به أبدا • ولكن قلبها كان يقبضه

شيء . وكان صدرها يضيق بما لاتدرك . وكانت عيناها لاتزالان تتلفتان هنا وهاهنا ـ بكرهها ـ وحديثها أبدا عن صاحبها ، ولم تعد تجد في النوم راحة ولا في الطعام رغبة . وفتر نشاطها ، وأهملت معيزها ، وكثر ضحكها وبكاؤها ، لغير سبب . وتداول وجههـــا الشحوب والاضطرام . وصارت نظرتها كالحـــالمة ، وتوالى أرقها ، فالليل ليلان : واحد صبحة يرتجى ، وليل هم ماله من نفاد .

وناجت نفسهايوما بكلام كهذا

« أنا مريضة .. أو هذا ظني . ولكن بماذا ؟ لاأدري . أحس الما ولا أرى جرحا . والالم شائع . شائع من قبة رأسي الى اخمص قدمي وأراني حزينة ولم أفقد شاة . وفي جوفي نار ، والظل وارف تحت الشجرة . كم شعوكة وخزتني فلم أبك ! كم نحلة أبرتني فلم أتوجع فما لهذا الذي يخز قلبي ، أوجع ؟. هو جميـــل ، وكذلك الازهار . وأصوات مزماره عذبة ولكن تغاريد الطيور حلوة كذلك .. ولست أراني أعبأ بالزهر أو الطير .. ليتني كنت مزماره لتلمسني شفتاه وتنفخا في من روحه . ليتني كنت كبشنا ليرعاني ويحرسني .. ويح هذا الماء الذي جمله دوني .. »

وألفاها هو يوما نائمة فاستلقى الى جانبها . وامتدت يده عفـــوا وعن غير قصد الى مزماره ، ولكنه نظر اليهـــا فجمدت يده ، وبقي المزمار معلقا في الفضاء لا هو الى فمه ولا هو يرتد . وكأنما لم تكن له عين الا الساعة . فراعه شعرهـــا الذهبي الذي كأن فيه نارا مضطربة ، ووجهها الابيض كاللبن الذي تحلبـــه بيديها .. ايه ماأرقهما وأدقهما ! ..

وحنا عليها ليتأملها فأيقظتها أنفاسه الحارة ـ أو من يدري ؟ ـ لعلها لم تكن نائمة ـ فاتقد وجهها وصـــبغته الحمرة ولكنهـــا لم تتحرك .. ورنت في سكون كأن شيئا في نظرته خدر جسمها وفتر أوصالها . واختلجت شفتاها واستدارتا في اضطراب كأنما تدعوانه فأهوى عليها بقبلة ارتد بعدها باهت اللون صامتا شارد الفكر .

* * *

وصار هو أيضا كلما خلا الى نفسه يناجيها بكلام كهذا

« ماذا دهاني من هذه القبلة ؟ ان شفتيها أرق من غلائل الزهر ، وفمها أحلى من العسل ، ولكن لقبلتها كيا ‥ وألما كوخز النحل ‥

« ما أكثر ما لثمت غنامي ، ولكن قبلتها ليس كمثلها شيء ٠ ان قلبي يثب الى شفتي كلما تذكرتها ، وروحي ترف ، وقوتي تنوب ومع ذلك أشتاق أن أقبلها مرة أخرى ! أفي فمها نار ؟ لماذا اذن تلسع ٠ أفي شفتيها داء أعدتني به ؟ أتراها شربت سما قبل أن ألثمها ؟ اذن كيف لم تمت ومزماري ! مزماري ! ماأحلى تغريد الطيور وهو صامت ٠ وتالله ماأرشق توثب الخراف وأنا راقد ، والزهر ينفحني أريجه ، لكني لاأبسط اليه كفا ولا أدني منه أنفا ٠ كل شيء ينضر ويهتز ويربو وأنا وحدي أذبل وأجف ٠ »

***

ومضى الربيع وجاء الصيف ، حامي الوقدة ، فالهبهما واستوى كل شيء ، وثقلت الاشجار بثمارها ، وتغطت الحقول بزرعها ، ورقت تغاريد الطيور ، وحلا حتى غناء الصراصير وثغاء الاغنام وجرى الماء في الاقنية يغني والنسيم يصفر ويزمر بين أوراق الشجر ٠ وفتر الحر الثمار اليانعة فهوت ، وجردت الشمس الطبيعية وحسرت عن مفاتنها لتملي عينها بسحرها فصار الفتى يختلف الى الماء يغمر جسده به ويكرع منه ليطفيء وقدته

وفي القيلولة يأويان الى ظل الشجرة ويقعدان يترامقان ـ هي مفتونة بقده واعتداله وقوته مع لينه ، فلا يسعها الا أن تنظر اليه وهي ذائبة ٠ وهو مسحور بعينيها وفمها وشعرها ، وقد يقبل كل منهما ثوب الآخر حين ينام ، وقد يذهبان يترامیان بالثمار الناضجة وقد يقعد يلقنها الالحان التي يزمرها فيحلو لها أن تريح المزمار على شفتيها بعد شفتيه ٠ ويسره هو أن يتلقاه بفمه بعدها ٠

واذا ثنى الحر رأسها وأطبق جفونها اشتاق أن يختلس منها قبلة ولكنه كان يكبح نفسه ويناجيها

« ماأحلى هذه الجفون المغمضة ! ماأرق هاتين الشفتين الورديتين ! ان لهما لعبقا ليس للتفاح ، ولكني أخاف أن ألثمهما فان قبلتهما

لاذعة تطير الرأس وتذهب باللب • وأخاف أن أوقظها اذا قبلتها • يالهذه الصراصير التي لاتسكت ! انها تكاد تبعثها من رقادها • والاغنام أيضا تتناطح وتدب بأظلافها • فليت الذئب كان قدأكلها جميعا •

ووقعت نحلة صغيرة على صدرها واعتدلت تمشي بين ثدييها • فأفزعتها وأطارت نومها وصرخت ، ولما رأت صاحبها يضحك عادت تفرك عينيها • وأزت النحلة بين نهديها فصرخت مرة أخرى فضحك الفتى ثانية ودفع يمينه بين ثدييها وأخرج هذا الطفيلى وأراها اياه ، فتناولته وقبلته والقت به حيث كان وتركته يمشي ويغني اذا استطاع

ولكن الفتى كف عن الضحك بعد أن لمست راحته صدرها وأحس ثدييها ناهدين على جانبي يده ، وشعر بضلوعه تنطبق ، وبقلبه يوجعه ، كأن في جوفه سما ، وراح ينفخ ويلهث كانما كان قد قطع خمسين فرسخا جريا ، وزاغ بصره وصار يرى الشيء اثنين وأربعة • فنهضت اليه تسأله ماله ؟ فارتمى على الارض ووجهه الى السماء ، وهو لايزال يزفر كأن في جوفه بركانا فرفعت رأسه بكفها وحنت عليه تمسح له جبينه وخده بالاخرى ، فسرت رعدة في بدنه تلاها مثل نار الحريق فطوقها وضمها الى صدره • وعرفا بعدها ماذا بهما !

# سيرة من السير

عرفته من المدرسة • وكان هو « الالفا » أى التلميذالذىيوكل اليه الاشراف على نظام فرقته • ولم يكن ذلك لانه كان أبرعنا أو أذكانا أو أكثرنا تحصيلا ، بل لان ادارة المدرسة توسمت فيه القدرة على الاضطلاع بهذا العبء • وكان طويلا له وقار وسمت ، وفيه قوة وصمت • فكنا نحن القصار نرفع اليه عيوننا اذ نحدثه • وكان هو يصوب الينا عينه • ونقول نحن ونبدىء ونعيد ، وهو مصغ الينا فى سكون وحلم وعطف • فاذا فرغنا كان جوابه كلمة أو اشارة أو ابتسامة • وقلما كان يستعمل واحدة مكان الاخرى ، أو اثنتين اذا كانت فى احداهما الكفاية ، واذا تساوت الكلمة والايماءة آثر الايماءة وضن بالكلمة • وكانت فرقته أحسن الفرق نظاما وأشدها اجتهادا • يدق الجرس فنسرع الى الصف وننتظم فيه ـ الاطول فالاقل طولا وهكذا ـ وتنثنى الرؤوس الى الاحذية وتنفض الايدى عنها الغبار بالمناديل أو الخرق ، لانه كان يحرم علينا أن نمسحها فى « بنطلوناتنا » وهو يراعينا من مكانهويمر بعينه علينا دون أن يتحرك أو يتكلم • حتى اذا انتهينا نظرنا اليه جميعا فيومىء برأسه فندور ونسير ويمضى كل منا الى مقعده • ويدخل هو آخرنا ويجلس ويفتح الدرج ويخرج الكتاب أو الكراسة أو غير ذلك مما يستلزمه الدرس المقبل ، ونفعل نحن مثله •

ثم نضطجع وننتظر • ويجىء المدرس فيكون هو أول الواقفين وأسبقهم الى رفع يده الى رأسه بالتحية • ونتلقى تحية المدرس ونرد عليها ونقعد دونه ، فانه يظل واقفا حتى ينتهى المعلم من وضع ماامعه والتهيؤ للتدريس فيتقدم اليه بورقة « الغياب والحضور » ثم يعود •

ولم يكن حسن الثياب أو أنيق الهندام • ومن الذى يفكر فى الثياب وهو ينظر الى هذا الوجه الرزين ؟ ولا كان يتحيز الى أحدمنا

لانه كان عادلا دقيق الشعور بالواجب • ولم يكن يباهي بمركـــزه أو يسيء استعماله وكان من فريق لاعبي الكرة • ولكنه كان على خلافهم جميعا • تراه في آخر الشوط كما كان في أوله ، نشاطاوتصميما • ولم يكن يظهر شعوره أو يبدو لك كأنما يحاول كتمانه ـ كما كنت أفعل أنا ـ وهكذا حتى قاربنا ختام التعليم الثانوى •

ثم افترقنا سنوات لم أره في خلالها قط • لأنه لم يستطع أن يؤدى نفقات التعليم • ولم يكن ينقصه ستوى عام واحد يتقـــدم بعده الى امتحان الشهادة الثانوية • ولم يفلح سعى الناظر ـ وكان انجليزيا ـ في الحصول له على المجانية فعرض أن يجمع له اكتتابا ، فشكره وأبى وغاب •

ولقيته ـ وكنت قد تخرجت وأصبحت مدرسا ـ فقص علـــى مافاتنى من حياته ، وعلمت منه انه ذهب الى الســـودان والتحق بشركة انجليزية حتى يدرس « الاحتمالات » ـ على حد قوله ـ ويعد نفسه للحياة الحرة ، فلما بدا له أن في وسعه أن يغامر بخـــوض العباب ، ترك الشركة وشرع يتجر بالماشية ، يشتريها ويبعث بهـا الى مصر • ولم تكن تجارته واسعة لأن المال الذى كان قد أدخـــره لذلك ضئيل ، وأسفاره التى يضطر اليها كثيرة • وماينفق من الماشية في طريقها الى بلدان مصر يذهب بكثير من الربح •

وقلت له لما سمعت قصته « وكيف تطيق السودان وحره ؟ »

فقال مستغربا •• « حر السودان ؟ وهل أنا من القطب الشمالى ؟ »

فقلت ملحا « الوحدة ؟ »

قال « أى وحدة ؟ »

قلت « أعنى التخلى عن المدينة والانقطاع عن معاهد صباك »

فكان جوابه الموجز أن ضحك وقال « ينبغى أن يرى المرء غـــير موطنه »

ولم أر أنه اختلف عما عهدته • فلا ثيابه آنق ولاهو أقل صرامة وجدا • وقلت له

« لو كنت أنا مكانك لما استطعت الا أتزوج »
فصمت برهة ثم قال وهو يهز رأسه

« لاأستطيع أن أتزوج قبل أن أعد لامرأتى مكانها • ان هـذه التجارة فى أول أمرها مقامرة »

وجعلنا نتلاقى عشرة أيام ، وأنا دائم التفكير فيه ــ فى صمته المخيم وفى وحدته وانقطاعه عن أهله وأصحابه ومعاهده ، وفى مظاهر المدنية التى خيل الى أنه نفض يده منها وأشاح بوجهه عنها ، وفى أسفاره الطويلة فى فيافى السودان المحرقة ، وفى اختلاطه بأصحاب الماشية أو رعاتها أو تجارها ، وفيما عسى أن يكون مكابدا من متاعب العيش والكدح وراء الرزق فى بلد ناء كالسودان مما يمنعه احترامه لنفسه أن يبوح به • وجعلت أفحصه بعينى وأبحث عن دلائل التأخر أو الانحطاط أو الخشونة أو اللين أو غير هذا وذاك مما توهمت أن حياة كهذه حرية أن تفضى اليه ــ ولكنى لم أقع على شىء • وكان ينفر من الشراب ويستحيى اذا ذكرت النساء ويؤثر المشى على الركوب •

وسألته وأنا أودعه يوم أوبته •
« متى تعود الينا وتقيم بيننا ؟ »

فقال وعلى شفتيه ابتسامة « أعود متى ارتحت الى ثمرة كدى •• وأتزوج » قلت وترجع ثانية ؟ » قال « أظن • أنى فقير كما تعلم •ولا غنى بى عن العمل »

* * *

واضطرمت الحرب ثم خمدت الوقدة • واضطربت مصر ثم سكنت واستقرت • واتفق انى كنت أتمشى يوما على ساحل البحر فى الاسكندرية واذا بصاحبى خارجا من الماء • فسرنى أنى لقيته وجلست معه ساعة على الرمال ، وحدثنى أنه تزوج وان زوجته معه الآن • ولكنه مضطر أن يدعها مع أهله لان حياته فى السودان أرهقتها ولا قبل لها بالعودة اليها • وأخبرنى ان فى نيته أن يؤوب ليصفى تجارته ثم يبتدىء الحياة من جديد فى مصر ، والا رحل الى سوريا أو غيرها

من البلدان التى تكون زوجته أقدر على احتمال العيش فيها • وبدالى من لهجته أنه يحب زوجته وأنه سيفتقدها حين يعود الى السودان وفى تفكير فى التضحية بتجارته التى استنفذت أخصب أيام عمره دليل قاطع على ذلك • ولكن حديثه كانت فيه مرارة ، وشت بشعوره بأن المرأة المصرية غل فى عنق الرجل المغامر •

وغاب سنة عن مصر وزوجته ، آب بعدها من آب مطرودا من السودان • وأخفقت جهوده كلها ، وحبطت حياته أيضا ، فقد اضطر أن يسرح زوجته لانها لن تحفظ غيبته • ولكن شعوره العميق بالعدل جعله يكتب الى أبيها •

« ••• واسمح لى أن أؤكد لك أنى لاأشعر بمرارة أو ألم الا مرارة الفراق وألم الاضطرار الى الطلاق • فليس يخفى على أنى أنا الملوم وأن الذنب لى ، ولاأقول دونها ، ولكنى لاأستطيع أن اتنصل من نصيبى من التبعة، واذا كان الرجال لايقوى الكثير منهم على احتمال الحياة فى السودان فكيف بالنساء ؟ وما عسى صبر فتاة مترفة نشأت فى نعمة وتربت فى كنف الدعة وظل المدنية ــ ماعسى أن يبلغ من صبرها على الجهاد الشاق المتواصل الذى كان لابد لى منه»

وانقضت سنتان لاأدرى كيف ولا أين قضاهما ، وفى ليلة من ليالى الشتاء المطيرة ركبت سيارة الى بيتى ، وخيل الى وأنا مضطجع فيها انى أعرف ظهر هذا السائق ، وكان شعره أبيض • فعدت أحضر الى ذهنى كيف ركبت فتذكرت انى كنت مطأطىء الرأس وأن يد السائق فتحت الباب فدخلت دون ان أرفع عينى اتقاء للمطر •

ولما بلغت البيت ووقفت ببابه نظرت فاذا هو صاحبى فصحت به •

« ماهذا ؟ »

فلم يمد الى يده • وقال وهو يبتسم •

« أكل العيش »

فقلت « دع السيارة وتعال نجلس قليلا ؟ »

فلما أشعل سيجارته سألته ٠

« ألم تكن تستطع أن تجد وظيفة ؟ »

« وظيفة ؟ كلا ٠ لاأصلح لهذا ٠ ولاأحسب أنى فكرت فيه ٠ »
قلت « لاحول ولاقوة الا بالله »

قال « ياصاحبى ٠ ان حياتى لابأس بها ٠ أنا الآن سائق مأجور ولكنى أربح شيئا فوق أجرى ٠ والذين كنت اعرفهم ظرفاء جدا ، أراد أحدهى مرة أن يهبنى خمسة جنيهات فرفضتها لأنها صدقة ٠ ولم يسؤه رفضى لأنهيستطيعأن يفهم ٠ وأناالآن أدخر ٠ وسأشترى سيارة وأسوقها بنفسى وسيكون ذلك أربح كثيرا ٠ ثم أشترىغيرها ثم غيرها وهكذا ٠ فلا تبتئس لى ياصاحبى ٠ ان المستقبل كما ترى ليس بالمظلم ٠ كلا ، ان رقعة الامل واسعة ٠ واسعة جدا ، وأوسع منها مجال السعى وميدان العمل ٠ »

فلم أستطع أن أقول شيئا ٠ وبعد هنيهة قدمت له سيجارة أخرى فأباها وقال :

« لست أدخن ٠ لم أعتد شيئا ٠ أتعرف ؟ لقد ركبت معى زوجتى السابقة مرة ٠٠ »

ففزعت وسالته :
« هل عرفتك ٠ »

قال « لم أحاول أن أخفى وجهى »
قلت « وهى ؟ »

قال « ماذا يعنينى ؟ والسائق يجبأنيكون مؤدبا ياصديقى ٠ »
قلت « ولكن لم تقل لك شيئا ؟ »
فهز كتفه وقال ٠
« لم تكن وحدها ٠ »
فنهضت وقلت « من كان معها ؟ »
فلم يزد على أن ابتسم وقال :

أنى لى أن أعرف ؟ ليس فى سيارتى قلم لتحقيق الشخصيات،
قلت :

« هل تريد أن تقول ٠٠ ؟ »

فقاطعنى متمتما ٠ « ان أمرها لايعنينى ٠ نعم »

قلت ملحا ٠ « ولكنك لاتستطيع أن تخـــدعنى ٠ انك مازلت تحبها ٠ »

فطال وجهه وهو يقول ٠ « كنت أحبها ٠ هذا هو الصحيح ٠ »

ــ والآن ؟

قال ٠ « والآن أنا سائق سيارة أكتســـب رزقى بعرق جبينى وأتطلع الى المستقبل وأرد عينى عن الماضى ٠ »

فهززت يده وقلت له ٠ « انك رجل »

ولكن ثنائى عليه لم يسره ٠ فهو لم يزل كما كان يكره « الشعور بالذات »

# صباح ومساء

« لم لاتستخدمين سائقا ؟ »

« لاثقة لى بسائق ، ولماذا أضع حياتي ومالى فى يد مخلوق آخر ؟ »

ثم قالت « أيضايقك أني أتولى القيادة ؟ »

فلم أجب لأن السيارة في يدها كانت تخطف وتطوى الارض كأنها من جن سليمان ، وكان الهواء على وجهى يسرق أنفاسى ، فقد كانت سيارة مكشوفة ذات مقعدين اثنين . وألهاني أيضا عن الجواب أنا وقفنا بين لورى مقبل علينا ، وعربة تحمل الخضر الى يميننا .

فلما أفقت قلت :

« ماأحسب سائقا يطول به العمر عندك »

قالت « على العكس ـ انهم يهرمون فى خدمتنا »

قلت « انى أصدق ذلك . فقد أدركنى الكبر مذ ركبت معك »

فرمت الى نظرةوضيئة ، ولم تقل شيئا

وكنا على الطريق الزراعى ـ وهو واسع عريض ـ وكان السجناء ـ أو المذنبون كما يسمونهم ـ يرشونه ويسوونه فى مواضع ، والاسراع على الثرى البليل غير مأمون ، وكان أكبر ظنى ، كلما شارفنا زحلوقة اننا لامحالة منحدرون الى الترعة ، غير أنها كانت حريصة ، تنحرف عن البلل الى الارض الجافة حتى اذا جازت مسافته كرت الى اليمين ، واستقامت على طريقها

وقالت وقد شاع الابتسام فى وجهها النضير :

« ميت من الخوف ؟ »



obeikandi.com

فقلت « ليس الى درجة الموت · فمازلت أحس بذراعى اليسرى — اظنها تستمد الحياة والاحساس منك »

وكنت أنا الى يمينها ، فالقت الى نظرة عجلى لم أدرك كنههـــا فآثرت أن أعدل بالكلام عن مجراه وقلت

« والحقيقة ان أختى أعدت لغدائك « براما » محشوابالارزوالدجاج وأنا أحب هذا اللون من الطعام الريفى ولا أريد أن أحرمه فان فيه لفنا ، وهو مظهر عناية »

قالت « صحيح ؟ ماأبدع هذا !! اذن فلنسرع لندركه »

قلت « انه يستطيع أنينتظر فلن يأكل نفسه »

قالت « ولكنك تحبه جدا أليس كذلك ؟ »

قلت « هو الشيء الوحيد الذى أصرح بحبه وقد كنت فى صـــباى أجمعه واحفظه كما يجمع بعضهم طوابع البريد ، أم ترانا نتكلم عن نرجس العيون ؟ »

قالت « بل عن بساط الريح ياجوعان »

وزادت السرعة ، فاضطجعتوتنهدتوأسلمتأمرى لله · وانعطفنا فجأة ثم استوينا على الطريق ، فاذا أمامنا قافلة من الجمال ، فتمهلت حتى جازتها ، وليس أسرع من الجمال الى النفرة والاضطراب حين تمر بها سيارة ، وأحسب هذا لان الجمل والسيارة رمزان لعصرين لايجتمعان » ثم قالت :

« لست أخشى شيئا كما أخشى الجمال »

فقلت : « صدقت : وأرجو أن تتصورى ان الطريق غاص بهـذه المخلوقات المخيفة »

فضحكت ولم تقل شيئا

وبلغنا جسرا يسمى « الجسر الابيض » وان كان دهان حاجزيـه أسود ، والطريق بعده يذهب يمنة ويسرة فوقفت على آخر الجسر تسالنى من أين ؟

فقلت كانى أحدث نفسى

« ومع ذلك تزعم أنها تستطيع أن تقطع الطريق معصوبة العينين ؟ »
فاحمر وجهها ودفعت السيارة الى الطريق الايسر ، وبعد دقائق قالت بحدة :

« انى لم أدع هذا • ثم ان النسيان مغتفر وانك لتعلم انى ماسرت فيه الا مرة واحدة من قبل • وكان السير ليلا أيضا »

فقلت وأنا شامت :

« لقد كنت أود على الرغم من خوفى أن تضلى ، ولكنى أخاف أن يبرد « البرام » أو لايبقى منه زوج أختى شيئا ، فانه كما تعلمين ، شره »

غير أنها أصرت على الصمت حتى بلغنا الدار وأدركنا البرام وكان صباح

***

ثم كان مساء

وكنا حول المائدة فقال « سالم » زوج أختى :

« هل من اساءة الادب أن يأمرك سيدك أن تناوليه هذه الخوخة ؟ أم يجب أن ينهض السيد وينحنى على المائدة ويمد ذراعه الى الطرف الآخر على مرأى من كل هؤلاء الطفيليين والطفيليات ؟ »

فتناولت زوجته الطبق وهمت بأن تدفع بي اليه ، ثم لمع فى عينيها بريق العبث فسلطت على الخوخة أسنانها
آسفة • لم يبق فى الطبق خوخ »

فاضطجع وأخرج سيجارة أشعلها على مهل ثم قال :

« يا امرأة • سيعاقبك الله بحرمانى • سيصلى جسمك البض نارا حامية • وسأحمل أنا اليها الفحم والحطب على كتفى هذه ••• أم تراها توقد بالكهرباء ؟ »

فرشقته زوجته بالنواة
ولما انقطع الضحك قالت زوجته :

« أتشربون القهوة أم تخرجون الى الحديقة ؟ »

فهز الرجال رؤوسهم ـ سالم وأخوه حامد وأنا ـ وتراجع السيدات ـ الزوجتان وسميحة التي حملتني في سيارتها ـ بكراسيهن

وكانت السماء كالمخمل الاسود الا انها مثقوبة في بضعة ملايين من المواضع ، ولمع من كل ثقب ضوء خفاق يبدو فيما « تحس » العين كالبارد المقرور ، ولا عجب ، فالبرد في السموات مرتقب ، ولم تكن النجوم تنير أو تجلو ظلاما ، ولكنها كانت ترينا أين هي وتدلنا بالتماعها على مكانها ، وكان الشجر نائما لاتوقظ أوراقه نسمه ، وكانما تعاون الليل والريف على اتراع كأس السكون

والتفت سالم الى وسألني

« ماذا تصنع اذا أردت أن تتذكر شيئا أنسيته ؟ »

قلت « لاأضيع شيئا ـ اترك الدر راسيا في قاع اليم ، لاأحاول أن افض عنه غلاف الصدف المنطوى عليه »

فابتسم ساخرا وقال

« الدر ؟ ألا تزال تجهل ان رأسك الذى بين كتفيك ليس خيرا من مزبلة ؟ » وثنى وجهه الى زوجته وقال .

« يا امرأة ـ ماذا تصنعين اذا أردت أن تستحيي ذكرى تمعن في الغمض ؟ أليس هذا تعبيرا لبقا ؟ »

فقالت أختي وهي تعبث بخاتمها :

« أنقل خاتمي من يد الى يد »

قال « ماأبرعه أبرعك ؟ ! »

قالت بسذاجة « ان هذا يشعرني بأني ناسية شيئا »

فقال متهكما « معلوم معلوم . ثم لايبقى بعد ذلك الا أن تتذكرى ماأنت ناسية ؟ شيء سهل جدا »

فقال أخوه حامد « أنا أدلك على ماهو خير من هذا وأجدى ـ لتلبس جوربك فوق الحذاء فتعرف انك .. انك أحمق »

واضفت أنا « أو تلبس الجاكتة على جلدك السميك ـ اعنى تحت القميص ـ وبذلك تنقلب ظهرا لبطن وتعرف ماغـــاب عنك من الدفائن التى فى جوفك »

فقال باحتقار « اذهبا وغيرا وجهيكا ـ لاتنتظرا أن تنسيا شيئا ـ وأذيعا نبأ التغيير فى الصحف لتتلقيا رسائل الشكر »

ولما هدأت الثورة ووسعه أن ينهض على رجليه مرة أخرى ، وأن يصلح ثيابه ويسوى شعره ويتنفس بانتظام قالت سميحة بخبث
« هل تذكرت الآن ماكنت ناسيا ؟ »
فلم ينهزم ، وأمر كفه على جبينه وهو يقول :

« لقد غامت سماء هذا العقل السامى لحظة ، ولكن الصـــفاء الطبيعي عاوده ، أو بعبارة أخرى أقرب الى مستوى أذهـــانكم الارضية .. »
فثرنابه مرة أخرى
ثم سكنت الضوضاء فقال :

« لو كان يشغلكم شيء عن بطونكم التى تحشونها بثمرات كدى وكدحى ـ لو كنتم تشكرون اللهالذىمنعليكمبى .. ولكن لاكرامة لنبى فى قومه . على كل حال .. »

وسكت ، فنظر بعضنا الى بعض وهممنا بالكلام أو اســـتئناف المناوشة ، غير انه رفع يدا كابحة وقال

« هس ، لاتنطقوا بحرف . ان الحكيم يفكر ... هـــذا الرأس الكبير .. هذا البحر الطامى العميق الزاخر بالـ .. »
بالجيف

قالتها سميحة واطلقت وراءها ضحكة فضية النبرات فأدار اليها وجهه وقال

« انظروا كيف يكون كفران النعم ! هذا الفم الدقيق الذى لايزال يجتر طعامى هو الذى يشتمنى .. »
فصاحت به النسوة محتجات .

وقالت أختي « ألا تقول ماذا ؟ لقد اختنقنا »

فقال بتؤدة « تمهلي • ان الله مع الصابرين • لقد كنت أقـــول اني أغوص في بحرفكري ـ في عبابه المصطفق الامواج ـ عـــلى ذخائر الحكمة وكنوزها •• »

فاومأت الى سميحة وقالت بضجر

« هيا بنا الى الحديقة • »

فصاح بنا ونحن خارجان « نعم اذهب • واغرق نفسك في مستنقع لاتترك عنوانك • كلا »

***

ولما بلغنا الباب الخشبي للحديقة نظرت سميحة الى برقة وقالت :

« نتسلق الباب أم تكون ملاكا ؟ »

قلت « بجناحين ؟ »

قالت « افتح الباب • »

قلت مقاطعا « نعم • ليدخل آدم وحواء الجنة بلا عائق »

قالت ضاحكة « كيف عرفت ؟ »

قلت « بذكائي النادر • وهكذا أنا دائما بعد أن آكـــل برام الارز والدجاج »

وسميحة قريبة لي ، ولكن أباها في حياته كان يكره سالما ولايطيق معيشته أو حديثه ، ويعده أوقح مخلوق دب على ظهر هذه الكرة ، فابى على ابنته أن تزورنا أو تتصل بنا ، ولم تكن أمها ترى رأيـه ولكن علاجه أعياها ، فلما اختاره الله الى جواره ، تواصل الاهل بعد التقاطع ، وصارت سميحة تختلف الينا وتقضى معنا أســابيع كل بضعة شهور ، وأحببناها وأحبتنا ، فلما انتقلنا الى الريف في مقدمة المصيف ، تخلفت أنا ، حتى تجيء معي

وتمشينا تحت أشجار المانجو والجوافة والخوخ ، ثم التفت اليها فجاة وقلت

« سميحة »

فثنت الى عينيها منتظرة فقلت

« ألم أقل لك »

قالت « ماذا ؟ »

قلت « انى أحب »

قالت « من السعيدة ؟ »

قلت « أتظنينها تسعد بى ؟ »

قالت « نعم »

قلت : « أواثقة أنت ؟

قالت « بلا شك »

قلت « كل الوثوق ؟ لاظل من الريب عندك ؟ »

فمدت يدها وقرصت أذنى فتوجعت فقالت :

« لن أخلى سبيلها حتى تخبرنى »

فضممتها الى صدرى وأهويت بالقبل على جبينها وخديها ، وهممت أن ألثم فاها ولكنها دفعت وجهى بشىء من العنف وصاحت بى

« كيف تحبها وتقبلنى ؟ »

قلت : « لو كنت تلبسين بنطلونا ؟ »

قالت : « لماذا ؟ »

قلت « اذن لألقينك فى هذه القناة »

قالت بضحك « انى مستعدة أن ألكمك مرة أخرى »

قلت « والله ان فعلت لألقينك فى القناة بغض النظر عن البنطلونات »

فلكمتنى

فحملتها على يدى وصرت أدنيها شيئا فشيئا من الماء وهى تصيح، وترجو ، وتتوسل ، وأنا أظهر العناد والاصرار وأتكلف الجد والصرامة



obeikandi.com

فاستحلفتنى بمن أحب ، فوضعتها على رجليها وقلت « ياخبيثة » ولثمت فمها فطوقتنى بذراعيها

★ ★ ★

لما رجعنا الى البيت وصرنا مع سائر الاسرة حدجنا سالم بنظرة فاحصة وسأل ٠

« هل أوصدتما الباب ؟ »

فقالت سميحة وهى تنظر الى « لقد نسينا »

فقال وهو يشير الينا « نسيا ؟! أتسمعون ؟ »

ثم التفت الى أختى وقال

« ألا ترين ياامرأة ؟ أم ترى تنقصك التجربة ؟ أم أنت تتبالهين »

ونهض واقفا

ولا أدرى لماذا ، ولكنى أنا وسميحة وقفنا ايضا فرفعت اختى عينها الينا ثم صاحت وأقبلت على سميحه تقبلها وتعانقها ـ وتبعها الباقون

وأخيرا قال سالم :

« بصفتى سيد الاسرة ، وتاج رأس العائلة ، كان ينبغى أن آكون أول من يقبلها كما كنت أول من قبض عليها متلبسة بالجريمة ، لكن لابأس ٠ » والتفت الى « هذه ثالث مرة يرتفع فيها شأن رجل من أسرتنا بالمصاهرة »

فقلت له « صدقت »

فقبلتنى أختى

# الشيخ قفة

لم يكن شيخا ولا كان فيه من « القفة » مشابه ، ولكن اسمه كان ـ فيما نعرف ويعرف أهل الحى ـ « الشيخ قفة » . ولم نكن ندعوه بذلك على سبيل التهكم أو الزراية أو المزاح ، ولا كنا نشعر حين نناديه أو نخاطبه أو نذكره فيما بيننا ـ ان فى اسمه غرابة أو شذوذا عن المألوف ، ولا أحسب أن أحدا من اصدقائه عنى بأن يعرف كيف صار هذا الاسم يطلق عليه ، أو ماذا كان اسمه قبل أن يشتهر به ، حتى « البوليس » كان يسلم بالواقع من الامر ولا يخطر له ان يسأل عن الاسم الذى أطلقه عليه أبواه . وكان « عطارا » و « بقالا » فى آن معا . وفى دكانه ـ على ضيقه ـ كل مايحتاج اليه أهل الحى ويطلبونه ولا يجدونه عند سواه . وكان هذا الدكان أشبه بناد يلتقى فيه خليط عجيب من خلق الله . وكان الرجل يعرف القراءة والكتابة ولكنه لايحسنهما ، وكان يحفظ القرآن ويجيد الكلام بالتركية وبواحدة أو اثنتين من لغات الهند ، وأحسبه تعلم التركية من « الاغوات » الذين كانوا من سكان ذلك الحى ، أما الهندية فقد تعلمها من الجنود الهنود الذين كان معسكرهم ـ فى أيام الحرب الكبرى ـ على مقربة من دكانه . وكانوا ـ أعنى الهنود ـ يختلفون اليه ويصفون اليه بالود ، ويستبضعون منه ما يحتاجون، ولقد أثمرت محبتهم له اتهامه فى وقت من الاوقات بأنه يبث فيهم روح الفتنة والتمرد ، فألقت السلطة العسكرية عليه القبض وحبسته إياما بلا سؤال أو تحقيق ، ثم دعاه اليه أحد الضباط وشرع يسأله ـ بواسطة مترجم ـ فتباله الشيخ قفة وتظاهر بالسذاجة .

سأل الضابط « هل تعرف الشيخ شاويش ؟
فقال الشيخ قفة « أين دكانه ؟ »

فكرر الضابط سؤاله « هل تعرف الشيخ شاويش ؟ قل لا أو نعم »

قال الشيخ قفة « ان لى ثلاثين سنة وأنا أتجر بمواد العطارة وأعرف تجارها جميعا ولكني لم أسمع بهذا التاجر . فأين دكانه ؟ خبروني لعلى أذكره ان كنت ناسيا »

فتململ الضابط ، ورأى أن ينتقل الى سؤال آخر فقال

« وهل تعرف فريد بك ؟ »

فصاح الشيخ قفة وهو يدق كفا بكف « أما ان هذا لغريب ؟ متى ظهر هؤلاء التجار ؟ لقد قلت لكم انى عطار منذ ثلاثين سنه وليس فى مصر تاجر كبير أو صغير الا وأنا أعرفه وهو يعرفنى ، فأين دكاكين هؤلاء ؟ قولوا أين ! واذا كانوا يبيعون بأرخص مما أبيع فأنا مستعد أن أقضى منهم حاجاتى »

وهكذا حتى ينس المحقق وأيقن أن الرجل أبله فاطلق سراحه .

***

وهكذا حتى يئس المحقق وأيقن أن الرجل أبله فاطلق سراحه .
وكانت جلابيبه جميعا متقاربة الالوان حتى ليعذر من يتوهم أنها واحدة لاتتغير ، وان لم تبد قط فى رأى العين الا نظيفة . ولم يكن يحتذى الا « القبقاب » أما رأسه فعار أبدا صيفا وشتاء . وكان له حمار صغير معروق يستخدمه فى طحن البن ، وكان الشيخ قفة فى أوقات فراغه يتسلى بتعليم الحمار النهيق ؟ اى والله . كان صاحبنا يفعل ذلك ، ولم يكن أعجب من أمر الشيخ قفة الا أمر حماره ، فقد كان - أعنى الحمار - يطيعه ، ويروح يمد عنقه ويثنى أذنيه الى الوراء ويرفع عقيرته بالنهيق كلما دعاه الشيخ قفة الى ذلك وأمره به ولكن صاحبنا موسيقى حساس الاذن ، ولم يكن على مايظهر يرضيه نهيق حماره ، فكان يضربه ويصيح به

« ليس هكذا يابهيم . اسمع : هاء . هاء »
ويطلقها نهقة قوية ثم يقول

« هكذا ينبغى ان تكون . والآن فلنبدأ من جديد . نعم ! »

فيعود الحمار الى النهيق ، ويعود الشيخ قفة الى الاعتراض والنقد مؤكدا لحماره أن أنغامه كلها « نشاز »

ويتفق أن نكون مقبلين عليه من بعيد ، فنسمع الحمار ينهق فنحسبه الشيخ قفة يقلده أو يعلمه ، أو نسمع الشيخ قفة فنتوهمه حماره ، ولم نكن نستطيع التمييز بين الاصل والحكاية ، فقد كان صاحبنا بارعا فى تقليد أصوات الحيوان والطير ، حدثنى صديق لى قال « دعينا مرة ـ أنا والشيخ قفة ـ الى عرس فقلنا نكتفى بالسماع وننتظر حتى ينقضى وقت العشاء ثم نذهب • وكان البيت فى حى لانعرفه معرفته ، فضللنا ، واحتجنا الى سؤال الناس • فلقينا فى بعض الطريق رجلا واقفا تحت مصباح ومسندا ظهره الى عموده ، فأقبلنا عليه نسأله « هل تعرف من فضلك أين البيت الذى فيـــه عرس فلان ؟ » وكان الرجل لسوء الحظ سكران ، فخيل اليه السكر أنا طفيليان نطلب طعام العرس ونتلهف عليه ولا نهتدى الى مكانه ، فجعل يتضاحك بنا يركبنا بالمزاح الخشن الثقيل • فهممت بزجره ولكن الشيخ قفة ردنى عن ذلك بايماءة ، وظل صابرا عـــلى نكاته السمجة ، محتملا عربدته ، وانه لفى احدى ضحكاته واذا بالشيخ قفة يفاجئه بمثل نباح الكلب ، فنعر المسكين وطار السكر من رأسه وأفاق جدا وذهب يعدو كأن وراءه الف شيطان »

***

وكان للشيخ قفة ابن فى الثانية عشرة من عمره ، وكان هو الذى بقى له من أكثر من عشرة أبناء جاء بهم الى الدنيا واختطفهم الموت منه واحدا بعد واحد ، وشاءت المقادير أن يلحق هذا الفتى باخوته ويذهب فى سبيلهم ، وسمعنا بما أصابه فقلنا نذهب لتعزيته ، وفى عصر اليوم الذى دفن فيه الغلام قصدنا اليه وفى ظننا أن نجـد سرادقا أو نحو ذلك لاستقبال المعزين ، ولكنا وجدنا الشيخ قفة واقفا فى دكانه عارى الرأس على عادته ، وليس على وجهه ما يدل عـــلى انه احتسب ابنه العاشر او الحادى عشر فى صـــبيحة ذلك اليوم ، فدهشنا ولكنا عدنا فقلنا : أحسن والله الرجل ، فان اقامة المآتم عمل لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وأقبلنا عليه نصافحه ونعزيه ، فقدم لنا الكراسى وصنع لنا القهوة ثم جلس قبالتنا على دكة وفى يمناه فنجانة يترشف منها القهوة وهو يقول بلهجة الجد

« هل تعرفون رجال حاتا باتا ؟ »

فنظر بعضنا الى بعض ولم يفهم احد منا ماذا يعنى « برجال

حاتا باتا » وانعقدت ألسنتنا في حلوقنا فلم نجب ، وشعرنا بشيء من الحرج ، ولم ينتظر هو جوابنا فضحك ضحكة مكتومة ارتجت لها أنحاؤه ــ وكان بدينا ــ وسالت قطرات من الفنجانة فمد ذراعه بها ليقصيها عن ثيابه وقال :

« خرجنا بالولد وأمامه هؤلاء الفقهاء الذين لايستطيع المرء أن يتبين ما يقولون • ومن أجل هذا اسميهم رجال « حاتا باتا » لان هذا هو الصوت الذى يخلص الى أذنى مما يرفعون به عقائرهم فى الجنائز • ألم تركبوا القطار قط ؟ انه يخرج من المحطة على مهل حتى اذا خلفها وراءه زاد سرعته شيئا فشيئا ثم ينطلق على وجهه ، كذلك كان يفعل رجال حاتا باتا اليوم • بدأوا يمشون أول الامر على مهل ويطلقون هذا الصوت فى تؤدة وأناة ، فلما جاوزنا الطرق العامرة أسرعت أرجلهم ولاحقتها حناجرهم ••• »

وكان هو يقص علينا ذلك ويصف لنا منظره ، يقلد هذه الجماعة فى الانشاد ويحرك ذراعيه على نحو ما تتحرك ذراع القاطرة• فحرنا كيف نصنع ؟ أنضحك ؟ ان منظر الرجل يغرى بالضحك ، وحركاته وأصواته تخرج المرء عن وقاره واحتشامه ، ولكن المقام فيما كنا نحس لا يأذن لنابمجاراته ، وليس هو بالبليد الاحساس الغليظ النفس ، انا لنعرفه ولا يخفى علينا انه يتكلف ويتصبر ويتشدد ، أم نتلقى فكاهته بالجمود ؟ فهذا خليق أن يصدمه ويكرهه على سكون الحزن الذى يحاول بالمزاح أن يجنب الاضطرار اليه ، وأخيرا لم نجد مفرا من مجاراته فآثرنا له ما آثر لنفسه ، ولم يكن لنا فضل فى هذه المجاراة فانه هو الذى حملنا عليها ولم يدع لنا سبيلا الا اليها بما لج فيه من التفكه • ثم انصرفنا ولبثنا طول الطريق واجمين ، ولنا العذر • فما كان لنا عهد بمثل هذا التجلد ، ولقد كان هذا درسا لى حذقته ولم أزل بعد ذلك أروض نفسى عليه • وكلما أحسست أن نفسى تهم بأن تخور ذكرت الشيخ قفة وتصورت وصفه لجنازة ابنه ، فيذهب على الضعف

***

والشيخ قفة لا يقر الكتب ولا يعنى بالمطالعة والتحصيل ، ولكن له روح الاديب وحنته الى صنوه ، ومن أجل هذا كان مجلسه يحفل ايضا بالادباء والمتادبين ، ولم يكن الحديث يدور على أدب أو فلسفة

أو نحو ذلك ، ولكن شخصية الرجل كانت تجذب اليه الادباء وتحببه اليهم • وكان ربما زجل ، وكان الى هذا يحسن غناء ما يسمى « المواويل المربعة والمدورة والحمراء » • خرج مرة مع لفيف ممن يانسون اليه ، وقصدوا جميعاً الى حدائق القبة ، وكان بينهم واحد ضعيف البصر غليظ الجسم عريض الدعوى • فلما صاروا الى الحديقة رجوا منه أن يحاضرهم فى « قناة السويس » فوقف يخطبهم ، وراحوا هم يتراجعون خطوة فخطوة ، وهو يهضب بالكلام الفارغ ولا يرى ، حتى صار وحده ، فلم يتنبه الا على ضحك المارة ، فغضب وأراد الرجوع ، ولكن الشيخ قفة لم يزل يحاوره ويداوره حتى فاء به الرضى وأقنعه باستئناف المحاضرة ، وعاد يخطب ، وعاد اخوانه يتقهقرون ، وخالج صاحبنا الشك فتقدم خطوات فاذا المكان قواء • فاشتد غضبه وحميت نقمته على اخوانه ، ولم تنفع فيه رقى الشيخ قفة • وركبوا فى أوبتهم « الترولل » وجلس الشيخ قفه الى جانبه فى مركبة واحدة ،وبقيةالاخوان على مركبات أخرى ، فلما دفعها العامل الموكل بذلك وانطلقت تعدو رفع الشيخ قفة صوته بأغنية مرتجلة مطلعها « حلو فى ياما حلو فى » على وزن « عصفورى ياما عصفورى »

« حلوفى ياما بيبرطع عمال يجعجع ويبعبع
عامل محاضرة فى يوم أربع حلوفى ياما حلوفى »

وهكذا وصاحبنا يكاد صدره يتمزق من الغيظ فلو استطاع لوثب عن « الترولل » فلما بلغوا آخر المرحلة نزلوا وانطلق صاحبنا المحنق يقرع الشيخ قفة فصبر عليه هذا حتى افرغ مافى جوفه وأراح صدره من الغيظ المكتوم ثم التفت اليه وقال :

« لماذا توبخنى وتقرعنى ؟ هل تتوهم أنك خير منى ؟ أتراك أسمن منى أو اضخم جثة ؟ أتظن أنك أحد منى بصرا أو انى انا اشد منك عمى ؟ • •

ولم يزل يعرض عليه وجوه هذه المقارنة العجيبة حتى اضطر صاحبنا الى الضحك وعاودت وجهه البشاشة

ذكرت الشيخ قفة منذ يام ، فمضيت الى حيث كان دكانه ، فلم أجده ولم أعثر له على أثر ، فعدت آسفا لاأدرى أحى يرزق أم اسرع به « رجال حتاباتا » • ولكنى أدرى انه لايبالى أين أو كيف يكون !

# الحاج

– « ألا تعرفينه ياأخت ؟ »
– « أنا ؟ »

وضحكت وهى تسوى الفراش وتضربه بكفها الرخصة ، ثم طرحت على السرير حبسا أبيض دقيق النسج موقوما ، ومسحت عن جبينها قطرات لامعة من العرق المتصبب • وردت عن جبهتها العريضة الوضيئة خصلا من شعرها الفينان ، وقالت :

« أهو كهل ؟ »

فقالت روح ــ « لابد ! على كل حال ليس صغيرا • فقد خرج يحج منذ عشر سنين ولم يعد وكنت يومئذ طفلة ألعب فى الحارة »

فسألتها لولو « وكم كان عمره لما خرج الى الحج ؟ »

قالت الاخرى « لا إدرى ! ربما كان عشرين او أكثر قليلا • انتظرى حتى أسأل ماما »

فاعترضت لولو على السؤال والخروج من أجله وعلى توهم الكبر فيمن لايتجاوز عمره الثلاثين • وكانت هى معصرا تراهق العشرين، ولم تكن أختا لصاحبتها بل قريبة لها ، تقيم معها مذ مات أبوها وتزوجت أمها غيره وكانوا يدعونها «لولو» تدليلا لها وان كان اسمها الحقيقى «فاطمة» أما الاخرى فلم يصب اسمها تحريف فظل « روح » كما كتب فى شهادة الميلاد ••

ودخلت عليهما من لا يعرف هذا التاريخ لها اسما ، فهى « ماما » او « نينة » على لسان بنتها روح ، و « عمتى » اختصارا على لسان لولو ، و «الست الكبيرة» على السنة الخدم ، و «ست أم روح» حين يذكرها سواها فى غيابها، وكانت قصيرة ريا الجسم فى غير زهم، وضاحة المحيا ، دقيقة المعارف ، لها سمت ، وعليها وقار ؛ وفى نظرتها قوة وثبات •

وقالت وهى تدير حملاقها فى الغرفة :
« أما تزالان فى هذا ؟ يا للكاعة ! ولم يبق الا ساعة على مقدمه !»
فقالت روح « انتهينا يانينة . انما كنا نتكلم عن خالى »

فحدجتهما بنظرتها التى يتحجر لها ـ من قوتها ـ ما يكون على وجه الانسان من المعانى ، وقالت بصوت فيه بعض البرجمة
« وماذا كنتما تقولان ؟ »

فانسابت اليها (لولو) ـ وكان قلب (عمتى) يرق لها من الحنان والعطف ـ وقالت وهى تمر أصابعها على الخيوط الملتوية فى ثوب عمتها :

« كنا فى اختلاف : هى تقول كهل ، وانا أقول شاب ، فأيهما هو يا عمتى ؟ »

فابتسمت لهما ، وأولتهما ظهرها وخرجت ولم تجب

***

لم يجىء «الخال» المنتظر بعد ساعة كما قدرت « الست الكبيرة » بل جاء بعد أن غابت الشمس ، ومع الظلام ، وكان دخوله فى وقت صلاة العشاء ، فمال الى «المصلى» فى ناحية منفناء البيت ، والفتاتان تنظران من ثقوب الشباك المكور ، حتى فرغ من الصلاة وسلم ، ثم استدار على مهل ، وهو جالس ، واستقبل المسلمين من أتباعالمرحوم «الشيخ» ـ زوج أخته كان ـ وكانت (الست الكبيرة) قد أبت بعد وفاة زوجها أن تشتت هؤلاء النفر ، وأصرت على أن تفتح لهم بيتها ليقيموا فيه الصلاة والاذكار ـ يومى الخميس والجمعة ـ على عادتهمفى حياة « الشيخ » وكان لها من مالها ومال زوجها ما يسمح لها بذلك ولم يكن هذا يكلفها سوى الطفيف اليسير ـ أن يبيت هؤلاء الاتباعفى الحجرات الكثيرة التى فى الفناء ـ والحجرات لا تأكل ولا تشرب كما تقول « الست الكبيرة » ؛ ولكن حلالها يأكلون ويشربون ، كما تقول روح ، وكان فيها بعض الكزازة ـ وكانت ـ أى الستالكبيرة تصنع لهم فولا «نابتا» يوم الخميس تحشو به أرغفة صغيرة طرية توزع عليهم بعد الفراغ من «الذكر» وانفضاض حلقته ، والباقى يحمل الى مدفن الشيخ بقرافة « المجاورين فى صباح الجمعة ، وهناكتعقدحلقة

الذكر مرة أخرى ، ثم يأكل الذاكرون الرغفان والفول ، ويترحمون على الشيخ ويدعون لزوجته التى صارت خير خلف له ، ثم يعودون.

* * *

وكان يوسف ـ خطيب « روح » وقريبها أيضا ـ يتمشى ضجرا فى الفناء ويرمى نظرة بعد نظرة الى (الحاج) البطيء الذى لا يستعجل ولا يريد على ما يظهر أن ينصرف عن الاستماع الى الحافين به من أتباع الشيخ ، أو اتباع «الشيخة» كما يقول يوسف متهكما ـ فلما نهض (الحاج) ، بعد أن عرف جملة ما فاته فى غيابه ، تشهد يوسف وتقدمه خطوات الى باب السلم ، كأنما يرجو بسبقه أن ينبهه الى وجوب الاسراع

غير أن الحاج كان طويلا ممشوقا وكانت فيه تؤدة شديدة ، فجعل يلحظ يوسف وهو يكاد يتوثب أمامه ـ وعلى شفتيه الرقيقتين المطبقتين طيف ابتسامة لا يفطن اليها من لا يعرف الرجل ، ثم كأنما كره منظره فأشار اليه ان يسبقه ، ولم يدرك يوسف مراده فانطلق يصعد السلالم بسرعة وهو يصفق ويصيح أن ( افسحوا الطريق ) فامتعض الحاج وأحس كأنما يعد يوسف نفسه من أهل البيت ويعده هو غريبا يحتاج أن يفسح له الطريق ، ولكنه كتم ما دار بنفسه وكظم غيظه

واستقبله النساء ـ أم ينبغى أن يقال «السيدات» ؟ ـ بالتأهيل والترحيب ، والعناق والتقبيل ، وهو جامد لا ينثنى ولا يلين ، ولا يزيد على أن يمنح خده لمن تبغى منهن لثمة ، وكن ـ لطوله ـ يحتجن أن يطفرن ليبلغن بشفاههن خـــده ـ وقد أهملن يوسف حيث وقف وانصرفن عنه الى الحاج فكأنه غير موجود .

ونظر الحاج الى «روح» نظرة فيها غض وتحديق ، فكأنه يقوم سهما وقال :

« كبرت يا روح » ثم ثنى عينه الى لولو وتوضحها فاطرقت حياء وقال « وانت أيضا ! كدت لا أعرفك » والتفت الى أخته وقال « من كان يصدق ؟ لم تكن الطفلة لولو تؤذن بأن تكون على هذا الجمــال ! هيه ؟ »

وجلسوا الى مائدة مستطيلة . وكانت الوان الطعام كثيرة ـ حساء ،

شواء ، ومطجن ، وخضر مخلوطة ، وحشو مزيت ؛ وشعيرية صغيرة الفتل دقيقة الخيوط ، وفاكهة شتى ـ وكان الحاج يعجف نفسه عن الطعام ، وكان يوسف على نقيضه ، آكولا جرافا ، فلما اشتد الحاجهن عليه أن يقبل على الاكل قال وهو يلحظ يوسف ويبتسم

« من أدب الطعام إن أشبع المؤاكل »

فضحكت لولو ، ورفع يوسف عينه اليه منكرا متسخطا وقال :

« أهذه نكتة ؟ ان تكن فانها جافة »

فقال الحاج « لا عجب أن تكون . وما أظن بى الا أن إسفارى فى البوادى وبين الهمج قد خشنتنى وأنستنى آداب الحضارة . ولست أعتذر فانى لمزهو بما فعلت مغتبطـا بما لقيت . وما احسب لمثلك قدرة على مثل هذه الحياة »

فقال يوسف « كلا . على التحقيق » بلهجة الزراية
فقال الحاج « ولا أظنه فضلا لك أو مزية أن لا تقدر »
فقال يوسف « كيف ؟ ماذا تعنى ؟ »

فقال الحاج « انها حياة تتطلب الصلابة والمتانة لا الطراوة واللين »

فأحتقن وجه يوسف وهم بكلام ، ولكن «روح» تداركت الأمـــر بقولها لخالها
« ألا تقص علينا بعض ما لقيت ؟ »

فاضطجع الحاج وقد انتشرت الابتسامة على وجهه وقال وهو لا يحول عينه عن لولو :

« بعض ما لقيت ؟ انه كثير . نعم . كثير ... خرجت فى احدى حجاتى الى عرفات ، وكان أحد معارفى من مصر على جمل أمامى ،وكان الزحام شديدا والشمس حامية حتى لقد اتخذنا مظلاتنا من نسيـج كثيف يتخذ لشراع السفن ، وكنا نرش ثيابنا بالماء لتندى ... أوه لقد كان يوما عصيبا ... ولا أدرى كيف حدث هذا ... ولـــكن خطام الجمل تدلى فتعثر فيه فهوى براكبه ... »

وأمسك عن الكلام امساك من لاينوى أن يعود اليه ، فقالت لولو لما طال سكوته

« وماذا حدث ؟ ألا تخبرنا ؟ »

وكان قد أرخى جفنه فالتفت اليها كأنما يراها لاول مرة وقال :

« حدث ؟ آه ··· لا شيء سوى أن الرجل تحطم تحت أخفاف الجمال »

« ولكن من هو ؟ من هو ؟ »

قال « انه مسكين ·· اسمه ·· اسمه ·· أتراني نسيته ؟·· انتظرى ·· آه لقد تذكرت ·· اسمه الخراط ·· « عبده الخراط » نعم هذا اسمه ·· »

فصاح يوسف « ابن عمى ؟ مات هذه الميتة ؟ »

وشدت الست الكبيرة على كتف بنتها وهمت بالكلام ولكن الحاج قال :

« مات على كفى هاتين ·· وتاب قبل أن تفيض روحه بساعة »

فقال يوسف بحدة « أهذه نكتة أخرى من نكات الهمج الذين عشت بينهم ؟

فقال الحاج « من نكاتى أنا يا يوسف · على أنها حقيقة مجردة خيال فيها ولا مزاح · وقد زاملنى المسكين ثلاثة شهور »

فقالت الست الكبيرة « رحمة الله عليه · لقد نعى الينا ولكنا لم نكن نظن أنه مات هكذا ··· مسكين »

فقال الحاج وهو ينهض « والان يحسن بى أن أستريح فى غرفتى ·· لا مؤاخذة فانى متعب »

وغسل يديه وعاد ،فلما صار فى مدخل الباب الذى يؤدى الى غرفته وقف وأدار وجهه وقال :

« لقد أخبرنى يا يوسف ان كان مقاولا وانه أصلح لأختى بيتها قبل سفره » ودخل ·

فى الصباح تفقدت الست الكبيرة أخاها فلم تجده ، والفت غرفته مضطربة ، وكل شيء مما كان فيها أوجد عليها من الحقائب والاخراج فى غير موضعه ، وأذهلها أمور ثلاثة :

الاول أن السرير فى وسط الغرفة ، والثانى ان خزانة ظهرت فى جوف الحائط لم تكن معروفة ، وقد رأت بابها مفتوحا ونظرت فاذا فيها أوراق صفراء مبعثرة • وعلى الارض ما تساقط من الكلس الذى كان الحائط مطليا به ، والثالث أن على البساط فأسا صغيرة ، وعتلة ، ومعولا ، ومجرفة •

فنادت « روح » و « لولو » وقالت « انظرا ! »

فأما (روح) فدقت صدرها بكفها وانطلقت تعرب عن دهشتها بألفاظ كثيرة تتخللها شهقات وصيحات ، وأما لولو فزوت ما بين حاجبيها ولزمت الصمت ، ثم لما أحست أن اللغط أوشك أن ينضب معينه قالت لهما :

« ليس هذا مكانا لنا • فلنخرج »

فقالت الست الكبيرة « وندع الغرفة هكذا ؟ »

فقالت لولو « نعم ••• كما تركها •.• وسيعود الى بعثرة ما فيها اذا رتبناه »

فقالت الست الكبيرة « ولكن هذه الخزانة ••• لم أكن أعرف انها فى الحائط ••• لم أسمع بها قط ••• »

فلم تجبها لولو ، وتركتهما وخرجت

* * *

وعاد الحاج قبيل الظهر ، وقال أنه خرج لصلاة الفجر وزيارة قبر الشيخ ، وأبلغ النسوة انه لا يتغذى وانما يفطر ويتعشى فقط ، وانه ذاهب لينام ويؤثر أن لا يزعجه أحد ، انه ينوى بعد العشاء أن يكر الى مقبرة «الشيخ» حيث ينام الى الصباح ، وقد حاولت أخته أن تثنى عزمه ، ولكن لولو غمزتها فكفت

وسألت الست الكبيرة لولو بعد انصرافه « لماذا غمزتنى ؟ »

قالت لولو (لانه عنيد لا يلين ، فلا خير في الرجاء والالحاح)

فقالت الست ( أهذا كل شيء ؟ )

قالت لولو ( نعم · واذكرى حال غرفته )

فانطلقت الست الكبيرة تثرثر هي وبنتها ، ولولو لا تنبس بكلمة ولا يبدو عليها حتى انها مصغية ، وكانت تفكر في الحاج وفيما أظهره ولم يخفه من الكره ليوسف خطيب روح من أول ساعه ، وفي الحاحه في التعريض به والتنغيص عليه،وفي تبكيره في الخروج وفيما فعل بالغرفة وفي هـذه الادوات العجيبة التى جاء بهـا معه ، واهتدائه الى هذه الخزانة المحجوبة المجهولة ، واعتزامه بعد ذلك أن يقضى الليل فى المقبرة · وكان هذا كله حقيقا أن يغرى بالتفـكير ، ولكن الست الكبيرة وبنتها شغلتهما الثرثرة والهذر الفارغ عمـا كان يجب أن يلفتهما من الامر ·

وجاء يوسف فأمسكن وخضن في حديث آخـر بدأته لولو ، وانهن لكذلك واذا بالحاج فى مدخل الباب يدعو أخته اليه فنهضت، ولما صارت معه سألها

« والآن كيف حالك ؟ »

قالت « بخير والحمد لله »

قال « وروح هل عقدت عليها لهذا الرجل »

قالت « لا · ولكن سنفعل قريبا »

قال « لا تفعلى · واسمعى · لقد عرفت من ابن عمه انه أخـذ مالك ومال لولو الذى تركه لها أبوها ، وانه يتجر لكما به »

قالت « صحيح ·· ولكن هل تخشى منه على مالنا ؟ »

قال « لابأس ! لابأس ! ولا خوف على المال ولكنى أكره أن تكون له روح »

فاطمأنت وقالت « لماذا ؟ هلا أخبرتنى ؟ »

قال « استثقله ، هذا كل ما فى الامر ، على كل حال مافيه الخير يقدمه الله ، والآن حدثينى عن نفسك ٠٠ »

★ ★ ★

ولم ينم كما قال ، بل برز بعد قليل فى ثياب جـديدة ونادى يوسف وقال له انه يريد أن يرى المدينة كيف صارت بعـد عشر سـنوات طويلات فهـل له آن يصحبه ؟ ، وكان يبتسم ويهش ليوسف ، فارتاحت الست الكبيرة لانها كانت قـد رجت منه أن يتلطف معه من أجـل بنتها ، ولمعت عينا لولو وهى تجسه بهما وتحاول أن تستشف معنى هذا التغير ، وأغضت « روح» حياء لانه دار بنفسها ان حديثهما سيكون عليها ٠

وبات الحاج فى مقبرة الشيخ كمـا انذر ، وكانت فيها حجرات كثيرة للجلوس والنوم ، مفروشة مؤثثة ، فلما كان الصباح جاء الى البيت صبى من عمال القبور يدعـو الست الكبيرة والفتـاتين أن يوافين الحاج على قبر الشيخ ، فقمن على عجل ومضين مسـتغربات حتى صرن اليه فألفينه جالسا على كوم من التراب فى ثيـاب رثه معفرة ، وبين أصابعه سيجارة يدخنها ، وفى وسـط الحجرة ، حجرة الجلوس ، حفرة كبيرة مظلمة ، أما أثاث الغرفة فمبعثر فى نواح شتى من البناء ٠

واستقبلهن بابتسامة عريضه ونهض وتقـدمهن الى حيث المقاعد المنتشرة وقال

« لا يزعجكن ما ترينني فيه ٠ وقد كنت أحب أن يكون يوسف معكن ولكنى أحسبه لن يعود اليكن الا بعد ان يتم له جمع ما أخذ من مالكن ليرده اليكن ٠ لا تتعجلن ٠٠ خذى وانظرى »

وناول أخته « بنتو » وهو قطعة من النقـود الذهبيه الفرنسية التى كانت متداوله فى مصر الى أوائل هـذا القرن ، ثم بطـل استعمالها وحل محلها الجنيه الانجليزى

فأقبلت الفتاتان على الست الكبيرة تنظران معها وقالت روح « ماهذا ؟ »

قال « هذه قطعة أخذتها من عبده الخراط ٠٠ لما حضرته الوفاة

يعد أن داسته الجمال ، وأيقن أنه ملاق ربه بعد قليل ، وأن أجله لم تبق فيه فسحة ، أخبرني أن يوسف ابن عمه طمع فيكن ، وأنه أخذ مالكن وأدخله في تجارته وأصلح به حاله · واحتجت أنت الى اصلاح في البيت ، فوكلت ذلك الى عبده ابن عمه عملا بمشورة يوسف · وهذا طبيعي ولا بأس منه · ولكن عبده اهتدى الى الخزانة التي في حجرتي ـ اهتدى اليها وهو يجس الجدران والحوائط ويخبرها ، فمنع عن موضعها العمال ـ وعثر فيها على صرة من هذه النقود ، فأخفاها عنكن واقتسمها مع يوسف ـ لا أدري لماذا ، فقد كان في وسعه أن يخفيها عنه أيضا ـ وشاء حسن حظكن أن يأخذ الصرة ويدع الاوراق التي في الخزانة ، ولعله لم يعبأ بها ، ثم كلس الجدار وسواه ـ بيديه هو كما اخبرني ـ فخفي مكان الخزانة وأمن الرجلان أن يفضح الله سرهما ويكشف سترهما ، ومن الغريب أنه خرج للحج بهذا المال المسروق ، ولكن الله أبى ذلك ، فوقع له ما وقع ، واعترف لي بما فعل قبل وفاته ··

« فأسرعت عائدا اليكن لانقذكن من يوسف · ولم أطق صبرا ، فلم أكد أراني في حجرة الخزانة حتى حمدت الله وأيقنت انه كتب لي التوفيق ، ولم أكن أتوقع شيئا معينا ، وانما كنت أريد أن أرى الخزانة ، ويخيل الي اني انما كنت ألتمس هذا الدليل لاقتنع بأن ما قاله عبده صحيح ، فلما اهتديت الى الخزانة وفتحتها وجدت هذه الاوراق التي استخف بها عبده ، وتركها حيث كانت ، وهي أوراق للشيخ وفيها بيان لمال آخر ـ أكبر وأوفر ـ مدفون هنا في هذه المقبرة · ولو أن عبده لم يتعجل ولم يحتقر هذه الاوراق لضاع هذا المال أيضا · ولكن الله سلم ·· والحمد لله الذي ألهم الشيخ أن يخبيء ماله في موضعين والآن يجب أن أسوي الارض كما كانت وأعيد الفرش الى مواضعة ·· »

ونهض الى قدميه ، فتبعته لولو ، فلما أشرفا على الحفرة التفت اليها وقال « كنت أتمنى أن يكون لك في هذا المال نصيب يالولو·»

قالت « أشكرك ، انما تبعتك لاعتذر اليك من سوء ظني بك »

قال « أعرف ذلك ·· كنت أقرؤه في عينك ·· ولو لم تفعلي يا فتاتي ! »

قالت « ماذا ؟ »

قال « لما كنت أهلا لان أدعوك الى مشاطرتى حياتى فهل ترحلين معى ؟ انى عائد الى أسفارى باذن الله ؟ »

قالت فرحة « وتأخذنى معك ؟ »
فلم يجبها وسالها

« لو خيرت بين هذا المال و ... » وامسك

فقالت بلهجة العتاب « أو تسأل ؟ »

قال « أتخجلين أن تعانقينى ؟ »

فضحكت وقالت « كلا »

ففتح لها ذراعيه ..



obeikandl.com

# صور من اليوم

obeikandl.com

obeikandl.com

# القديم والجديد

بيوتنا المصرية خليط عجيب من عصور شتى وأجيال عديدة يتجاور فيها القديم والحديث ويتزاحم الماضي والحاضر ويتشارك الجاهلي والمخضرم والمولد ، ولقد يخطر لى وأنا أدور فى البيت وأتأمل مختلف ما فيه كأن نفرا مسافرين من أمم شتى التقوا فى موضع فجاء كل منهم بطعامه وجلسوا يأكلون معى ! وهى صورة مألوفة وما أكثر ماتقع العين على مناظر هذا الهداء بين الآثار المصرية فى فصل الشتاء . كذلك أرى بيتى : الامر فيه واحد ولكنه على هذا خليط: فى ناسه وملابسه . وفى متاعه وأوانيه فهو أشبه بالمتحف منـه بالمسكن . ها هنا غرفة حديثة الطراز ولكن الوالدة ـ أطال الله عمرها (١) ـ تأبى الا ان تفرش أرضها تحت البساط بالحصير ـ من الجدار الى الجدار ـ وأرى أنا أطراف هذه السقيفة بادية من الجهات الاربع ، ومفسدة منظر الغرفة ، ومجافية لكل ما فيها فأعترض فلا تسمع لى ولا تعبأ بى ثم تروح تبين لى أن هذا الحصير يحصر التراب ويقى البساط البلى ، وعبثا أحاول أن أفهمها أن من العسير ان يجمع المرء بين الزينة والمنفعة فى كل شىء ، وكيف بالله يتفق طراز لويس الرابع عشر والحصير ؟ وأى ذوق يقبل أن تطرح سجادة « للصلاة » فى غرفة كهذه ومكتبتى أفردت لها غرفة صونا لما فيها ، وأغيب بعض النهار عنها ثم أعود فادخلها فاذا بمكنسة على المكتب أو هاون تحت الدولاب أو قطعة كساء قديم أو ثوب بال بين مصراعى الدولاب ، وخرج كان معها فى حجها تخرج الكتب وتدسه مكانها ، وموقد عليه أدوات القهوة وحوله منابذ كثيرة تشهد بأن الغرفة كانت متخذة لمجلس الاسرة وشرب القهوة . وتحتاج الوالدة عفا الله عنها الى ورقة تلف بها شيئا فلا تسألنى ولا تفكر فى ، بل تعمد الى أى دفتر فتنزع منه ما تشاء ، وقد يتفق أن يكون الدفتر فيه قصائد لى لم

---

(١) كتبت هذا قبل وفاتها عليها رحمة الله

تنشر أو مقالات أو مذكرات ، والحظ ذلك فأحتج فتقول فى بساطة محببة وجهالة تخمد جذوة الغضب

« يا بنى ان الورق عندك كثير والدفاتر عديدة فما قيمة ورقة واحدة أخذتها ؟ » فأقول « ولكن الورقة التى نزعتها قصيدة لى فماذا اصنع الآن ؟ وكيف أنظمها مرة أخرى ؟ »

فتقهقه ثم تقول « تنظمها ؟ أتتكلم جادا ؟ »
فأقول « نعم » بلهجة التأكيد

فتقول « والله عمرى ما عرفت جدك من هزلك ! »
فأسأل « ولكن لماذا ؟ »
فتقول وهى مقطبة « أتضحك منى يا ولد ؟ تنظم ؟ أبلهاء أنا حتى تقول لى انك تنظم ؟ »

وأفطن الى الخطا الذى وقعت فيه وأفهمها انى أعنى بالنظم قرض الشعر لا نظم العقود، فتحدق فى وجهى ثم تمصمص شفتيها وتهز راسها وتقول « شعر ! ما شاء الله ! لم يبق الا الشعر !؟ كان هذا ينقصك ! يا خسارة يا خسارة ! »

فامضى عنها يائسا ، وأقول لعلها أحسنت بتمزيق شعرى ! وفيم أغضب وأنا قد كففت عن نظم الشعر ونفضت منه يدى ؟

وأنابيب الماء فى البيت ، والحنفيات والاحواض قائمة فى مكانها، ولكن « الزير » لابد منه ولا غنى عنه ، والكوز يجب أن تكون له بلابل ، والاباريق والطشوت أنواع ، وان كان لايستعملها أحد ، والقوارير لايأخذها احصاء ، وهى أشكال : منها القصير والطويل، والمديد العنق ، والضخم البطن ؛والمضلع والمستدير ،الخ . ولاأدرى ما حاجة البيت اليها لكن الذى أدريه ان كل زجـــاجه دواء تفرغ تغسل وتنظف وتحفظ وترص مع اخواتها ، وعددها يزداد على الايام حتىلاحسبنىسأحتاج الىغرفةخاصة بها ، أعرضها فيها ، والبيتمضاء بالكهرباء ولكن المصابيح والمسارج مدخرة كأن من الممكن أن نرتد فى حياتنا الى عصر الزيت أو الغاز . ولسنا نعجن أو نخبز لانا كغيرنا نشترى الخبز من الخباز ، ولكن البيت غاص بالمعاجن كبيرها وصغيرها

والالواح التى تتخذ للتقريص ، والمحاور ، وأدهى من ذلك الاصرارعلى بناء فرن فى كل بيت نسكنه ، استعدادا للطوارىء ، أما آنية الأكل فمعرض كامل من أيام آدم الى عصرنا الحاضر · فيه الجفان والقصاع والملاعق الخشبية والصحاف من النحاس والصاج ، والخزف على أشكال شتى وصور متعددة ، والطواجن والبرانى والبرم ـ كل ذلك الى جانب الأوانى الحديثة الخ الخ ·

والخادم شيء عتيق جدا كالجبال ، ووجهه من كثرة الغضون كالمدينة تراها فى الليل من فوق مئذنة عالية، وقد حملنى صغيرا وفى مرجوه على ما يبدو لى أن أحمله فى كبره ، والغريب أنه يشبه أبى حتى لاضحك أحيانا اذ أرانى أهم بأن أدعوه بذلك ، وعلى ذكر ذلك اقول انى لاحظت ان السن اذا ارتفعت جدا قلت الخصائص المميزة للوجوه وصارت متشابهة ، وفى هذا الخادم تتجسد المحافظة على القديم والتشبث به ، فمن ذلك انى كلما طلبت أن يصنع لى قهوة أراه يجيئنى بفنجانة قوراء لها ظرف توضع فيه ولا تستقر عليه ، فاذا أدنيتها من فمى لارشف منها تمايلت وأريقت القهوة على ثيابى ، واذا طلبت فناجين من طراز حديث جاءنى باثنين مختلفين كأنى فى دكان تاجر يعرض على سلعا مختلفة ، ثم هو لا يجيئنى بالقهوة الا باردة لان « المرحوم الافندى كان يشربها كذلك » فأقول له « ولكنى أنا لست المرحوم الافندى فهاتها لى حرى كجهنم »

فيستعيذ بالله ويهز يديه المعروقتين ويقول « لماذا تقول ذلك؟ قل خيرا ! »

فأسال « أتأسف جدا اذا رأيتنى بعد عمر طويل ـ طبعا ـ مقذوفا بى الى جهنم »

فلا يطيق أن يسمع هذا الكلام ، ويخرج ساخطا ويأرق الليل كله اشفاقا على من نار السعير !

ولما صدر كتابى « صندوق الدنيا » حدث يوما أن عدت الى البيت متعبا ، فسلمت من بعيد ، وهممت أن أمضى الى غرفتى ، ولكن زوجتى أشارت الى ، ولاحظت أنا أن والدتى لم ترد تحيتى ، فعلمت أن فى الامر شيئا ، ووطنت نفسى على الحلم وطول البال ، ودخلت

على الوالدة وتعمدت أن أقبل عليها بوجه طلق ، وأن أضحك اليها وأتحفى بها ، ولكنها اعرضت عنى ولم تعن حتى بالنظر الى ، ورفضت حفاوتي ، وصدتني باشارة عنيفة ، فالتفت الى زوجتي مستفسرا وغمزتها بعيني فقالت :

« ما هذا الكلام الفارغ الذى كتبته عنها ؟ »

وكان ينبغي أن اغضب ، أو أتصنع الغضب ولكنى فكرت بسرعة وقلت لنفسي ان الازمة حادة فلأكن حكيما فخلعت الطربوش وجلست وقلت « ماذا تعنين ؟ »

وحاولت أن أشير اليها أن تكون عونا لى ، ولكنها خذلتنىوقالت « أعنى أنه لا يليق أن تكذب عليها »

فوقفت والتفت الى والدتي وقلت ملاطفا « ولكن ما هي الحكاية ؟ باى شيء كذبت عليك ؟ وماذا كتبت عنك ؟ » فانصرفت عنى ولم تجب ، فعدت الى زوجتي اسالها ، فما زادت هذه على أن خرجت وما لبثت ان عادت بنسخة من « صندوق الدنيا » دفعتها الى ثم قالت « انظر ماذا كتبت عنها هنا ؟ »

ففهمت — ذلك ان فى الكتاب مقالا عن « الصغار والكبار » هو عبارة عن حديث بيني وبين ابنى ، اقترحت فيه عليه أن نقلب الامر ونعكس الآية ، وأن نرسل الكبار الى المدرسة ونولى الصغار الامر ، ومثلت له بجدته فقلت له «نقص لها شعرها ونلبسها مريله ونبعث بها الى المدرسة »

وقلت لزوجتي « ماذا فى الكتاب ؟ »

وهنا انفجرت والدتي « تسالها ماذا يا قليل الحيا ؟ أهذا جزاء تربيتى لك وسهرى عليك وافناء صحتي وعافيتي من اجلك ؟ لعنة الله عليك وعلى أمثالك ؟ . ان قلبى ساخط عليك الى يوم القيامة ! برئت منك فلست ابنى ولا أعرفك ! حسبى الله ونعم الوكيل ! »

وتناولت سبحتها وأكبت عليها تتمتم . فقلت « ولكنك واهمة . ليس فيما كتبت شيء يعاب . وسأقرأه لك لتقتنعى » فانتفضت وصاحت بى « تريد أن تقرأه لى أيضا ؟ اخرج من أمامى ! والله لولا

ضعفى الادبتك غير هذا الادب ! ياعديم التربية . أنا تقص لى شعرى وتلبسنى مريلة !؟ أنا . أنا . بعد أن ابيض شعرى وأشابتنى تربيتك .. ولكن ماذا أنتظر ممن يعاشر الانجليز والكفار .. اخرج ! اخرج من هنا . عند الله تعبى ! »

فتألمت لها وأدركنى العطف عليها وأردت أن أعرف من الذى دس لى عندها فقلت « ولكنى لم أقص لك شعرك . انه على رأسك. فماذا يغضبك . »

فقالت « على رأسى ؟ وهل كنت تريد أن تقصه بالفعل ؟ والله كنت أقطع يدك يا ... »

« ولكن من الذى كذب على ؟ »

« يقص لى شعرى ! ؟ ما شاء الله ! فى آخر الزمن أذهب الى المدرسة وألبس مريلة ؟ ولكن حسبى الله فيك ! اذهب عنى . فلست أطيق النظر الى وجهك المسيخ ! اذهب! قلبى وربى غاضبان عليك ! »

* * *

ذهبت . وماذا كان يسعنى غير ذلك فى فورة غضبها ؟ وعلمت من زوجتى أن عجوزا بلهاء من قريباتها كانت تزور والدة صديق لى فأفهمها هذا الصديق اللعين انى قصصت لامى شعرها وألبستها مريلة وأدخلتها مدرسة فقالت العجوز

« يابنى حرام . »

قال « صدقينى »

قالت «لقد كنت عندها منذ أيام فألفيتها على عهدى بها . لاشعرها مقصوص ، ولا مريلة على صدرها ، الكذب حرام يابنى ؟ انها سيدة تعرف ربها »

قال « ابنها هو الذى يقول عنها ذلك ، لا أنا »

قالت « ابنها ؟ من قال هذا ؟ »

قال . « حكاه فى كتاب وضعه والناس كلها تقرأه »

قالت « يا للفضيحة ! ولكن يابنى هذا ليس بصحيح ؟ »

قال « هل يكذب ابنها عليها ؟ »

قالت « سأذهب اليها وأتأملها هذه المرة جيـــدا • من يدرى ؟ أتراها خرفت ؟ »

* * *

وقد كان • جاءت العجوز الى بيتنا وجلست الى جانب والـدتى وجعلت ترمقها وتجيل فيها عينها ، ووالدتى تعجب ولا تتـــكلم • وضجرت العجوز واشتاقت أن تقف على الحقيقة فمـــدت يدها الى رأسها تتحسسها لتستوثق من شعرها أهو مقصوص أم على حاله •

والتفتت اليها والدتى وسألتها « ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ »

فقالت العجوز « لا • كذب »

فسألتها • « ما هو الكذب ؟ »

قالت « ما يحكونه عنك »

فدهشت والدتى • « ما يحكونه عنى ؟ عنى أنا ؟ »

قالت « اى والله كذبوا • أعوذ بالله من أبناء هـــذه الايام ! لن أصدق أحدا منهم بعد هذا »

وقصت عليها الحكايه •••

* * *

وهكذا عرفت الدسيسة ومصدرها ، ولـكن والدتى لم تفىء الى الرضا الا بعد جهاد طويل شاق • ولما اقتنعت بانها وقيعة صديقى هذا ضحكت جدا ، ولا تزال كلما رأت قريبتها البلهاء تدير وجهها عنها لتخفى ابتسامها •

أما صاحبى الذى كاد لى فقد أنذرته انى لا محالة منتصف منـه فانى كما يقول ابن الرومى :

للخـير والشر بقـاء عنـدى كالارض مهما استودعت تؤدى

ومن يدرى ؟ لعلى أتحت له فرصة أخرى للمعابثة •

# رجل عادى

هو أنموذج حسن لذلك الطراز من الآدميين الذين نطلق عليهم كلمة « الاوساط العاديين » فيــه تجتمع النقــائض التى يعيب اجتماعها المثقفون ، والنقائص التى يزدريها ويتنزه عنها الاكثرون - مثقفين أو غير مثقفين - فهو مثلا يكفر بالديمقراطيــة ولا يؤمن بالمســاواة ويبدو ذلك منــه فى زيه وبزته ومشــيته وحديثه وخيلائه ، ومع ذلك يؤثر الجمهوريه على كل ما عــداها من نظم الحكم ، ومن مبادئه العملية أن ليس اشد غفلة ممن يقرض غــيره الا من يرد ما يقترض • ويتفق أن يمــر ببعض الفقراء فيفرغ فى أيديهم ما معه من مال قل أو كثر ، وهو الذى ربما ضن على صديق له بفنجانة قهوة ، وأحيانا يحب الناس أو يكرههم تبعا لمــا يصدر عنهم ويكون منهم ، وأحيانا يكون حبه أو كرهه لهم لانهم يكونون كما خلقهم الله لا شرا أو خيرا مما خلقهم • ويصنع الجميل ويفسده بما هو أقبح من المن ، أعنى بالمجاهرة بالآثام البواعث عليه ، ويقامر - بمستقبله - ويشرب ويفعــل الاســواء ولا ينــكر من سيرته شيئــا ولا يخجل أن يقر على نفســه بالشين وأن يبرئها من المحامد والفضائل •

وقد أحب - أعنى عشق - فى حياته مرتين ••• والحب عنــده « كالزكام » يجىء - كما يقول - من التعرض ، واذا كان غــيره برتاح الى اعلان زكامه والسير به فى الطريق طلبــا لعطف الاخوان ، فانه هو يؤثر الحمية والاحتجاب حتى يبرأ ، كراهة لهــذا العطف واستكبارا أن يكون بحيث يستحقه من النــاس • وكان أخيب حبيه الثانى - والاخير - لان الخيبة فيه لم تكن لغدر او نكث للعهد ممن أحبها - كما حدث فى حبه الاول - بل لان عمه - وأبا فتاته - هو الذى سد فى وجهه الطريق وأخذه عليه وعلى بنته •

وكان عمه يرى فيه مثالا للســقوط وفساد السريرة ، ويمقت حتى أن يراه ، ويعتقــد أنه خدن ســوء ، وان الاتصال به مجلبــة

للشر ، فحرم عليه بيته ونهى ابنه عن مخالطته ، لما كان يسمع عنه من الجماح وركوب الحياة بالشباب ، ولم يكن صاحبنا صغيرا ، ولا محتاجا ـ على اسرافه ـ لعمه ، ولا كان يعنيه أن يكايده او يناوئه أو ينتصف لنفسه منه ، وقلما كان يفكر فيه أو يخطره بباله ، ولم يمنعه كره عمه له أن يتلقى ابنه كما يتلقى سواه ·· أعنى بالاحتمال والتجاوز وبالمروءة الناشئة عن الاستخفاف بالحياة لا عن كرم النفس ، وشاء القدر مع ذلك أو أتاحت الظروف أن يحب صاحبنا ابنة عمه ، وأن تبادله هى أيضا حبا بحب وحفاظا بحفاظ ·

وكان هو نفسه يعجب لهذا ، لا لحبه لها فانها فى رأيه تستحق ذلك منه ، بل لحبها هى له ، على الرغم من كره عمه له والحاحه بالطعن عليه ولجاجته فى تنقصه · وقد يتفلسف فى تعليل ذلك فيقول ·· « انه ما من فتاة تكف عن حب الرجل الذى يستولى على هواها من أجل ما يحصبه به غيره من التهم · وقد تتهم أنت حبيبها بالخسة وسقوط المروءة فتفتر عن أعذب ابتساماتها ، فاذا كررت ذلك وذهبت تبدىء فيه وتعيد ، فقد تسامك وتمل حديثك ، وقد يكون حبيبها لصا · ولكن ما هى الدنيا اذا لم تكن مغارة لصوص · ان الناس لا يزال بعضهم يسرق بعضا ويسطوقويهم على ضعيفهم ويسبقط متحفزهم على غافلهم ، والمستعد منهم على المفرط المهمل ، حتى الشهرة تسرق والحق والفضل ، وما شهرة القواد ؟ أليست اغتصابا لمجهود من دونهم من ضباط وجنود ؟ وربما كان حبيبها قاتلا سفاحا ، غير أن هذا لا يثنيها عن حبه ؛ وهل خلت الدنيا ممن يحسن أن يقتل ويخرج منها ؟ وقد يكون جبانا منخوب الفؤاد ولكنه يحسن أن يغازل ويجيد الاعراب عن حبه وارضاء عاطفة المرأة على حين يتفق أن يكون الجرىء القوى القلب مملا فاترا ، وربما كان مقامرا ولكنه أليس الحظ نفسه قمارا رائعا ·؟ انما يصرف الفتاة عن حبها خيانة الرجل ، خيانة تثبت عليه لامرية فيها ، وحتى هذه فيها قولان فقد تكون إشد اغراء واسحر لخيال المرأة ·· ؟ الحقيقة انى لا أدرى ، فان المرأة لغز ، ومن ألغازها أن واحدة من بنات حواء تحبنى · »

وجاء ابن عمه يوما ينبئه أن أباه مستعد أن يشترى انصرافه عن ابنته بالثمن الذى يفرضه ، ففرك صاحبنا كفيه والتمعت عيناه وقال :

« اذن قم بنا اليه فانى وحقك مفلس . »

وكان ابن عمه لا يعرف له جدا من هزل ، فلم يدر على اى وجه يؤول ما يبدو من صغاره واستعداده للاتجار بقلبه . وصار فى بيت العم فأصر صاحبنا على أنيكون ثمن التحول مائة جنيه وحكايه ـ مائة جنيه يدفعها العم أمام الفتاة ، وحكاية تسمعها الفتاة ، وأسرتها حافة بها ـ أبوها وأمها وإخوها .

ولا نطيل ـ وما الفائدة ؟ ـ انتظم عقد الاسرة ووقف صاحبنا قبالتها ، فقد أبى أن يجلس ، ومد يده وعلى فيه ابتسامه ساخرة ، لتناول المائة المفروضه ، وأخرج محفظته فى بطء ووضعها فيها على مهل بعد أن عدها مرة أخرى وجسها بعينه وأصابعه ورقة ورقة،ثم طوى المحفظة ودسها فى جيبه ، وزرر الجاكتة ، وأشعل سيجارة ، ونفخ الدخان ، وأرسله يتلوى فى جو الغرفة ثم قال ووجهه الى النافذة وعينه الى خيط من الشمس يعيث فيه الدخان ..

« يا فتاتى المسكينة ، لقد أبى على أبوك أن أحبك ـ وأخوك أيضا ـ وحسنا فعلا . وان كنت لا أستطيع أن أتعهد بكرهك كما أستطيع أن أتعهد بالبعد عنك ، والواقع أنى كنت أتوقع ذلك من أبيك ولم يكن حبى لك الا حبالة أنصبها لاقتناص المال من أبيك.. ولكنى والله أشعر أنى بدأت أحبك مخلصا ، وستشقين وأخشى أن أشقى أنا أيضا بعد اليوم . ولست أرى لابيك حقا أو سلطانا يحول دوننا اذا بقى حبك لى كما عهدته ، فانك أكبر من أن يكون أمرك بيده ... »

فقاطعه العم مشمئزا وقال : « انك أخس مما كنت أظن ، فقد أخذت المال وحنثت »

فقال صاحبنا .. « دعنى أتكلم ولا تقاطعنى من فضلك . انك ترين اصرار والدك على أنى خسيس بل أخس مما كان يظن . وأحسبنى لم أغشك ولم أوهمك انى خير مما أنا ، ولم أكتمك انى

رجل سوء ، ولكن أباك يولينى شرف الاعتقاد بقدرتى لا على الانصراف عنك فحسب ، بل على اشقائك أيضا وربما كان على صواب ، فانه أبوك وعمى ، والآباء والاعمام والاخوال قلما يخطئون ، بل هم لا يخطئون قط • فاعلمى يا فتاتى انى ممن يصح أن يقال فيهم أن فى وسعهم أن يؤلفوا كتابا يسردون فيه وقائع حياتهم ، ومعنى هذا ــ كما هو واضح بالبداهة ــ انهم صنعوا كل شىء الا تأليف الكتب • وهذا هو الاستثناء الوحيد ولست أنوى ان أؤلف كتابى الآن أو أتلوه كله عليك ، ولكنى أنوى أن ألقى عليك فصلا واحدا منه •

« كنت يومئذ فى مدرسة الحقوق ، وكان زملائى خيرا منى هنداما ، وأنا أقوى منهم استعدادا لتلك الصفات التى لا تلبث أن تدفع المرء فى طريق السقوط ، وكان أبى رحمه الله لا يجود على بالمال ، وكان لى زميل يتحلى بكل ما ينقصنى ــ برقه القلب وكرم النفس واستقامة الضمير ، وكان لسوء حظه يحبنى ويخلطنى بنفسه ، فكنت كثيرا ما أقترض منه على نية السداد، ولكن لا سداد، وشاء القدر أن يحب زميلى فتاة ليس أجدر بها منه ولا به منها ، وكانت هى تحبه أيضا ، مخلصة ، لاطامعة فى ماله ، وكان كثيرا ما يبثنى هواه لها ويمتع نفسه بالافضاء الى بحديثها ، وبلغ من ثقته بى أن عرفنى بها •

« وفى يوم من الايام اقترضت منه مائة جنيه بلا تعب ، فذهبت أخطب ود حبيبته وأغزو قلبها حتى نجحت ، ولا أطيل عليكم فان ذلك فن أظننى أنفرد دونكم باتقانه ، وهل بى من حاجه ان أصف لكم كيف بدأ الملال يدب فى قلبها لصاحبى ، وكيف انها لم تزل تعرض عنه حتى كانت النبوة ، ووقعت الجفوة ؟ كلا • لا حاجة بى الى ذلك ، وبحسبى أن أقول انى بعد ان حطمت قلبه انقلبت أحطم لها هى أيضا قلبها وأرمى بها عظمة بعد أن أكلتها لحما ••• هذه حكايتى •• »

وأدار عينه فى الاسرة وقال : « وأظنها حسبكم »

ثم صوب عينه الى حذائه وقال : « والآن •• ؟ »

فقال عمه : « انها حكاية فظيعة »

فقال صاحبنا : « تماما • والآن ، استودعكم الله • »

ومضى الى الباب وفتحه وقبل أن يوصده وراءه أدار وجهه اليهم وقال :

« آه • لقد أنسيت • سأحتفظ بهذه الجنيهات المائة • فان أسرتكم مدينة لى بها »

★ ★ ★

وقال العم مستغربا •• « ماذا يعنى ؟ أسرتنا مدينة له ؟ »

ونهضت الفتاة متثاقلة وقالت : « انى متعبة فسأذهب الى مخدعى »

فقال أخوها : « بل تبقين لحظة • يا أبت لقد ظلم ابن عمى نفسه ارضاء لك • وقلب الحكاية فوضع نفسه فى موضعى »

فصاح الأب : « ماذا تقول ؟ »

فقال الابن : « أقول انه أشفق على شيخوختك ولم يشأ أن يفجعك فى ابنك

وهكذا صاحبنا أبدا ! •

# سياسة الزوجة

كثيرا ما أرانى الآن أفكر فى المرأة أو أحادث اخوانى فى موضوعها، فهل هذا لأنى عدت أشك فى صحة رأيى فيهـا وأرتاب فى سداد نظرى اليها ؟ أو هو لأنى وصلت الى منحدر العمر فلا عجب اذا رحت التفت بعينى وبقلبى على سبيل التزود ، أو من قبيل التذكر ، قبل أن أهبط ، كمـا يلقى المرء نظرة عامة على الروض قبـل أن ينصرف عنه ؟ لا أدرى .. ولكن الذى أدريه انى كنت مع صديق لى فما أسرع ما تدفق الحديث فى هذه المجرى فقال بلهجة مشـوبة بمرارة الألم والخيبة ..

« المرأة مخلوق عجيب »

فقلت له : « وهذا عين ما تقوله المرأة لو سئلت عن رأيها فى الرجل وأرادت أن يلخصه فى ثلاث كلمات »

فلم يلتفت الى ملاحظتى ومضى يقص على حكاية خلاف مسـتفحل بينه وبين زوجته على قرب عهدهما بالزواج ويقـول : « ان أغربَ ما فى الأمر أن الخلاف لا أصل له »

قلت : « هذا معقول »

قال : « أتتهكم ؟ »

قلت : « كلا . ولكن تجربتى أثبتت لى أن ما يقـع بين الزوجين كثيرا ما يكون عبارة عن سلسلة من المناوشات لا سبب لها ولا داعى لنشوبها الا حماقة الزوجين »

قال : « أؤكد لك انى دققت فى محاسبة نفسى وانى مقتنـع بأنى لست الملوم »

قلت : « ولا شك أنها هى أيضا مقتنعة بأنها ليسـت الملومة وان الذنب كله لك »

فضاق صدره وقال : « ما هذه المعارضة الساخرة؟ أترى من المعقول والطبيعى أن أكون أنا وزوجتى ٠٠٠ »

قلت : « قل زوجتى وأنا »

قال : « انك متعب ٠٠ أن أكون أنا وزوجتى فى خلاف على شىء عرض لنا فى يومنا فتذهب هى تعيب شيئا سمعته عنى قبل زواجنا بل قبل أن أعرفها وتعرفنى ؟ »

قلت : « نعم وبلا شك ٠ ولو انها رجعت فى خلافها معك الى ماقبل ميلادك لما كانت فى نظرى الا أقرب الى العقل وأشبه بالطبيعة »

قال : « ماذا تريد أن تقول ؟ »

قلت : « أريد أن أقول انك ولا مؤاخذة مغفل »

قال : « وكيف كان ذلك ؟ »

قلت : « لو ذهبت الآن الى زوجتك هاشا باشا ، وعانقتها لغاب تل الخلاف الذى ارتفع ليفرق بينكما ٠ ان غلطتك الشنيعة هى انك تعاملها كأنها رجل وكأن المنطق هو وسيلة الاقناع ٠ كلا ٠ لا ينفع المنطق بين الرجل والمرأة »

قال : « وما الذى ينفع ؟ أنت متزوج مثلى فخبرنى »

قلت : ان المرأة لغز محير فى نظرى ٠ فيجب أن أكون أنا أيضا لغزا محيرا لها ، وأول ما أتوخاه هو أن لا أدعها تفهم أو تعرف ماذاتتوقع منى ، فاذا بدا لى انها ترتقب الصلابة لنت ، أو اللين تشددت ، أو الغضب ضحكت ، أو الهياج تبلدت أو السكون ثرت »

قال : « وكيف تعرف أنها تتوقع هذا أو ذاك منك ؟ »

قلت : «من شفتيها وعينيها ونبرات صوتها واشارتها ـ وبفضل ذكائى من ناحية أخرى ٠ ولو كنت أنا زوج امرأتك لأريتك »

فضحك وقال . « قبحك الله »

فتجاوزت عن هذا الدعاء وذكرت قول رصيف فاضل « قالوا للقرد

انك ستمسخ قال لاكون غـزالا ؟ ، وكذلك أنا ، ما لقبحى مزيد ، ومضيت فى كلامى فقلت ..

« ولكن هذا لايمنع أن تكون مرة هى مخطئة ، فأؤكد لها انهـــا على صواب وأنى أنا المخطىء المعتذر . اذا رأيت أنهذا خير ما أصنع وأنه أجلب للراحـة وأنفى للمتاعب . والواقع أن من الخطـأ أن يظن الرجل ان عليه أن يكون صلبا متشبثا في كل موقف خلاف ، لتتقرر سيادته ، وليظل هو القوام وهى الطائعة المذعنـــة التى لا تنبو فى يديه . ان المسألة مسألة سياسة وحزامة لا مسألة مضاربة وعراك، ولتكن المسألة ما شاءت فهى على التحقيق وعلى كل حال ليست مسألة منطق أو عقل كمـا قلت لك . وأقص عليك موقفا يريك كيف تلين الصعاب فى علاقة الرجل بامرأته. لا أعرف رجلا لم يكذب قط ،وأنا كغيرى يحلو لى الكذب أحيانا ، وكثـيرا ما أرانى أكذب بلا داع وعلى غير قصد . وكانت زوجتى رحمها الله تنقم منى هذا الكذب ولا تفتأ تعنفنى عليه

« فحرت ماذا أصنع . الكذب لابد منه وهو يجىء عفوا فلا حيلة فيه ، والاستهداف للتعنيف مرات كل يوم ليس بالسار المتـع ، وأخيرا فتقت لى الضرورة حيلة فقصدت اليها جذلا مسرورا وقلت :

« اسمعى »

قالت : « خيرا ان شاء الله »

فلم أرتح لهذه المقابلة ولكنى تشجعت وقلت :

« ان الاقلاع عن الكذب جملة مستحيل »

فابتسمت ولم تجب فقلت :

« ان الحياة نفسها أكذوبة ضخمة »

فقالت بلهجة المتبرم : « من فضلك لا تتفلسف »

قلت : « لافلسفة ولا شبهها . انما أريد أن أقول انك عايشتنى سنوات طويلة ولا شك انك قد أيقنت لى مبتلى بالكذب . »

قالت : « أعوذ بالله ! أتتكلم جادا ؟ »

قلت : « لا تخافى . لن أكذب بعد الآن الا مرة واحدة كل يوم »

قالت مستغربة : » مرة كل يوم ؟ «

قلت : « نعم اسمحي لى بكذبة واحدة كل يوم ـ أقل من هذا يفسد العلاج كله . ولست أستطيع أن أعين موعدا لكذبتى اليومية ، فقد تكون على ريق النفس ، أو فى وقت القيلولة من شدة الحر ، أو فى الليل من تعب النهار . كذبة واحدة والسلام »

واتفقنا على ذلك . فانطلقت أكذب كالمدفع الرشـــاش ، وكانت تفطن الى الكذب فلا أكابر ، بل أعترف وأردف اعترافى بتذكيرها بأن هذه « أكذوبة اليوم » ونضحك وقد فض الاشكال واستراح البال . فهل تقدر أن تقول لى أين المنطق الذى أفادنا هذه الراحة ؟ »

فهز رأسه كالذى يفكر فقلت .

« لقد نفعتنى نصيحة أسدتها الى فى شبابى أخت جدتى . وكنت قد تزوجت فجاءت تزورنا ، وكنا جميعا نحبها ونستظرفها ونعجب بها ، وكان سر اعجابنا بها انها تحسن ركوب الخيل كالرجال ، وشاء الحظ أن يقع خلاف يوم قدومها بينى وبين زوجتى فلزمت غرفتها ولم تجلس معنا على المائدة . فكدت أجن ولم أصب من الطعام الا قليلا . ولكن أخت جدتى كانت تأكل كأنما تدخر للمستقبل . فلما قمنا عن الطعام قالت لى :

« هذا أول خلاف بينكما ؟ »

فأسرعت أؤكد لها أن لا خلاف بيننا وانها مريضة لاتقوى على مبارحة الفراش فلم تعبأ بتأكيدى شيئا وقالت :

« وأنا سبب الخلاف ؟ »

فلم يسعنى أن أظل اكابر . وقلت : « دعينا من هذا »

فأصرت على أن لا تدعنى وقالت :

« لأنك قلت لها لعلمي كيت وكيت فعز عليها أن تلومهـــا على مسمع مني ؟ »

قلت : « ولكني أكدت لها اني لم أكن ألومها · وجاهدت أن أقنعها بأنها تتجنى على »

قالت : اني امرأة فاصغ الى · لا تجادل امرأتك ولا تجـــاهد أبدا أن تقنعها · لو كنت ربت لها ذقنها وقبلتها أو اعترفت بخطئك لما احتاجت أن تصوم يومها في غير رمضان »

قلت « ولكني لم أجن ذنبا حتى أعترف بخطئي »

قالت : « كان في مقدورك بعد أن تقر بالذنب أن تذهب الى المرآة فتخرج لسانك هازئا »

قلت : « ولكنها تتعود أن تتجنى على وأن أعتذر لها »

قالت : « كلا · تسايرها خطوة لتجرها بعد ذلك فرسخا »

وبعد أن فرغت من القهوة قالت : « اذهب الى أصدقائك وأقض معهم ساعة » فقمت · ولما هممت بالخروج أشارت الى وقالت : « اني أحس بدوار قليل · لقد هرمت · فاذا أغمى على ترشوا على وجهي ماء لئلا أموت · ولكن احضر لى معك قليلا من روح الخل »

وعلمت بعد ذلك انها لم تكد تسمع الباب يوصد حتى قصدت الى غرفة زوجتي فلم تجـدها لا نائمة ولا مريضة ولا متظاهرة بالمرض ، فقالت لها :

« لقد خرج · كان يشكو الى منك وهو لا يعدل قلامة يطيرهاالمقص من ظفرك »

فقالت زوجتي : « لقد أســـــمعني كلاما مرا لأني قلت له كذا وكذا »

قالت هذه العجوز الحكيمة : « تعالى معى ولا تفكرى فيه · لو غيره لعبدك · أين كان يستطيع أن يجد مثلك جمالا وعقلا وأدبا · »

فارتاحت الى هذا الثناء عليها من أخت جـــدتى أنا ، واطمأنت الى تحيزها لها

فقالت : « لقد ظل يلومنى وأنا أحاول أن أفهمــه انى لم أصنــع شيئا ٠٠ »

فقالت تلك « عبثا تحاولين أن تفهمى الرجل شـيئا ٠ ان الرجال كالدواب لا يفهمون ولا يقتنعون الا بما فى رؤسهم الفارغة ٠ فلا تفعلى هذا مرة أخرى ٠ اياك ومجادلة الرجال فانهم لا يعقلون ٠ »

فقالت : « ولكنى أقسم لك انى صادقة »
فقالت تلك : « بلا شك ٠ الرجال دائما هكذا يخطئون ويحملون المرأة تبعة خطئهم ، فليتك اذ لامك ضاحكته ودغدغت له خصره »

قالت : « ولكنى كيف أستطيع ٠ »

قالت تلك غير ملتفتة الى سؤالها «اذن لانتهى الامر وسكنت الفورة وحل محلها البشر والايناس ٠ لقد عاشرت زوجى أربعين عاما وكان شرسا شكسا ومع ذلك كنت أنا الذى أسيره لانى عرفت كيف ألين له من جانب ليسلس فى يدى قياده فيما عدا ذلك ٠ »

ثم مسحت جبينها وأغمضت عينها فقالت زوجتى : « مالك ؟ »

قالت : « دوار خفيف يعترينى فى هذه الايام فقد هرمت يا بنيتى وأخشى أن يصيبنى الاغماء هنا ٠ فاذا حدث فرشى وجهى بالماء واياك أن تنشقينى روح الخل لئلا أموت »

وبعد قليل عدت ٠ ولم أكد أضع رجلى فى الغرفة حتى رأيت أخت جدتى تقع كالميتة ، وكانت زوجتى معها فتركتها وأسرعت الى النافذة وتناولت قلة وعادت بها ٠ فارتعت وسألتها عما تنوى أن تصنع ٠

قالت : « أرش لها وجهها بماء »

فصحت بها : « احذرى ٠٠ هذا روح الخل ، أنشقيها اياه »

وهممت برفع الغطاء عن الزجاجة فأمسكت بيدى وصاحت بدورها : « احذر ٠٠ لئلا تموت ٠ »

قلت : « كيف تموت وقد أوصتنى أن آنشقها روح الخل وكلفتنى أن أشتريه لها ؟ »

قالت : «لقد أوصتنى أنا منذ دقائق أن أرش وجهها بالماء وأن احذر انشاقها روح الخل »

قلت : « هذا مستحيل • ولا يمكن أن آكون قد أسأت الفهم • اذ لماذا أجىء بروح الخل اذا كانت قد حذرتنى منه ؟ كلا • »

قالت زوجتى : « لقد كان تحذيرها اياى واضحا جدا • رشى وجهى بالماء واحذرى أن تنشقينى روح الخل • »

قلت : « لابد •• أعنى أخشى أن تكونى قد فهمت الأمر على غير وجهه ولست أستطيع أن أدعك تقتلينها • »

فقالت : « ربما أكون قد أخطأت • فأفعل ما بدا لك » فساورتنى المخاوف وقلت : « لعلى أنا المخطىء • فأفعل ما أمرتك »

قالت : « كلا • بل أنا المخطئة • لا شك أنى أنا المخطئة • »

وردت القلة الى مكانها بين اخوانها فصحت بها :

« لا • لا • لا • هاتيها • انى بلا شك مخطىء »

وفى هذه اللحظة انتفضت العجوز الماكرة وقالت وهى تبتسم : « شيء جميل جدا • لا ماء ترشانه على وجهى ولا خل تنشقانى روحه • وأنا أموت ضحية لتبادل المجاملة • »

وقبلتنا

قال صاحبى : « انها لحكيمه »

قلت : « أحكم منها من يحسن الانتفاع بدرسها ».

فابتسم وقال : « سأجرب »

# محاورة

« هل تعلم أنك آنستنى • »

« كلا »

ونفخ الدخان وحنى رأسه ، وهو ينفض رماد السـيجارة ، وقال متمما أو مستأنفا الكلام ••

« ثم ان هذا لا يعنينى »

فلم تسؤها هذه الصراحة وابتسمت له وقالت ••

« ولكنى أرتاح الى مجالستك •• حقيقة »
فسألها دون أن يبدى اكتراثا •• « لماذا بالله ؟ »
فأجابته بسؤال •• « ألا ترتاح أنت الى مجالستى ؟ »
فقال : « لا تطمعى أن تفتنينى • وان كان لك وجه •• وأقول لك الحق انى أشد ارتياحا الى طعامك ؟

فضحكت ، وعاد هو الى الكلام فقال :

« وعلى ذكر الطعام ، لقد فرغنا منه منذ أجيال ، فالى متى نظـل قاعدين الى هذه المائدة بعدما رفع عنها كل ما كان عليها ؟ أهى قاعدة عندك ألا تدعى ضيفك ينهض حتى يهضم ما أكل ؟ »

« ألم أقل لك انى آنس بك وأسكن اليك • »

« مناوشة • سأعرب اذن • على الاقل الى الشرفة »

ونهضت وراءه وهى تقول :

« لاتخف فانى مثلك لم يعد لى قلب يؤسر • ولو أمهلتنى لكنت قد بينت لك انى أرتاح اليك لانك لا تحاول أن تسبينى »

وجلسا على الشرفة وانطلقا يدخنان فى سكون ثم قال :

« سبكتك النار ؟ هه • »

« أما سبكتك أنت ؟ »

فلم يجب بلا او نعم ، وعادت هى تسأله بعد لحظة :

« ولماذا تخلت عنك ؟ »

« لم تتخل عنى ولكن مللتها »

فظهرت على وجهها أمارات الاستهجان وسألته وهى مقطبة :

« كيف • ماذا تعنى ؟ »

فلم يكترث لتهجمها وقال بلهجة السأمان :

« أوه • أخرج مكرها حين يحلو لى أن الازم البيت ، واضطر الى السهر واحياء الليل على حين يحن رأسى الى الوسادة، وأذهب الى دور السينما ومسارح التمثيل لاشهد ما لا أريد أن أراه •• الى آخره الى آخره •• »

« أنا أيضا كادت تجننى الحيرة والخوف والقلق و •• »

فقاطعها قائلا : دعينا •• ان الحب مرض والسلام • خبل يصيب المرء حينا ثم يبرأ وينجو الى الابد »

فأطبقت فمها ولم تجب ، كأنها لم تسمع وبعد لحظة سألته :

« كيف كانت تلك التى أملتك ؟ حدثنى »

« جميلة »

« ولهذا مللتها ؟ »

« ولكنك اجمل منها »

« حاذر ! »

« اطمئنى • نعم أنت أفتن عينا وجيدا • جيدك ساحر ! ليتــــك

ترينه ؟ وفمك على الخصوص ـ شفتك العليا مغرية التقويس ٠وكأنى بها تهيب بالناظر اليها أن يهوى بالقبل عليها »

« يا صاحبى انك توشك أن تفسد الامر ٠ ان لذة صداقتنا فى خلوها من الحب ، كما تقول ، فاحذر النكسة فانها شر من المرض »

فأشار بيده مستخفا وقال

« لا تراعى ! اذا كان كل ما تخافين هو الانتكاس ، فأنت آمنة ٠ ثم انه يجب علينا أن لا نخلط ، فان كونى غير قابل للحب ليس معناه ولا من مقتضياته أن أبخسك حقك وأن أذهب أزعم انكدميمة بغيضة لا لسبب سوى أن تطمئنى ، ووصف جمالك ليس معناه وصف حبى

فاحمر وجهها وقالت كأنما تحاول أن تستدرجه :

« اذن ما معناه ؟ »

« معناه انى أنظر اليك كما أنظر الى صورة بديعة أو تمثال رائع الحسن ، ولو غيبت الصورة أو التمثال عن عينى ، لما آلمنى ذلك ولا حل فى نفسى ، ولا استوحش قلبى ، كذلك أنت ٠ يعجبنى حسنك ويحلو لى أن أصغى الى صوتك شهرا كاملا بلا انقطاع ، ولكنك لو اختفيت فجأة ـ ابتلعتك الارض أوصعدت الىالسماء ـ لما افتقدتك٠ قد تكون هذه الصراحة سوء أدب ولكنه ليس أعون منها على بقاء ودنا صحيحا وصداقتنا سليمة من الامراض ٠ أنا أعجب بمحاسنك وأثنى على جيدك وفمك وأنت تفتتنين بادبى ٠ وأنا أتحدث عن سحرك وظرفك بلا تأثر وأنت تأنسين بى كما تقولين من غير أن يدور رأسك٠ فهل شىء أمتع من هذا ؟ »

فقالت بعد فترة سكوت ٠٠ « ولكن اليس من حقنا وواجبنا أن نخشى أن تتسرب الصداقة الجافة فى الحب المضطرم ٠ »

فقال : « لا خوف على الاطلاق ٠ أنت واحدة من مائة ألف لا تعبأ بالرجال ، ولا تريد أن يحبها أحد ٠ وأنا لعلى الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يغالب فتنتك ويصرف عن نفسه سحرك ٠ وفى وسعنا

أن نتناول كل موضوع وأن نتحدث فى كل شىء من غير أن يسىء أحدنا فهم صاحبه »

فقالت وغمزت بعين : « ألا تعلم أن بعض الناس يتحدث عنا كانا خطيبان · »

فقال : « لأنهم يروننا متفقين »

قالت : « من يدرى؟ اننا نظن اننا متفقان ، ولكنا قد نكون أشد تباعدا من ·· من ·· »

قال : « ان الحديقة تبدو جميلة فى جملتها والمرء يستطيع أن يأخذ حسنها بنظرة ولكن من بعيد ، وهو خارج عنها ، والحياة على كل حال كشريط السينما ، وصداقتنا هذه فصل ممتع · أما الزواج فخاتمة · »

ونهض ووقف متكئا على سور الشرفة ثم سألها :

« ماذا نصنع غدا ؟ »

« وما حاجتنا الى صنع شىء ؟ »

نجلو صدأ الصداقة »

قالت : « أشكرك »

قال : « العفو »

وبعد فترة قالت :

« أظنك محقا · فلنبكر غدا ولنخرج الى الاهرام » ·

قال : « يجب أن نتفاهم · فان الظهر هو الوقت الذى أفتح فيه عينى على الدنيا »

قالت ونهضت الى جانبه : « الظهر ؟ عن أى شىء تتحدث ؟ أما أن نخرج فى الفجر أو فى المساء »

فالتفت اليها مستغربا وقال : « الفجر ؟ لعلك تحسبيننى من الطيور · »



odeikandil.com

فعادت الى كرسيها وقالت : « معذرة ! سأبحث عن رفيق آخر »

ففتل شاربه وقال بتؤدة : « اذا سمحت لى أن أرشح ابن عمك ؟ »
فأرسلت فى الظلام نظرة حالمة وقالت : « ان من المصيبة أنه سيعد دعوتى دليلا على .. على .. ويتخذ من ذلك مسوغا لمضايقتى »

قال . « هذا شيء يكون ثقيلا على النفس .

فقالت : « انك تدرك ما فى هذا الموقف من الثقل فهلا كنت لطيفا ؟ »

قال : « وكيف أكون كذلك ؟ علمينى . »

قالت : « تحمينى من ابن عمى »

قال : « هذا عجيب . ولكن كيف ؟ انى بطيء الذهن »

قالت : « تصحبنى أنت . انك متى استيقظت من نومك فى الفجر لا تعود تشعر بالحاجة الى النوم . »

قال : «صحيح . لقد سمعت هذا من قبل . وأستطيع أن أؤكد لك انى مقتنع ، ولكن المسألة هى أن أستيقظ »

فقالت : « اختر الوقت الذى يناسبك »

فانثنى اليها وقال برقة : « يا فتاتى المسكينة لن أفسد عليك نزهتك اذا كنت تحبين أن تخرجى فى الفجر فليكن ما تشائين »

فوضعت كفيها على كتفيه وقالت : « أوه . ما أحلى هذا . ان لى عمرا وأنا أشتهى أن أخرج فى نزهة كهذه ساعة الفجر . سيكون الطريق خاليا ــ ملكا لنا ــ وتسرع بالسيارة . تخطف بها الارض وتجعل قلبى يثب الى حلقى . ما أبدع هذا . »

قال بابتسام : « حسن . سأقف ببابك الساعة الثالثة وانتظر ربع ساعة فاذا تأخرت عدت الى سريرى . »

* * *

فى فجر اليوم التالى كانا ينهبان الارض بالسيارة ، فلما جاوزا الجيزة مالا الى شجرة وأخذا يدخنان ثم قال :

« هل صدقت ما قلته لك من أنى ؟

فلم تمهله وقطعته بقولها : « كلا · و · و ·· »

فقال مقاطعا بدوره : « ولا أنا صدقتك ، ان الرجل الذى يحبك ثم يستطيع أن يدعك لا بد أن تكون به لوثة »

فقالت : « هل تغفر لى انى كنت أفتح لك بابا بعد باب وأكاد أضع الكلام فى فمك · »

فمال اليها واهوى على فمها وهو يقول :

يا ساحرة · لقد كافحت وقاتلت شهورا ثم انهزمت · وكنت أحس اذ أراك أن فى جنبى سيفا وأقسمت أمس أن أخرج من نارك بسلام ومن غير أن تحترق شعرة من رأسى · ولكنى أخفقت »

قالت : « لقد فعلت ما أفعله من قبل وما لم أكن أحلم أن فى وسعى أن أفعله · أغرقت كبريائى ودست غرورى وخنقت احترامى لنفسى · عرضت عليك كل مفاتنى ، أفرغت روحى فى نظراتى – فى صوتى – فأخفقت ولم أدر انى ظفرت الا هذه الساعة · »

فلثم فمها فصاحت به : « احذر فان الحب مرض · وقد أعديتك »

فقال : « أيتها الطفلة الخبيثة · انى أنا الذى أعديتك به · لقد ظللت مصابا به منذ شهور ولكنى لم أتبين حقيقته الا ·· »

فسألته مقاطعة : « متى ؟ قل لى · »

فقال : « فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة ومن صباح اليوم »

# صورة لها قصة

كان لى فى قديم الزمان صديق قهوة ـ أعنى انى لم أكن ألقاه الا فى القهوة التى كنت أختلف اليها ولم تكن أعرف له بيتا أو عملا فالقهوة فيما كنت أرى ـ بيته ونادية والقعود فيها ـ على ما يبدو لى ـ كل عمله ٠ وكان فيه شذوذ يغرينى بمعابثته وركوبه بالمزاح العملى ٠ فكان رأيه فى انى « فظيع » ٠ ثم ضرب الدهر بينى وبينه، او على الاصح ، وبعبارة أخرى مفهومة ، اختفى هو فجأة كأنما انشقت عنه القهوة ٠ ولم أعد أرى له أثرا أو أسمع عنه خبرا ٠ وبعد سنين عديدة طويلة قامت فيها قيامة الدنيا ثم عادت فسكنت ٠ واضطربت مصر ثم استقرت . وبينما كنت خارجا مساء يوم من حديقة الازبكية اصطدمت برجل واقف تحت قبعة عظيمة كالشـــمسية ، فشرعت أعتذر له واذا به يقول لى :

« آوه ٠ كيف حالك ؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟ »

فرفعت عينى اليه ـ وكان فيه طول ـ فلم أصدق ، ففركت عينى وقلت له فى دهشة :

« أنت ؟ »

فقال : « ومن كنت تحسبنى ؟ تعال معى الى « الاتلييه » ٠ »

« اتلييه ؟ »

« نعم الآن ٠ أو تعال غدا الساعة العاشرة صباحا فانى أريد أن أصورك من زمن بعيد ٠ »

فلم يعد لى لسان من فرط الدهشة ٠ واكتفيت بأن أهز له رأسى موافقا فقال :

« رقم ١٥ شارع ٠٠ شارع ٠ لا أذكر اسم الشارع ٠ تمشى من هنا ـ وأشار بيده ـ ثم تنعطف هناك ـ وأشار الى ناحيتين ـ ٠٠ ثم ٠٠ »

فلم أطق صبرا وقاطعته ٠

« اسمع يا صاحبى ـ اذا كنــت تعنى القهوة فأنا أعرفها وكل طريق يوصل اليها الا ما تصف ـ ان كنت تصــف شيئا ـ أما ان كنت تحاول أن تزعم أن لك في القاهرة أو فى سواها بيتا ٠٠؟ »

وامسكت يائسا فقال فى بساطة :

« لا ٠ لا ٠ لست أعنى البيت ٠ انه الاتلييه يا أبله ٠ إتحســب الاتلييه مسكنى ؟ »

قلت : « هذا أدهى ٠ »

فجرنى وهو يقول : « تعال ٠ »

وأوقف سيارة ودفعنى فيها وظل يقول لسائقها يمينا ٠ يسارا ٠ حتى بلغنا ما يسميه الاتلييه ، فى أفخم أحياء العاصمة وأشار الى أن أتبعه فهززت رأسى وقلت :

« معذرة يا صاحبى ٠ فلست أحب أن ادخل بيــوت الاغراب فى غيبتهم »

قال : « ماذا تعنى ؟ وأمام السائق أيضا ؟ »

قلت : « من أجل هذا امتنع »

وكأنه لم يفهم فقال مغضبا : « ولكن ماذا تعنى ؟ »

قلت : « سيكون شاهدا على الجريمة ٠ »

فهاج بى يلعننى ، ورأيت الاحزم أن أكف عن مهازلته فأكدت له أنى عرفت البيت ـ أعنى « الاتلييه » ـ وانى سأزوره فيهما ـ أى فيه ـ غدا صباحا ٠٠

* * *

قلت لما دخلت الاتلييه وصارت يدى فى يده :

« ولكن أين آلة التصوير ؟ »

فسحب يده ورمانى بنظرة سوداء وقال :

« ماذا تعنى ؟ »

قلت : « ألا تعرف غير ( ماذا تعنى ) يا ببغاء ؟ »

وجلست دون أن ألتفت الى الصور العديدة المسندة الى الحيطان والمعلقة عليها وأشعلت سيجارة ووضعت رجلا على رجل . ثم قلت :
« لم أكن أعرفك فاسد الذوق الى هذا الحد »

فترك ما كان فيه والتفت الى فجأة فقلت :

« هذا مخزن لا غرفة استقبال »

فابتسم وهز رأسه وعاد الى اللوح يثبته على الحوامل ثم أشار الى كرسي وقال « هنا »

قلت « ان الكرسي الذى أنا عليه أوثر . »

قال فى ضجر : « قم .. قم . »

وصحبنى ثم نزع طربوشي ورمى به حيثما اتفق . فجلست وجلس أمام اللوح ثم نهض الى ركن ورسم لى دائرة باللون الاحمر وقال « تنظر الى هنا »

وجلست ساعة لا اتحرك ولا أكاد اتنفس . ثم قمت أتمطى وأتثاءب وعدت الى الكرسي الاول فقال « ألا تنظر ؟ » وأشار الى اللوح فقلت:
« لقد نسيت . كنت أحلم وأنا قاعد أمامك . من هنا ؟ »

وكانت الصورة دقيقة وان كانت غير تامة فراح يقول : « هذا ؟ هنا .. » ولا يزيد . فضحكت

فى الجلسة الثانية بدأ الرسم من جديد . لأن المسكين صدقنى ، أو اثارت كلمتى الشك عنده ، فمحا الصورة الاولى فأسفت وكففت عن ممازحته وشجعته فى غير تكلف ، ولكنه ظل لا يرضى عما يرسم . غير انه فى الجلسة الرابعة أو الخامسة أقبل على عمله كالمحموم يهذى ، ويتمتم ، يخرج أصواتا لا معنى لها . ثم وضع أصابع لباستيل ونهض وتراجع خطوات ونظر الى الصورة والى وقال :
« أخيرا »

ولما رأيت الصورة صفقت فرحا بها واعجابا بحذقه وبراعته فقال:

« مهلا . مهلا . انها لا تزال ناقصة . الذقن غير محكمة ، مائلة قليلا ، لم أصلحها اليوم لأنى عنيت بالرأس والجبين والعينين . بعد

غد أتمها . والشقة السفلى أيضا تحتاج الى مراجعة . يجب أن .»

فقلت مقاطعا : « أريدها هكذا . أنا قانع بها كما هي »

قال : « ليس هذا شأنك . بعد غد الساعة العاشرة . لا تنس »

ثم دار بي يريني الصور التي يرسمها . وفي جملتها صورة زيتية لفتاة طال وقوفي أمامها فقال :

« اني أشتغل بها الآن . اعجبتها صورتك فهي تريد صورة أخرى بالباستيل . »

★ ★ ★

وفي الموعد المضروب كنت أنتظره في الاتلييه ، فقد تأخر، لا أدرى لماذا ؟ واني لجالس أدخن واذا بنقــر خفيف على الباب فقمت اليه وفتحته فدخلت الفتاة التي رأيت صـــورتها فلما رأتني وقفت وقالت « أوه »

قلت : « تفضلي سيحضر حالا . أنا صديق قديم ـ أعني له ـ »

وقدمت لها كرسيا فترددت قليلا ثم قعدت وهي تقول : « لقد ضرب لي الساعة العاشرة »

قلت : « أعرف ذلك »
قالت : « هل أخبرك ؟ »

قلت : « كلا . لعنة الله عليه ! لو فعل لبت هنا »
قالت : « معذرة ، ولكنني لا أعرفك . »

قلت : « عفوا يا سيدتي . ان صورتك تعرف صورتي . قليلا . وصورتي تعرف صورتك عن ظهر قلب . »

قالت بابتسام : « نعم ولكن .... أليس اليوم الثلاثاء ؟ »

قلت : « لا بد أن يكون ، لانه يومي السعيد »
قالت : « انك فظيع »

قلت : « وهل وشي بي اليك ؟ »

قالت : « قليلا · حذرني منك وهو يريني صورتك »

قلت : « هل قرأ عليك السورة المحفوظة · »
قالت : السورة »

قلت : « نعم · احترس من النشالين الخ · ان ألواحها معلقة فى كل ترام · ولكنى قاطع طريق لا نشال »

فضحكت وقالت : « ليس معى شيء فلا خوف منك »
قلت : « وهذه اللآلىء كلها »

قالت : أين ؟
قلت : « التى فى فمك »

قالت : « لم يكذب ولم يبالغ »
قلت : « نعم »

قلت : « ومع ذلك يضرب لنا موعدا واحدا »
قالت : « صحيح ؟ » بغضب

قلت : « وكيف تعللين وجودى اذن ؟ اسمعى »

وقمت الى النافذه فرايت صاحبنا ينزل من السيارة فعدت اليهـــا وقلت :

« قومى أسرعى · هنا وراء الستار · بسرعة · لا تتحركى »
فتوارت وهى تضحك ، وقعدت أنا أدخن ، ودخل هو كالقنبلة فلما رآنى قال : « الحمد لله »

وخلع قبعته وألقى بها فى ناحية ، وجاكتته ورماها على كرسى، وقعد وهو يقول : لقد حسبنى السائق مجرما فارا »

قلت : « ولم هذه العجلة ؟ »

قال : « لقد توهمت أنى ضربت الساعة العاشرة موعدا لهـــــذه الفتاة » وأشار الى الصورة ·
قلت ببرود « وانا ؟

قال « لقد نسيت · لم أقم من النوم الا منذ نصف ساعة »

قلت « لا تعرف كيف تعتذر ؟ »

قال : « أوه · انك لاتهم · » « أعنى انك تستطيع أن تفهم »

قلت : « وهى ؟ »

قال : « انها امرأة ، وانت تعرف النساء ، لا يفهمن ولا يعذرن - على أن هذه الفتاة لا بأس بها على العموم ـ تفهم قليلا ، تقدر الفن - لم أقل لك ؟ »

قلت : « انها تلبس ثوبا بنفسجيا · »
فاعتدل فى كرسيه وقال : « أين رأيتها ؟ »

قلت وأنا اضطجع وأدخن : « لا أدرى ليست بها ، على التحقيق »
فوثب عن الكرسى وقال : « ماذا تعنى ؟ »

قلت : « لا أعنى شيئا أيها الببغاء ، سوى أنى ما زلت أنتظر اعتذارك لى »

فسألنى بلهفة . « هل جاءت الى هنا ؟ »

قلت : « لماذا تضطرب ؟ لكأنى بك تحبها · فهل أدعو لك بالتوفيق ؟ »

فصاح بى : « يا مغفل ! »

فقلت : « أهذا اعتذار ؟ »

قال : « أنك لا تستحق سوى هذا »

قلت : « أليست جميلة ؟ »
قال : « ما شأنى أنا بجمالها ؟ »

قلت : « كنت أحسبك انسانا »

وكان يروح ويجىء فى الغرفة كالنمر فى القفص ، فلما هم بالجلوس قلت كأنى أحدث نفسى :

« لم أكن أحسبها هى »

فانتفض قائما قبل أن يلمس الكرسى وقال : « هل جاءت ؟ أجب» قلت : « لقد حسبتها · أ · أ · نسيت الاسم الذى تطلقه عليهن»

فانحنى على كالذى يهددنى بالخنق ، وجعل يسأل :
« من ؟ من ؟ انطق ! »

فلم أعره التفاتا ،ولا نظرت اليه،وقلت بأقصى‌ما أستطيع من ضبط النفس والبرود : « قلت لها انك لا تريد واحدة اليوم »

فارتد كانما كنت قد ضربته بحجر على وجهه وكاد يتداعى فقلت:
« لقد كنت على موعد معى ، فلا يعقل أن تحتاج فى الوقت نفسه الى · الى · آه تذكرت · موديل »

فحملق فى وجهى ، وفتح فمه جدا ، وقال :

« موديل ؟ انك · انك · لا أدرى ماذا أنت ؟ أوقح مخلوق على ظهر هذه الارض »

قلت : « لم ارها من قبل فأنا معذور »

فصاح بى : « يا أعمى » أليست هذه صورتها التى وقفت ساعات أمامها ؟ »

قلت : « ليس ذنبى ان الصورة لا تطابق الاصل »

فقال : « ها ؟ » ونظر الى الصورة وجعل يتأملها ويفحصها بعينه، ثم التفت الى وقال . « وهى ؟ أكانت عمياء مثلك »

قلت : « لقد لاحظت ··· »

« نعم ؟ » وهو يتأملنى فى دهشة :

« ·· انه عينيها سليمتان ، ولكن فيهما ·· »

وسكت ، وبودى لو أرى وجهها وراء الستار ، وبعد هنيهة
« ·· ولكن فيهما سحرا »

فصاح : « ويا حيوان · تقول لها انها موديل ؟ »

قلت : « لم أقل لها هذا بصراحة لأني نسيت الكلمة ، ولكني صرفتها بغير احتفال

فهوى الى كرسي كأن ليس في ثيابه شيء فلم أدعه وقلت : « هي أيضا لم تعرفني وان كانت قد رأت صورتي فالذنب لك يا صاحبي كما ترى »

فوضع رأسه بين كفيه لحظة ثم استوى قاعدا وقال بصوت خفيض « لقد أخفقت »

فأدركني العطف عليه ولم يخف على أله كمصور رسم اثنين رأى كل منهما الآخر فلما التقيا لم يعرف أحدهما صاحبه · فنهضت ودنوت منه ووضعت يدي على كتفه برفق وقلت :

« يا صديقي الى معجب بك وباخلاصك لفنك وبأستاذيتك فيه· وسيكون لك اسم ضخم ولا شك ، وما كان يمكن الا أن أعرفها · ولقد عرفتني هي أيضا ، وقضينا هنا معا ساعة من أمتع ساعات الحياة بفضل هذا الغربال الواسع الخروق الذي ركبه الله لك بين كتفيك بديلا من الرأس ، وبعبارة موجزة تآمرنا عليك انتقاما لانفسنا من نسيانك لنا ، وجمعك بيننا ، وان كنت قد أحسنت الينا بذلك · وعليها هي أن تحدثك بالباقي ان كن هناك باق »

★ ★ ★

وعلى القارىء أيضا أن يتصور الباقي ، وما الباقي سوى طوفان من الشتائم واللعنات ، ووابل من الوسائد وقاني ما هو أصلب وأوجع منها وقوف هذه الفتاة الملائكية بيننا تتوسل اليه تارة وتطلق ضحكاتها الفضية تارة أخرى ، وأنا أتوارى وراء الكرسي حتى صرت الى صورتها نرفعتها كما رفع جنود معاوية المصحف فأمسك ، ولكن كانت في جوفه بقية غيظ مكظوم فبكى كالطفل ، وقامت اليه تلاطفه. وأخرجت منديلا مسحت له دموعه به · فلم أنفس عليه ذلك لأنه

استحقه . ولكنى مع ذلك تمنيت لو أنه كان قدجرح لىيدا لتضمدها هى لى .

ولا تزال الصورة عندى تذكرني بذلك العهد البعيد ، والشباب الذى انقضى أوانه ، وبالفتاة التى أرجو أن تكون سعيدة ، وانكانت الحياة لا ترحم ، فقد كان ذلك اليوم هو كل عهدى بها .

obeikandl.com

# قديم هوى أم جديد ؟

« لا أدرى .. ربما كان الحب لا يموت جوعا »

وكان الليل ساجيا ، والقمر ساهما ، والهواء راكدا ، والشجر لا تهتز أوراقه فكأنه صورة مرسومة ، وكنا ندخن فى سكون ، ولم يكن كلامنا المتقطع ـ قبل ان تعد الطبيعة بركودها ـ بسبيل من الحب فالتفت اليه بسرعة وقلت قبل أن أفكر :

« ماذا تعنى ؟ »

فكأنه لم يسمع . ورفع يده بالسيجارة الى فمه على مهل ثم ارسله خيطا من الدخان لا يكاد يتلوى ، فحولت وجهى عنه وقد خيل الى أنه يحدث نفسه . وأحسست كان من واجبى أن أنأى عنه الى حيث لا أسمع اذا عاد الى الكلام ، ولكنه لم يلبث أن قطع شكى بقوله

« نعم . قد يموت كمدا أو يختنق أو يذوى . ولكنه لا يموت جوعا وعجيب هذا بعد عشر سنين . عشر ، أو أكثر . قل خمس عشرة سنة بلا غذاء . لا نظرة يتعلل بها القلب . ولا كلمة ولو من وراء حجاب يتصورها ضمير الفؤاد . لا شيء على الاطلاق . وتمضى الاعوام بطيئة أو سريعة . فارغة أو حافلة عامرة . ويقطع المرء فيافيها أو ينعم برياضها الحالية ... وفى كل هذه الايام الطويلة ـ هذا العمر المديد ـ خمسة عشر عاما . تصور ... لا تضطرب النفس ولا يتلفت القلب ولا تختلج فى الصدر ذكرى ـ وأى شيء هناك يذكر ؟ ثم أكون فى الترام وفى يدى صحيفة اقرؤها . ويقف الترام فى احدى المحطات فأرفع عينى عن الصحيفة وأديرها فيما حولى واذا بها واقفة تنظر الى كما أنظر اليها وقد جمد اللحظان .. واستغرقنا هذا اللقاء المباغت . ويستأنف الترام المسير .. وكلانا مذهول حتى لنسينا أن نبتسم وأن نسلم ... »

وأطبق شفتيه وترك السيجارة تنفلت من بين أصابعه وتهوى الى الارض على الحشائش المبللة ثم عاد يقوم ...

« لو رآني أحد وأنا في تلك الساعة لما جرى له في وهم أن في جوف بركانا مضطرما يقذف بالحمم ، ويشيلني ويحطني ، وتطوى بي نيرانه السائلة ـ بدلا من السهول والجبال ـ خمسة عشر عاما . وتمحو ـ بدلا من المدن العامرة المأنوسة ... عمرا من الحياة الرخية اللبب . جيلا من سكون النفس وراحة القلب . ولو فتح قلبي في تلك اللحظة لعيني انسان لهاله ذلك الاقيانوس الثائر « في أصبعين من حيزوم » كما يقول شاعرك الذى تحبه واني الآن لأهدأ . ولكن ثبج هذا البحر لا يزال مربدا . وما أنفك موجه مقبلا مرتدا . يا لله . لكان جبالا تتقلع في صدري - هنا ، أحسها تتقلع فتقتلع معها أحشائي من جذورها . زلزال . يرج كياني يقوض بنياني . تتشقق له نفسي .. يهوى شطر من حياتي .. يختفي .. وينتأ شطر آخر .. لا . ليس شطرا ما بيننا ، هو لسان فقط ، لسان دقيق ، لم أعد أعرف صور حياتي .. نسيت معالمها ووجوهها .. تغير كل شيء .. نظرة واحدة .. نظرة عجلى .. قصيرة .. نصفها تفرس .. والنصف مضت به الدهشة .. نظرة كافية .. لاحداث هذا كله ... كافية أن أن تمحو وتثبت ... »

وأطرق وأنا ... لا أدرى كيف كنت .. فقد أذهلتني ثورته وصدمتني المفاجأة . ولم أكن أتوقع أن يكون وراء سكوته الظاهر وجموده البادى هذا الجحيم كله .. فتركته يقذف الكلمات من فيه بجهد كأنما يخرجها بآلة ماصة وعز على أن أراه يستقطر نفسه ويعتصرها ولكني لم ار لى حيلة . وخير له وأجدى أن يقول بشجوه فان النفث راحة

والتفت الى فجأة وقال :

« هل تستطيع أن تقول لى ما هذا ؟ أهو الحب القديم ردت اليه الحياة ونشر بعد أن طوته السنون ، أم هو حب جديد مستقل عن الاول؟ أريد أن أسأل هل هذه النظرة هاجت حبا كامنا أو أنا أحب المرأة التى رأيتها اليوم كما كان يمكن أن أحب أية امرأة اخرى كانت

عسى أن تقع من قلبى ؟ اعلم ان التمييز دقيق • ولكنى هل لوكانت هذه المرأة ليست هى التى أحببتها قبل خمسة عشر عاما أكنت أحبها اليوم حين رأيتها ؟ أجبنى اذا استطعت »

فلم أستطع • ولم أر أن ادعه يمزق قلبه وحده فقلت :

« ان النتيجة واحدة يا صاحبى • وسيان فيما أرى أن يكون حبك لها جديدا أو أن يكون موصولا بقديم هواك • أنت تحبها والسلام• وخير لك أن تسأل نفسك ماذا تنوى أن تصنع ؟ »

فأطلقها ضحكة عصبية مجنونة وقال :

« ماذا أنوى أن أصنع • ؟كما صنعت !! أئد حبها مرة أخرى • أدفنه حيا • اجعل قلبى قبرا له • ماذا أصنع غير ذلك • ؟ »

ولم يكن من حقى أن أجادله فسكت • ولكنه ما لبث أن قال :

« كان أهلها جيرانى وكانت هى بنت سبع سنين أو ثمان •وأنا فى الثالثة والعشرين ، وكنت أحنو عليها •• نعم •• لا تعجب • لم أكن أداعبها كما أداعب الاطفال سواها • كلا • افهم شعورى على وجه الدقة كان احساسى حنوا عليها • عطفا اذا شئت •• بل أقوى من العطف • كنت أنطوى لها على مثل حب الأب لبنته الوحيدة • وكان قلبى يهش اذ يراها ••• تتفتح نفسى اذ تقبل على • هل تستطيع أن تتصور احساس الزهرة حين يضربها سارى الطل •؟ كان هذا شعورى حين تعدو الى وذراعاها ممدوتان لتطوقنى بهما •وكان أحب شىء الى أن أجلسها أمامى وأرجل لها شعرها وأضفره وأفرقه على جبينها ثم اشمه وأقبله وأربت لها خدها الصغير • أنا الآن أب ولى من الابناء غير واحد ولكن طفولتها هى الطفولة المحببة الى نفسى • لكأنها هى بنتى دون أبنائى • كلا • لم أنعم بطفولة أبنائى • لقد أفسدت على ذلك وحرمتنيه ، ام ترى حبى لها فيما بعد هوالذى فعل ذلك ؟ لا أدرى • ولكنى أدرى انى كنت أحس وهى معى كأن عظامى كانت جافة فسقتها وروتها • وكأن عودى صار نضيرا رابيا رفافا• وقد تضحك اذا قلت لك انى كنت أشعر وهى معى تكلمنى كأنى أنا جميل • أى والله ، لا كذب ولا مبالغة • كانت تشيع هذه الطفلة ذلك

فى نفسى ذلك الاحساس بأنى جميل وكنت بعد ان تذهب عنى تفتر حيويتى ويخيل الى انى تضاءلت ودنا بعض جسمى من بعضه · وأن خلقتى شوهت أو مسخت · وقد أرفع يدى الى وجهى وأمرها عليه لالمس دلائل الدمامة التى أصابتنى لفراقها فكنت أحن اليها · اشتاقها أصبو الى وجهها الصبيح وعينيها البريئتين وحديثها الساذج·· أصبو بقلبى وبعقلى ـ بأنفى · بفمى · بأذنى · بكل جارحة ···

« ثم افترقت بنا السبل فتناءينا وبقى الود · وبعد سنوات لاأذكر عدها اشتقت أن أرى طفلتى · فاغتنمت فرصة ومضيت اليها وتخيرت فى الطريق «لعبة» أعرف أن لها كلفا بها · فلما صرت الى الباب الفيته مواربا على العهد به · فدققته فلم يرد أحد · فهبط قلبى وقطعت الفناء الى السلم ثم وقفت وصفقت مرة ثانية ، وبعد دهر طويل سمعت صوت «قبقاب» فعدت الى التصفيق فهفا الى صوت ناعم « مين ؟ » قلت «فلان» وتنحيت عن السلم مرتدا الى الفناء · وعاد القبقاب يدب ولكن على السلم · فلما صار لابسه عند أوله نادانى ذلك الصوت الملائكى « تفضل » فاقبلت وأنا أحلم بطفلتى وأتخيلها تجرى الى مرة أخرى وتطوقنى وتعانقنى وتعضنى ، ثم تقبلنى حيث عضت ، وتتناول يدى لتنظر ماذا فيها ، وتضرب كفها فى جيوبى واحدا بعد واحد باحثة عما تعلم انى مخبئه لها · أقبلت على صاحبة الصوت الذى يدعونى ـ وهذه الصور تتعاقب على ذهنى ، وعلى فمى ابتسامة الرضى والجذل بما سوف ألقى ·· ولكن الابتسامة غاضت لما وقعت عينى على الواقفة أمامى ·· من « كانت » طفلتى قبل سنوات ·· ومن صارت فتاة حسناء تصعقنى بجمالها ··

« حيتنى ، وأهلت بى ، وتلقتنى بكلتا يديها · ولكنى كنت كالذى ضرب على أم رأسه فدارت به الارض · ومددت لها كفى فى ذهول · فهوت «اللعبة» على البلاط فتحطمت · فحنت عليها وحلت رباقها ورفعت عنها الورق الذى كانت ملففة فيه ، فلما تبينتها ندت عن شفتيها آهة لا تزال ترن فى اذنى ، ونهضت ببقاياها فى يديها ، وألقت الى نظرة شكر وعتب ·
وقالت « ألا تصعد ؟ » ···

قلت « كلا يافتاتي الصغيرة . لقد اشتقت أن أراك وقد فعلت »

فأخذت تحتج وتلح وتتوعدني أن تغضب ، وتقسم ، وتفهمني أن أهلها سيسوءهم كما يسوءها أن أذهب قبل أن يعودوا ويروني ولكني أبيت وأصررت وودعتها وهي تعجب ماذا غيرني ..؟

« ثم لم أرها الى اليوم »

وأشعل سيجارة وعاد يقول :

« عرفت أني أحببتها . لم يطل شكي في ذلك . ذهبت الطفلة وصارت ذكرى ، وانطوت صفحتها . أسفت لذلك . أسفت ؟؟ بل بكيت . أنا الذي لا تعرف عينه البكاء .. ولو سألتني لقلت انى كنت أوثر أن تخلد طفولتها ، ولم يكن يخطر لى قط أنها ستجاوز هـذه الحداثة ،فلما رآيتها فتاة ريا الحسن.. لم أصل هذه بتلك.وأحسست كأن طفلتي ماتت ، وأن هذه الواقفة أمامي غيرها ، وقد تعجب كيف يحب مثلي من نظرة واحدة لا تعقبها أخرى،نظرة واحدة كشكةالسيف تبلغ حبة القلب وتقطع نياطه وينتهي الامر فى لحظة ! الشكة تميت، والضربات المتكررة تميت . كله موت ، فلا عبرة بالسرعة ولا بالبطء وليس من يقتل بشكة سيف واحدة بأقل موتا أو أقرب الىالحياة ممن يلقى نحبه بعد أن تنوشه السيوف من كل جانب وتشبعه جزا وحزا.

« وكنت متزوجا فيجب أن أخنق هذا الحب . ولكن كيف . ؟ هذه هي المسألة .. ليست عواطف المرء كتبا مرصوفة على رفوفها فترفع منها ما تشاء وتبقى ما تشاء ، بل هى تسيل وتجرى مع دمائنا وتشيع فى كيان المرء وتستولى عليه ، الحب على الاقل يفعل هذا .

« واتفق انى كنت مساء يوم جالسا فى «صولت»وكان الوقت شتاء فاتخذت من مقعدى فى ركن منزو بعيد من التيارات ، وطالت جلستي وحدى ، فكنت لا انفك أدير عيني فى المكان .. فلاحظت أن الفتاة الجالسة الى « الكيس » فيها مشابه من فتاتي ـ قدها ولونها ومعارف وجهها وشعرها ـ فدار فى نفسى خاطر تعلقت به كالغريق ، وقلت كما قال النواسى «وداوني بالتي كانت هى الداء » فان لم تـكن هى

بعينها فليكن الأمر كما يقول مهيار « أ اذا استوحشت آنست نفسي بأن أرى نظائر تصبيني اليها واشباها »

« ومن تلك الليلة صارت جلستي في «صولت» ،فيموعد لايختلف ومكان لا يتغير ، بين السابعة والتاسعة مساء حتى في رمضان،وكنت أكتفي بالنظر اخالسه ، فلم أحاول قط أن أكلمها أو أتودد اليها . لأنه لم يكن في حسابي أكثر من أن أتخذ من نظرها عونا على السلوان .. جسرا أعبره الى الناحية الاخرى .. زورقا أقطع به اللجة التي خشيت أن تغمرني .. وقد كان .. بعد ستة شهور لم أتخلف فيها ليلة عن «صولت» استطعت أن أقف على قدمي ، وأن أهزم نفسي وأن اقسرها على التزام طريق الواجب .. ولا أنكر اني علقت فتاة «الكيس» واني صرت أحس لها نوطه في قلبي .. ولكني استهنت بهذا ولم أحفله . وما قيمة الجدول الصغير الى جانب المحيط الاعظم؟ وبعد خمسة عشر عاما ــ اليوم فقط ــ ولكنك تعرف هذا » وأمسك ...

وبعد برهة نهض وهو يقول :

« كنت يومئذ فتيا . وكانت في قوة . وأنا الآن كهل أحس اني محطم وأسيء الظن بقوتي . هل تظن اني أقدر ؟ على كل حال . لابد مما ليس منه بد . قم بنا نمشي قليلا .. »

فلما سرنا خطوات قال « ليت انا نستطيع أن ننفي هذه العاطفـة بالمشي كما ننفي الغضب مثلا . ننفضها عنا عرقا تصببه .. اذن لمشيت الى القطب الشمالي »

وضحك ...

# الجازبند

تعلم من الرقص بضع خطوات ، وكانت نصيحة معلمته له .. أن دع نفسك للموسيقى واخط على وقعها ، واذكر انك أنت الفارس — أي صاحب الرأى والتصرف — وان التى تخاصرها تماشيك وتتبعك وتمضى معك فى حيثما تدور بها ، وثق بنفسك على كل حال ، ولا تجعل بالك الى النظارة ، وأيقن أنه ما من جالس الا وهو يشتهى أن يكون مكانك ويتمنى أن تـــكون رجله هى التى تدب ، وذراعــه هى التى تلتف بصاحبتك

ولكن الثقة بالنفس يندر أن تكتسب ، وقد كان ف. هذا حساسا دقيق الشعور بنفسه ، ولم تكن تخفى عليه عيوبه ، وقد نشأ — كما نشأ جيله — فى عزلة عن النساء الا من هن من ذوى قرابته ، ولا خير فى هؤلاء ، فاستقر فى نفسه ان المرأة لا تراقص الرجل الا اذا وقع من نفسها وصبت اليه ، فالرقص عنده مظهر حب ، ولم يكن يدرك — وانى له ذلك ؟ — انه ملهاة ورياضة للنفس والجسم ، وان أكثر من يرقصون لاتكاد جسومهم تفترق وتتباعد حتى يذهل كل عن صاحبه أو صـــــاحبته ، وينساها وتنساه . وقد قالت له معلمته مرة .. « لا تلازم امرأة واحدة فان هـذا خليق أن ينأى بغيرها عنك ، واذا وسعك أن تراقص فى كل دور امرأة جديدة ، كان ذلك أفضل وأجدى عليك وأشد امتاعا لك ، ان كل امرأة ليست كـكل امرأة ، والخلق بالتنقل أن يفيدك المرانة والمرونة ، وأن يجعلك أقدر على الاجابة وعلى استثارتها فى نفس زميلتك ، وليس أكفل من هذا على كل حال ، بأن يضمن لك الاقبال عليك والرغبة فيك ، أعنى فى مراقصتك . انى امرأة فصدقنى واصدر عن مشورتى ، النساء لا يقبلن على من يجتزىء بواحدة منهن ، نعم انهن يطالبن الرجـل بالوفاء ، ولكنهن يفتنهن الحول القلب . ولست امرأة اذا كنت لا أعرف ذلك »

ولكنه لم يألف الا معلمته هذه ، ولم يكن يرتاح أو يلين الا حين يراقصها • ودارت الايام ، وفى ليلة من ليالى الشتاء الحميدة كانت ذراعها ملتفة بذراعه وهما ينزلان الى « البدروم » فى ••• واجتازا ممرا طويلا ضيقا يفضى الى قاعة الرقص ، فصافحت أسماعهما نغمات الجازباند •• بطيئة ، شاكية ، نائحة ، وبلغا الباب فحياهما اثنان على جانبيه فى ثياب السهرة ، وفتح كل منهما مصراعا ، فوقفا هنيهة يديران اللحظ فى المكان ، وكان غاصا بالراقصين والراقصات ، فهمست فى أذنه •• « فلندر بينهم » • ولكنه آثر الجلوس ، وأسلم معطفه وطربوشه لفتاة هناك ، وسار بمعلمته وراء خادم الى مقعدين• ونظر اليها فهزت رأسها فقال •• « ويسكى بالصودا »

وعاد الخادم وهو يرقص بما يحمل على صوت الموسيقى ويتخلل جموع المتخاصرين بمهارة ولباقة ، وقد رفع ذراعه بالويسكى فوق الرؤوس • وشربا كأسيهما دفعة واحدة ، وصفق فأومأ الخادم من آخر القاعة ، وجاءهما بكأسين آخرين قالت بعدهما المعلمة بلهجة المستعطف ، وقد حن جسمها للرقص •• « دورة واحدة » ورأى فى عينيها بريقا لم يعهده ، وكان الويسكى قد صعدت نوازيه الى رأسه فنهض وطوقها بذراعه وهصرها الى صدره ، ومضى بها ينساب ، ونعالهما تزحف على الرخام ، وركبهما تحتك فى رفق ، ومن ورائهما ، وقدامهما وعن يمينهما ، وشمالهما النساء مع الرجال فى ثياب شتى وألوان تتألف منها مع كل خطوة صور جديدة وكأنما جن من أفراد الفرقة العازفة، ذلك الناقر على طبلته، فقد راح يطوح بعضويه فى الهواء فيتلقفهما وينقر بهما ويهز رأسه هزا عنيفا ، والناس من فرط الزحام يهتزون فى مواضعهم ولا يكادون يتنقلون والجسوم تتمايل والانفاس تلامس الخدود والعيون تحدق فى العيون ، الشفاه تختلج وتضطرب • ثم كفت الموسيقى فجأة وتهاوت الاذرع وتناءت الاجسام قبل أن تستقر الاقدام وتثبت على الارض ، وأخذ كل سمته الى مقعده •• ولكن الاجسام بعد أن سكنت الآلات الصاخبة، فقدت لينها وسحر تثنيها، وعلت الاصوات بالهذر والضحك ، وقرعت الكؤوس ، وعبث الافواه فى الويسكى ، ودارت الرؤوس ، وانطلقت فى القاعة صرخة فتلفتت كل عين الى مصدرها ، فاذا فتاة رشيقة ، الا أنها باهتة اللون ممتقعة الوجه ،

واقفة تنظر الى امرأة ضخمة مترهلة جالسة مع رجلين ،والفتاة تصيح بها « سأمزق جلدك قبل ثيابك بأظافرى هذه »

والمرأة السمينة مرتجة الانحاء من الضحك ، سخرا واستخفافا ، وثب أحد الرجلين الى قدميه وقذف الفتـــــاة بكأسه وهى ملأى بالويسكى ، ولكن يده كانت ترتعش ، وذراعه غير مستندة فتهشمت الكأس على المرآة وهوى القاذف الارض كأنما هو الذى أصيب بها ، فحمله اثنان من الخدم وخرجا به ، وأومأ بعضهم فانطلقت الفـرقة تصرخ وتعول ، ونهض الجلوس كالمجانين ، وامتدت الاذرع ، والتفت بالظهور والخصور وصارت الاكف تصعد وتهبط على الجسوم ولا تستقر فى موضع ، وهمست المعلمة فى اذن صاحبها ..

« ادننى اليك أيها الطفل »

فحنا عليها بشفتيه يسألها .. « تحبيننى ؟ »

ولم يسمع جوابها فى ضوضاء الموسيقى الصارخة، ولغط المتراقصين وأصوات الاقدام الزاحفة ، وثقل سمعه وزاغ بصره ، وخيل اليه أن الراقصين لم يعودوا كل اثنين معا بل كل أربعة أو ستة ، وصارت المرايا تخطف عليها أضواء غريبة تمسخ الوجوه البادية فى صقالها، والناس يخطون فى زوايا حادة ، ويوشك أن يقع بعضهم فوق بعض وصاحت المعلمة بالخادم وهى فى زحمة الرقص «شمبـــانيا» وقالت لصاحبها وهى تبغى فمه .. « فلنشرب قليلا قبل أن نخرج »

وتهاديا الى مقعديهما ، وكفت الموسيقى ، فاندفعت الاكف تصفق وسمع ف. نفسه يصيح « سأجن » .

وكانت الساعة الثانية لما وقفا بالباب ينتظران «التاكسى» والنسيم المقرور يصافح خدودهما وينعشهما ويردهما الى الحياة ، وركبـا ، فقال السائق .

« الى أين ؟ »

وأحس ف. أنه أفاق فصاح بالسائق ...

« الى جهنم »

وأيدته معلمته « نعم الى جهنم »
فحك السائق رأسه ثم قال « أظنكما تعنيان ... »

وانطلق يخطف من غير أن ينتظر جوابهما
فقال ف. « أين هذا المكان ؟ ما هو ؟ »
قالت « هو مكان تسيل فيه الشمبانيا كالماء ، قبلني أيها الطفل »
ثم قالت « أتمنى أن أمزق لك قلبك »

فهتف بها .. « افعلي ! انه لك »
قالت .. « وان افرى جلدك »
فدفع اليها يديه وأمال خده
فقالت . « وان أقطعك بسكين »
فابتسم
« وأن أجلدك بالسوط »

ولم تكذب ، فأهوت بأظافرها على ظهر كفه ، ورأت الدم ، فبكت.. « أيها الطفل المسكين . مسكين » وضمدت له جراحه الصغير بمنديلها وأقبلت عليه بفمها

ووقفت السيارة ، فنزل ف. فاشتبك جيب الجاكتة بالباب فتمزق ـ انهار نحو شبر ، ورأى الفتق بعد أن صار على الافريز فتناول طرف الجاكتة بيد ، وشد القطعة بيد أخرى فنزعها والقاها على الارض ، وسار الى باب ضخم لا يضيئه نور ، فوضعت المعلمة أصبعها على زر وضغطت مرات ، فانفتح الباب على مدخل مظلم فسحبت صاحبها ، وردت الباب وراءه ، ومضت في شبه نفق الى باب آخر نقرت عليه فانفتحت فيه كوة مستديرة ثم فتح المصراعان فهمت اليهما أصوات الموسيقى وجلبة الضحك من وراء الستار، وشربا قليلا ثم نحيا الستار ودخلا قاعة كالخيمة ـ كل ألوانها أرجوانية ، سقفها وجدرانها وستائرها ، وأرضها رخام مصقول تتعاقب عليه أضواء شتى ... برتقالية وبنفسجية وخضراء ، وكانت الموسيقى مجنونة معولة ، كأن لها أظافر تمزق الصدر ، وشاكية صارخة كأنها صاعدة من قرارة الجحيم ، وعلى الوجوه فتور العربدة .

وارتمت المعلمة بين ذراعيه فخاض بها العباب واندفع بها الى لجته الطاغية • واستجاب لها وهي تتثنى له ، وغمره سحر الاضواء،وأطار صوابه عويل الالحان ، ثم تقدمت امرأة ففرقت الموج وخلصت الى وسط القاعة فانقطعت الاضواء ، وخرست الموسيقى ، ولف المكان فى شملة من الظلام وتراجعت الاقدام حتى لصقت الظهور بالستائر والجدران وارتمى ضوء أخضر على الرخام حيث وقفت المرأة ملفوفة فى مثـــل العباءة السوداء ، وعاد المزمار ينوح ، وسمعت نقرة على الطبلة ،وتغير الضوء فصار أبيض متكسرا على سواد العباءة ـ ثم توالى النقر كتهزم الرعد ، واذا بالعباءة عند قدميها ، والفتاة عارية تتثنى وتتلوى ••• فتوجع ف• وندت عن فمه آهه مكلوم،وغطى وجهه بيديه ، فأرسلتها المعلمة ضحكة مجلجلة ووقفت أمامه تحجب عن عينيه هذا المنظر •

* * *

بعد بضعة أيام لقى معلمته فسألته ••

« هل أصبت الكفاية ؟ »

قال : « فوق الكفاية »

قالت : « والآن ؟ »

فقال : « لا فائدة • ان خطاى لا تتسق الا معك ، وفى جوك ، وفى أرج أنفاسك • »

قالت : « أنذرك من الآن انى سأملك وأطـــرحك وألقيـــك عنى كالعظمة • »

قال : « لن تفعلى »

ولكنها فعلت حين رأت فتوره عنها ، وخافت أن يسبقها الى الجفوة والملال •

# الصورة الناقصة

لم أكن أعرفه أو أعرف ماذا هو . ولكنى كنت أراه كل يوم قبيل الغروب فى «مقهى» على مفترق طريقين . وكان لا يجلس الا على أحد المقاعد المصفوفة على الافريز ، فاذا لم يجد كرسيا خاليا ذهب يتمشى على الافريز أو وقف عند آخره حتى ينهض جالس ويخلو كرسى . وأكثر ما كنت أراه فى عزلة تامة ، فهو بين الناس وليس معهم . وهو حاضر كغائب ، ومشاهد للناس غير مشاهد ، وناظر يرنو بعينى نائم . وربما نهض بغتة وانطلق يعدو ثم لايلبث أن يعود مهدود الكيان مقوس الظهر مثنى الرأس كأنما زيد عمره أعواما فى لحظة .

وألفت أن أراه ، واعتدت على الايام أن أحييه بيدى دون أن اجترىء عليه بلسانى . ثم اتفق ان جاءت ليلة ١٤ يوليو .. فغصت الطرق بالخلق ، وازدحم المقهى ، ولم يجد صاحبنا مكانا للجلوس أو الوقوف على الافريز ، فدخل ، وأبصرته . ولم يكن داخل المقهى بأخلى من خارجها . فقلت هذه فرصتى ، ووقفت وأشرت اليه فأقبل على مهموما فقلت أطمئنه .

« تفضل . انه مكان ككل مكان ، ولا باس عليك منى ، فان فى وسعك أن تهملنى وتنسانى »

فقال « أستغفر الله وأشكرك »

وجعلت أفكر كيف أطلق لسانه وأحل عقدته . فلم يهدنى التفكير الى شىء . فجلسنا صامتين برهة ثم التفت الى وقال :

« لا خير الليلة .. »

وأمسك ، فسألته « فى .. »

قال « فى ·· فى هذا المكان ·· لا الليلة ولا غدا ولا بعد غـــد ·· قم معى ·· أعنى اذا سمحت · اذا لم يكن هناك ما يستوجب بقاءك · ان مسكنى قريب من هنا · على بعد دقائق أشـــكرك · تفضـــل »

وبلغنا البيت أو الجناح الذى يسكنه ـ بعد دقائق ـ وهو ثلاث غرف يتوسطها دهليز ضيق · على أحد جدرانه صورة زيتية كبيرة ناطقة ولكنها ناقصة · ولم نكد ندخـل حتى تنـــاول منفضة من الريش الناعم الوثير وراح يطير التراب عن اطارها بعنـــاية ورفق وحذر ثم قال لى

« أترى هذه الصورة ؟ انها كل السر ·· جميلة ·· فكيف لـو انها كانت تامة ·· لو كان قدر لها أن تتم ؟ »

فسألته « صورة من هى ·· ؟ اذا سمحت بهذا السؤال »

قال « لا أدرى ·· »

فعجبت وسألته « كيف اذن وقعت لك ؟ » · فقال وهـو يمضى أمامى الى حجرة الجلوس ·

« لم تقع لى ولكنى رسمتها · »

ـ « أمصور أنت ؟

قال « نعم لسوء الحظ ·· أتدخن ... .. ؟ هذا صـــندوق السجائر .. لا .. أنا لا أدخن الا حين آرق .. سأرى هل أستطيع أن أصنع لك قهوة .. كلا .. ؟ لا تعب .. الخادمه تتركنى عنـد المغرب ·· وتعدلى كل ما عسى أن أحتاج اليه ·· »

ولج بى الشوق الى قصة هذه الصورة فقاطعته وعدت اليها ··

« ولكن الصورة ؟ لماذا لم تتمها وأنت راسمها ؟ »

قال « سأصنع القهوة أولا » ونهض ··

* * *

« نعم أنا مصور · ولكنى هاو لا محترف · أعنى انى أصـــور ما يروق لى ولا أبيع ما أصنع · ولو شـــئت أن أكون محترفا ·· ولكن دع هذا »

وتناول من فنجان القهوة رشفة ثم قال :

« جاءتني صاحبة هذه الصورة صباح يوم ولم يكن عندي يومئذ خادم ، ورجت مني أن أصورها • فاعتذرت بأني هاو وأن التصوير عندي سلوى وليس بمهنة • فألحت وأخرجت لي ثلاثين جنيها رددتها اليها وكررت أسفي • فلم يثنها ذلك وقالت انها لن تبرح البيت حتى ارسمها • فحرت • وهي كما ترى — أو لعل الاصح أن أقول انها « كانت » ( وعض هذا الفعل ) كما ترى من صورتها — جميلة .. ماذا أقول ..؟ جميلة ؟ جميلة ؟ آه . لوكنت شاعرا.. ولكني لم أكنه ولن أكونه •• فما أعرف لساني أنصف عواطفي قط ، أو عبارتي نفستعني • لست أحس بعد الكلام أني ارتحت• كما أشعر بالسكينة بعد أن أفرغ من صورة منظر أو وجه • ولا أدري لماذا كان الامر كذلك • والغريب اني حين يختلج بنفسي خاطر أو معنى أحس كان لساني موثق وكأن أصابعي مخدرة فأحتاج الى تحريكها وفركها ... ما علينا ... لم يسعني الا أن أجيبها الى ما سألت • فانطلقت تتوثب وتطفر كالطفلة وشاع السرور في كيانها ، وغمر الجذل أوصالها ، ومضت تقطع الغرفة راقصة مغردة وأنا أدور بعيني معها وأتأمل انسيابها كالماء الرقراق وأكاد آكلها بلحظي •• »

وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال :

« ناولني سيجارة فاني أشعر بالحاجة اليها • ليس كالدخان في بعض الاحيان • يضم الشتات ويجمع المتفرق فيحصر الذهن أو يعين على ذلك • أين وقفت بك • آه • كنت أقول • أظنني لم أبلغ هذا

« لا بأس • كانت الساعة العاشرة حين شرعت أصورها « بالباستيل » — تعرف الباستيل — أصابع كالطباشير ملونة • أوقفتها وأخذت أصلح لها ثوبها وأحاذر أن ألمس جسمها • لا تأدبا مني • كلا • بل مخافة أن توقد اللمسة نارا لا أقوى على اخمادها• ولما هممت بالرسم وقعدت على الكرسي أمام اللوح بدا لي أن تكون الصورة زيتية • لا أدري لماذا • انه هاجس • وكأني كنت أتنبأ •

كل ما خطر لى فى تلك الساعة أن الزيت أثبت وأطول عمـرا ، ولبثت نحو ربع ساعة أحدق فيها حتى غامت عينى • ولم أعد أراها ، وصارت فيما أبصر أربعا أو خمسا ، وامتلأت الغرفة بها تعددت أشخاصها المتداخلة • فالوجه وجـوه يشف بعضها عن بعض • وكذلك قدها فى ثوبها البنفسجى الهفهاف • وخفت على نفسى فرددتها الى اليقظة بجهد ، وهززت رأسى كمن ينفض الماء عنه • وكانت تبتسم • وأخذت عينى هذه الابتسامه فى محاجرها وعلى شفتيها الرقيقتين فصحت بها أن تحـافظ عليها وأقبلت على اللوح أعالج أن أنقلها اليه وأثبتها فـوقه ... ومرت ساعة .. ساعتان •• وأنا أعمـل كالمجنون •• وهى واقفة كالتمثـال ـ لا تتحرك ، ولا تتأفف ، ولا تزايلها ابتسامة ، حتى صارت الصورة كما ترى • ثم تنبهت فأدركنى العطف عليها وأشفقت أن يؤذيها طول هذه الوقفة التى لا يصبر عليها جندى مدرب • ودعـوتها الى الجلوس فهوت الى كرسى كأن ليس فى ثوبها بدن • وأقبلت عليها بالماء أسقيها منه قطرة فقطرة حتى تنهدت ••

« ليس هذا كل شىء • دعوتها أن تتغدى معى فضحكت وقالت •

« لا أرى فى بيتك أحدا فماذا تريد أن تطعمنى ؟ »

قلت « قد أجد قليلا من البيض وشـيئا من الجبن واذا شئت خرجت الى السوق »

فقاطعتنى قائلة « انى أنا المسؤولة عن هذا القحط • فجزائى أن أرضى بقسمتى » ثم ابتسمت وقالت

« أراضى أنت بأن أزيد القحط ببقائى ؟ »

قلت « نعم ، أنسيت المثل العامى • ( بصلة الحـ ••• )
فقاطعتنى « انك طيب »

قلت « أعلم ذلك »

قالت « أمغرورون نحن أيضا ؟ »

قلت • وقد أعدتنى ببشرها « أليس لنا العذر •• ؟ »

فقالت وهي تنهض « ونحسن المجاملة فـوق ذلك ؟ •• أين المطبخ •••؟ ولكن ما سؤالى •• وبيتك كالحق »

وخرجت وأنا فى أثرها وهيأت الطعـام وناولتنيه فى أطباقه فجلسنا الى المائدة • هى إهنأ أكلة فىحياتى • أربع بيضات وقطعة جبن رومى ناشف وسردينتان تخلفتا من عشائى البارحه • هـذا كل ما أكلنا •

ثم خرجت على أن تعود فى صباح اليوم الثانى • »

★ ★ ★

ونهض وحمل الصورة الى الدهليز وعاد يقول « ان بى حاجة الى الهواء الطلق • فهل من سوء الادب أن أدعوك الى الخروج ؟ »

فقلت « كلا » ونهضت وراءه ، فلمـا صرنا الى حيث الصـورة معلقة وقف وقال •

« كانت تتقدمنى وهى خارجـة ، ووقفت هنـا ، ثم أدارت لى وجهها وقالت :

« لم أشكرك • هذا كفران لا أطيقه • فهاك فمى • قبلنى • »
لهذا علقت الصورة هنا

وخرجنا من الباب فسألته ونحن على رأس السلم •
« ولكن لماذا لم تتم الصورة ؟ »

فقال « لكأنى بك لم تفهم • لم تعد قط بعدها • تركت الصورة ولم تعد • وأنا أبحث عنها ولا أجـدها • من يدرى ؟ من يدرى ؟ اتظنها حية ؟ »

★ ★ ★

وصرنا صديقين • ولكننا لا نتكلم حـين نلتقى • وفى أى شىء وقد أفضى الى بقصة حياته ؟

# اليـدس

وضع مضيفى يده على كتفى وقال :

« شارد الفكر مرة أخرى ؟ حدثنا اين كنت ؟ »

قلت ولم ألتفت اليه « لم أبعد ـ لقد كنت فى مدينه الفكر . الا تعرفها ؟ »

فقال وهو يجلس امامى « أظن . ولكن حدثنى عنها . »
فهززت رأسى وقلت .

« ان كنت تعرفها فعن أى شىء أحدثك ؟ على أنى لا أكتمك أن لى شغفا بالتطويف فى طرقها الواسعة الساكنة ، وهى ، كما تعلم، ذات أحياء ثلاثة ـ المـاضى والحـاضر والمستقبل ـ ومالا يحسب الحاسب من الضواحى وأنا أعرف حى الماضى ... أعرفه جيدا وان كنت أحيانا أضل فيه فانه رحيب ثم انه ينمـو بسرعة . ولكنى الآن كنت أجوب ... »

والتفت فاذا صغرى بناته الى يمينى وأصـبعها على فمها وفى عينيها ابتـسامه خبيثة ، فمضيت فى كلامى وأنا أراعيها بمؤخر عينى .

« ... كنت أجوب حى الحاضر مفتونا بجمال عنقك يا فتاتى . ألا تعرفين أنى أحب الرقاب ؟ »

فضحك أبوها وقال : « ان من يسمعك يكون معذورا اذا اعتقد أنك تجمع الرقاب كما يجمع طوابع البريد هواتها »

فقلت وأنا أحدق فى عنق ابنته « انها الحقيقة . ان للاعنـاق الجميلة عندى متحفا قائما فى شارع السكاكينى . وسأفرد لعنقك حجرة خاصة . »



obeikandi.com

فأموت على خدى فعضته اللعينة وإنا أحسبها تقبلنى • ثم جذبتنى من ذراعى وقالت : « قم من هنا • ان اخواتى ينتظرنك ـ جره معى يابابا • »

ففعلا • فليس أحق باللعن من الفتاة سوى أبيها • ولما صار بى الى حيث الاسرة مجتمعة وألقيا بى بين «غيلانها» قال الاب لى «لاشكر على واجب • »

ولم يكن ثم بد من أن أقص أسطورة • فان عند مضيفى ذخيرة كافيه من المخـدرات والوسائد تنـطق الاخرس وتبعث الخيال الراقد • فتوجعت ورفعت طرفى الى السقف وشرعت أستـمد من الذاكرة تارة وأستوحى خيالى طورا وكنت أقول « ووقفت الامـيرة مع الشاب الذى أنقذها • ودنا الموكب • كان الجو راكدا كالموت ، باردا كالحجارة • وتنحى الثور والغزلان ـ هذه الى اليمين وذلك الى اليسار • وتقوم الرجل وكان مديد القـامة عارى الرأس حتى من الشعر ، وعلى بدنه ثوب أبيض محزوم الى وسطه بخرقة حمـراء • وقدماه كرأسه ـ أعنى أنهما حافيتان ـ ولم يكن فى يده شىء ولكن أرج البخور كان يسطع فى الجـو ، وتناولت الاميرة يد الشـاب واعترضا الرجل فوقف • ومال الثور فوقف الى جانب الشـاب وانثنت الغزلان فأحاطت بالاميرة • وقال الرجل « ما الحب ؟ »

فأجابه الثور « الحب هو الفهم ـ يرفع القلب ويطرد الخـوف وهو صبور عفيف وعون على البأساء »

قال الرجل « وما الغنى ؟ »

أجابت الغزلان

« لا غنى الا غنى الحب • لا يصدأ ولا يفسد ولا يسرق • ويبقى اذا ذهب المال • ويحمله المرء معه ويخلف حبه حين يترك الدنيا • »

فسأل « وما الحياة ؟ »

فقال الثور والغزلان معا « الحياة هى الحب • لا نور ولا حيـاة بغير الحب ولا شىء سوى الظلمة والملل والفتور • »

فرفع الرجل رأسه وقال « من وكيل هذا الشباب ؟ »

قال الثور « أنا »
فسأل « والفتاة ؟ »

قالت الغزلان « نحن »
فتناول يديهما وقال « كونا اذن زوجين • »

ثم استأنف السير • وعاشا فى التبات والنبات ، وخلفا صبيانا وبنات مؤدبات ، لا يضربن الضيوف بالمخدات ولا ••• »

ولم أتمها •••

ولما عاد النظام قالت صغرى اللعينات كأنما تحدث نفسها « لعلى لا أنسى أن أقول ( يدس ) فى الصباح »

فلم أفهم وخفت أن يكون وراء ذلك شر يرتقب فالتفت اليها وقلت « لا بد لك من قولها ؟ هيه ؟ ألا يحسن أن تكتبيها ؟ »

قالت « لا•لا•لا• يجب أن تقولها والا فانها لا تحسب • »
قلت « شىء جميل • ولكنى كنت أظن أن كتابتها ••• »
فقاطعتنى « انك لا تعرف شيئا • اسمع ••• »

فقلت « لست أصم فابعدى قليلا • »

ولم تعبأ بى • وأقبلت على • وكنا جميعا جلوسا على البساط ، ووقفت على ركبتيها ووضعت كفيها على كتفى وراحت تقول ، وهى تعبث بشعرى وأذنى •

« فى صباح يوم الوقفة اذا سبقتنى وقلت لى «يدس» فان على أن أقدم لك ما تطلب ، واذا سبقتك أنا فيجب عليك أن تعطينى ما أطلب »

فنظرت الى أبيها وقلت « ألا تعلم ؟ »
قال « ماذا ؟ »

قلت « ان الشرع يحرم أن ينزل المرء ضيفا على أحد ليلة الوقفة

لقد تذكرت الآن . فيجب أن أبيت فى فندق » ونهضت . فضحك وردنى الى مكانى فقلت

« هو على الاقل يحرم نهب الضيوف »

قال « ان فرصتك أعظم »

فتنهدت ودعوت الله أن تكون فرصتى كما زعم . ودنت منى اللعينة وقالت :

« لقد عرفت الآن . فاذا سبقتك غدا فانى أريد علبة ألوان للرسم »

فقلت « من عينى يا فتاتى الملعونة ، واذا أمكن أن أذكر أنا وأقولها لك قبل أن تقوليها فأرجو أن تعلمى أن لى سنوات وسنوات وأنا أشتهى أن يكون عندى ... »

وسكت حائرا .

فقالت الكبرى بعد فترة صمت رهيب . « نعم ؟ ان الانتظار مخيف »

فقلت « نجمية . ويجب أن تكون من الصنف الجيد »

فقالت الفتاة وكأنها تفكر « نجمية ؟ »

قلت « نعم على وزن نملية . تجدينها فى المخازن الكبرى »

قالت « وهى تتلفت » ولكن أى شىء هى ؟ »

قلت « هى شىء يجمع فيه ضوء النجوم ووميضها . واذا كان صاحبها ماهرا فانه يستطيع أن يجمع فيها بعض النجوم أيضا فأراها بلا معونة منكن فى الظهر الاحمر . »

* * *

استيقظت فى الصباح على صوت الخادمة تنحى الستائر ، فلما رفعت رأسى مستغربا هذا السلوك ، دنت منى وقالت « سيدى يقول لك أسعد الله صباحك ، ويدس . »

قلت « لعنة الله عليك وعلى سيدك . أبلغيه لعناتى الحارة وأنبئيه أنه يجب أن يقولها بلسانه لى . »

ونهضت فتسللت حافيا ، آملا أن أباغت أكبر عـــدد ممكن ، وكلمة يدس على لساني أحبسها بجهد وتكاد تنطلق وحدها • وكم فتحت فمي لارسلها وأنا أنعطف يمينا وشمالا أو أفتح بابا مخافة أن يكون أحد وراءه مختبئا • ومررت بالحمـام وكان بابه مغلقا ، وسمعت صوت يد تخبط في الماء فتريثت وفي عزمي أن أقولها • واذا بواحدة الى يميني تهمس في أذني « يدس » • ومن فضلك ، كيس نقود فضي »

قلت وقد هبط قلبي « ولـــكن الكيس غال • اختاري شـــيئا أرخص • »

قالت « كلا • وهذا جزاؤك على ما تحاول ضد صغيرتنا • »

وأشارت الى الحمام • وفي هذه اللحظه سمعت حركة في الحمام وصوتا خافتا ثم نقرا على الباب ثم « يدس • لقـد قلتها قبلك • وكدت أنسى • »

فقلت « حسن • سأشترى لك علبة الالوان • »

قالت من وراء الباب « ولكن بابا سيشتريها لي • فهـــات لي أنت « بنج بونج » • أربع كرات ومضربان والشبكة • ألا تعرف ؟ »

قلت « ياصغيرتي • أليس الاولى أن تطلبي سيارة صغيرة تركبينها في الحديقة ؟ ان وجودي هنا فرصة • أليس كذلك ؟ »

قالت « أوه • صحيح • لم يخطر لي هـــذا • أقول لك •• المرة الآتية • »

قلت • « المرة الآتية سأكون قد لجأت الى كهف مخبوء في جبل »

وقصدت الى غرفة الطعام فألفيتها فارغة فدخلت وهممت بالجلوس ولكني احترت فنظرت تحت المائدة فاذا اللعـين الكبير ـ أعني رب الاسرة وصاحب البيت ورأس المؤامرة ـ قاعد تحتها ينتظر • فقلناها معا « يدس » في وقت واحد • ويظهر أن صوتنا كان عاليا جدا فقد امتلأت الغرفة بسرعة، ورأيتني أتلفت في كل ناحية وأصيح ـ كغيري ـ « يدس » •



obeikandl.com

نطقناهما معا فلا سبق لأحدنا · وحسب لى يدس واحد عند زوجته وكانت قد غلبها الضحك فوضعت يدها على فمها · فلما صحت بها « يدس » ارتبكت فأقبل عليها أبناؤها يمطرونها وابلا من هـــذا « اليدس » وقيدت على خسارتان أخريان فجملة خســائرى أربع · أما صاحبى فقد انهزم على طول الخط ·

وقال لى ونحن نشرب القهوة « المكر السىء يحيق بأهله · اعترف انى دبرت هذا كله · ولكنك يجب أن تعترف أن الاولاد نسوا انى أبوهم · »

فضحكت وقلت « قم بنا نشتر لهم يدساتهم »

قال « انك مجنون · سيذهبون معنــا لينتقوا · الثقة معدومة بنا ياصاحبى · »

# فى الكازينو

« عمن تبحث ؟ »

« سيرى معى أولا اخبرك بعد ذلك »

وكانت الاضواء المنبعثة من داخل « الكازينو » خافتـــة ضئيلة ، والناس يتمشون على شاطىء البحر ـ او البـــلاج ـ وهم خليط من الرجال والنساء والاطفال ومن كل جنس وسن وفى كل زى، يتلاغطون بأصوات عالية أو خفيضة ، يتضاحكون ويتمـــــايلون ، ويتفرقون ويتجمعون ، وكل رجل يحس بعينه كل امرأة ، وكل امرأة تراعى كل رجل ؛ فالاحداق غير ثابتة ، والنظرات فى كل اتجاه ، والرؤوس الى كل ناحية ، والضحكات والحركات بعضها عن جذل ، وأكثرها للتعمية حتى لا يتيه الزميل عن زميله أو اشارته أو ابتسامته ٠

وقالت الفتاة لما بلغا آخر « البلاج » واستدارا ليرجعا الى أوله ٠

« أرى الهواء هنا يوافقك ـ صحتك أحسن »

فقال وهو يتناول ذراعها ٠

« نعم ٠ صار وزنى خمسة وأربعين كيلو٠وزنى الصافى ٠٠٠أعنى فى الحمام ٠٠٠ ومن غير الجوارب أيضا »

فضحكت وقالت وهى تشير بعينها الى حيث المرقص

« ألا نعبر الى هناك ؟ »

فقال : «واحملك ؟ لكن الزحام شديد والتيار قوى والموج عنيف» فلم تزد على أن ابتسمت فمضى وهو يقول ٠

« لا تعجبى ٠ كثيرا ما يخيل الى اننا ـ أنا وأنت ـ يمكن أن نكون بهلوانين بارعين ٠ وهل ينقصنا الا سلم وحبل وقليل من التدرب ؟

وأنا الضمين بعد ساعات بأن ارفعك بأسنانى ، ولا حاجة أن يعرف انك أخف من غلالة الورد »

فنظرت اليه بعين يومض فيها السرور والخبث أيضا وسألته ·

« لقد سرت معك ، أفلا تقول لى عمن تبحث »

وكان قد عرفها فى الليلة السابقة وهو جالس فى المكان المفرد للسينما فجاءت ومعها اثنتان أخريان وجلسن الى جانبه واتفق أن ظهرت على اللوح رسالة خطية ·

فقال « ما أردأ هذا الخط · لكأنه خطى »

فابتسمت · فسألها عن كلمة فرنسية ما معناها
فسألته · « ألا تعرف الفرنسية ؟ »

فقال « أعرف منها جملا قصيرة مثل · كيف صحتك؟ ما أسعدنى! وهناك جملة ثالثة أهتم جدا بأن أنطقها صحيحة » وسكت ·

فسألت « ما هى ؟ »
قال « ما هو اسمك ؟ »

فضحكت ولم تجب ، وبعد برهة همس فى أذنها

« هل أخطأت ؟ »
فهزت رأسها وقالت « غدا »

ولما انتهت السينما اغتنم فرصة الزحام والاضطراب فقال لها ··

« هل قلت لى أن اسمك مارى بيكفورد ؟ »

قالت « كلا · كلا » وضحكت ثم أسرت اليه انه سيقام فى الليلة التالية مهرجان فخم وانها ستحضر ، فتواعدا على اللقاء ·

فلما عثرت به كان بحثه عنها وتلفته طلبا لها ، غير أنه كتم هـذا وقال وهو يجيل عينه فـى معرض الالوان حوله ··
« أبحث عن صوت »

ولم تكن تتوقع شيئا من هذا فسألته فى دهشة .

« عن صوت ؟ »

قال « نعم » ولم يبتسم

فقالت ملحة « أى صوت ؟ صوت من ؟ »

فقال وهو لا يفتأ يتلفت

« هذا مالا علم لى به . أعرف الصوت . ولا أعرف وجه صاحبته . وهى هنا الليلة . ولعلها منى قريبة . أما اسمهـــا فلابد أن يكون الزهرة » وأقل ما أرضى به اسما لها « ملك ... »

فابتسمت وهى تقول .. « وبجناحين ؟ »

ثم رأته منصرفا عنها فتكلفت الجد وهى تقول :

« هل تظن ان حياتك رهن بالاهتداء اليها ؟ أعنى أن الامر اصعب من الاهتداء الى ابرة فى كوم من القش »

فهز كتفيه وقال .

« من يدرى ؟ »

فضغطت ذراعه وقالت .

« نعم ويمكنك أن تسقط من حسابك صـــوتها فلن تسمعه ، واسمها أيضا ــ كائنا ما كان ــ فلن تعلقه على صدرها ، فماذا يبقى لك ؟ »

فقال .. « صوتها . انه فى اذنى »

فالتفتت اليه وقالت :

« اذا لم تتكلم بعقل فانى ساتركك »

فقال بسرعة « لا . لاتفعلى . اذكرى كيف ارقصتنى بين هذا الخلق وأنا أدور فى كل ناحية باحثا عنك »

فندت عنها آهة صغيرة وأسرعت راحتها الى صدرها ، ومضى هو فيكلامه فقال ·

« ثم أذكرى أيضا الرقصـــات الكثيرة التى ستجودين بها على الليلة جزاء لى بما صبرت واحتملت قبل أن ألقاك »

فرفعت اليه وجهها الدقيق المعارف ، وقد استدار فمها كأنما يتهيأ للتقبيل ، وقالت .

« هيا بنا اذن فقد بدأت الموسيقى »

***

ولم يكن يعرف من الرقص خطوة ، ولا كان يدرى ما الفرق بين « الفوكس تروت » و « التانجو » ولكنه رأى المرقص غاصا بالرجال والنساء حتى لا موضع فيه لقدم، فضلا عن أربع ، وكان يشتاق أن يخاصرها ويضمها الى صدره ولا سبيل الى ذلك آلا اذا خطر معهـا على أرض المرقص ، فمضى بها حتى بلغا السلم ، وهناك تردد فهمس فى اذنها ·

« لا أرى لنا مكانا فلنمل الى البوفيه ريثما يخف الزحام »

فهزت رأسها وقالت :

« كلا · بل نرقص أولا · هذا الدور فقط · وبعده المرطبات »

فصعد الدرجه وراءها ودارت اليه تواجهه فاستقبلها بذراعيه ، ولامر ما لم يطوقها دفعة واحدة · فاستراحت أطراف أصابعه أولا بين كتفيها ثم صارت كفه تنحدر حتى كانت على خصرها ثم امتدت ذراعه شيئا فشيئا حتى أحاطت بها ولم يكن خطوهما رقصـــا ولكنما كان زحفا بطيئا لافن فيه ولا قواعد له ، وكل ما كان من اطاعتهما للموسيقى ومن سيرهما على ايقاعها ، بحركة الجسم ، ولم تعبأ هى بذلك شيئا فوهبته صدرها وأراحت ثدييهـــا المستديرين الراسخين على صدره ، وألانت خصرها تحت ذراعه ، وكان خدها الى فمه ، وأنفاسه تعبث بخصـــل شعرها ، وشفتاه تلامسان وجنتها

وضغطهما جمهور الراقصين والراقصات فتأوه فقالت :
« ماذا ؟ »
قال « قلبى »

قالت بلهفة ، وهوت ينحا عن كتفه . « ماذا أصابه ؟ »
فقال بابتسام « كان سليما قبل الرقص »

فقرصت اذنه عقابا له على افزاعها ، وكانا قد بلغا آخر المرقص فاتكأ على الحاجز الخشبى وقال .

« حسبى حسبى . لقد خلت رئتاى من الهواء . ان الرقص هنا كالغوص فى الماء . فاذا كان لابد من الرقص فيحسن أن نجهز انفسنا بأنابيب تمدنا بحاجتنا من الهواء النقى »

فقالت « تشجع »
فقال « ظمآن .. »
ومالا الى ركن

***

وصار المكان كخلية النحل وارتفع كل حجاز بين الناس ، واجترأ بعضهم على بعض بالكلام والمزاح ، فقد دارت الرؤوس وانتشت القلوب ، ولم يعد أحد يتحرج أن يلبس طربوشا من الورق أو يستنكف أن يحمل فى يده لعبة ، واتسعت دائرة المرقص وشملت الممرات وما بين المقاعد والموائد وكل رقعة تتسع - أو لا تتسع - لاثنين - وانعكست الآية فى كثير من الاحايين فصارت المرأة هى « الفارس » تخاصر الرجل وتدور به وهو ينقاد لهـا ويضحك . وخاض صاحبنا مع فتاته المعمعة ومضى يطوف بها مصرا عليها منفردا بها ، وكان ربما قرصه بعضهم فى ساقه ، أو دغدغته المرأة فى خصره وصعدت حميا الخمر الى رأسه فراح يصنع بالناس كما يصنعون به ، وكان الرجل ربما تخلى عن زميلته ومال الى غيرها ، وانتزعها من زميلها ومضى بها ، لا هى ساخطة ولا هـو عابىء أى امرأة هى التى بين ذراعه وصدره ، وقد يخونه الحظ فيلفى بين ذراعيه رجلا طويل اللحية ، أوأصلع الرأس ، فيضحكان وقد يتدافعان ، وهكذا بلا حرج أو احتشام

وتعب صاحبانا فمضيا الى « البلاج » يستريحان ، وارتمت الفتاة على كرسى وأغمضت عينيها وجلس هو الى جانبها يتأملهـــا ويعجب بها ثم مال عليها فلثمها فاعتدلت وسألته •

« لماذا فعلت ذلك ؟ »

فقال • « سأخبرك • بينما كنت نائمة خفقت على شـــفتيك ابتسامة • وقد اسرت الى ابتسامتك أن لها اختين شـــــقيقتين فى عينيك فأردت أن أراهما • »

فقالت : « لقد رأيتهما الآن ، أليس كذلك ؟ »

فحدق فى وجهها مليا ثم قال
« لست أراهما فلعلهما خرجتا »

فضحكت على الرغم من تشددها وتكلفها الجد ومضى فقال ••
« كلا • لم تخرجا • وقد همست شفتاك أيضا •• »

فقالت « ماذا ؟ »
قال «أخبرتانى ان لابتسامتهما أختا هى الكبرى تسكن قلبك »
قالت « صحيح ؟ »

فقال « نعم • وقد شجعنى هذا ، والا لما اجترأت • فالذنب للابتسامة بارك الله فيها • ألم أقل لك ؟ »

فسألته •• « ماذا ؟ »

فقال •• « انى أحبك ؟ »

قالت •• « لا أظن ذلك »

فقال •• « بل قلت على التحقيق • لعلك كنت نائمة »
فقالت وحملت صوتها كل ما فى وسعها من الاستنكار ••

« نائمة ؟ لقد كنت مستيقظه طول الوقت كدت أمـــوت وأنت تنحنى على لتقبلنى »

فصاح بها • « أيتها الساحرة »

ثم نهضا ، ولما آن أن يفترقا سألها ٠

« تأذنين أن أراك مرة أخرى ؟ »

قالت . « بختى سيكون جميلا فيما أتوقع »

قال : « بلا شك » بلهجة الموقن

فقالت : « انى أعنى الجو والرقص والموسيقى يالعين ٠ »

وافترقا الى لقاء ٠٠

obeikandl.com

# زوجها الواحد

كان الليل قد انتصف حين وقفت أمام البوابة ـ أفحص الأرض بعصاى وأفكر فيما أنا لا محالة ملاقيه من الجزاء ـ وليس من عادة احد ان يحاسبني ـ ولكني قد رجوت من زوجتي وضيوفي ان يؤخروا العشاء نصف ساعة ، الى التاسعة ، لاتناوله معهم • وألححت عليهم فى ذلك حتى قبلوا • وها أنذا لا أعود الا بعد نصف الليل •

وقلت •• أدخل فى سكون • وأتسلل الى مخدعى • حتى يطلع الصبح • وعسى أن يجىء النهار بالفرج • فدرت بالبيت أنظر الى نوافذه فلم أرضوءا فاطمأنت نفسى • وعمدت الى الباب الخلفى ـ أو باب الجبل كما نسميه ـ ففتحته • ونفذت منه الى الحديقة وخففت الوطء كما أوصى المعرى ، ولكن وقع الحذاء على الرمال كان له مثل صوت الغنم وهى تطحن الفول بأسنانها • وكانت نوافذ الحديقة مفتحة • وحجرة زوجتى فى هذه الناحية • وهى خفيفة النوم حتى ليوقظها مشى الهرة على السجادة ـ أو هكذا تزعم هى أو تصف خفة نومها ـ وزادنى قلقا انى سمعت ـ وأنا واقف مرهف الاذنين ـ حفيف ثوب يعدو لابسه مسرعا فى خفة •وأنا أعرف زوجتى معرفتها • فأيقنت انى وقعت • وقلت لنفسى • ان الحيلة أن أقلب الفر كرا ، والدفاع هجوما • فما يفوز بالطيبات غير الفاتك اللهج • كما يقول بشار فيما أذكر ، فليس لى الآن ذهن يعى •

وهكذا كان ، فمشيت كالجندى أدب على الارض ، ودخلت غرفة الطعام فى جرأة واضحه التكلف • وضغطت أزرار الكهرباء جميعا • وألقيت نظرة سريعة الى المائدة فتبينت انها غاصة بالاطباق واستخلصت من ذلك ان هناك استعدادا للطف والتسامح • ثم مضيت الى غرفة الزوجة وقلت بأعلى صوت ••

« نائمة ؟ وسيدك وتاج رأسك وزينة حياتك يتضور جوعا ؟ »

وكان لابد أن يوقظها هذا الصوت ، ولكنها لم تقم ، فعرفت أنها متناومة ، وظننت لجهلي اني في أمان من المخاوف . وتشجعت ومضيت الى موضع قدميها من السرير وجررتها منهما ـ برفق ـ الى الارض وهي تضحك ، وأنا أقول مغتبطا راضـيا عن حظي .. « هكذا يجب ان تكوني حين يدخل السيد ـ واقفة .. رشيقة .. »

فصاحت بي وقد غالبت ضحكها فغلبته . « كيف تجرؤ ..؟ »

فقلت . « أجرؤ ؟ ان الذي يعود مثلي في هذه الساعة بعد أن يلقى ما لقيت ويجوع كما جعت . لاجرم يكون يائسا لا تنقصـه الجرأة . »

فقالت . « أنا أعرف أكاذيبك فلا تجربها معنا الليلة »

فلم أجبها ومضيت عنها الى حجرة الاولاد وهي في اثري تزمجر تارة وتتوعد أخرى وتضحك طورا وتلعن طورا آخر . ولكني لم أحفل ذلك كله وقلت ان الشجاعة تغلب الكثرة ، ولم أزل بالاولاد أقرصهم وأدغدغ أوساطهم حتى ثاروا بي وأوسعوني عضا وضربا. ثم جرجوا يعدون خلفي وأنا أحاورهم من غرفة الى خرى ..

ولا أطيل ـ نهض كل من في البيت ، رجالا ونساء وأطفالا ، وتألبوا علي وأحاطوا بي وأشبعوني .. مزاحا .

وقال أخو زوجتي .. « هل أدلك لك ذراعك ؟ »

فصحت به أخرسه فعاد يقـول : « هذا لا يدع لنا الا العلاج النفسي ـ المداواة بالايمان والاعتقاد . فاذا قلت « واحـد » فانه يجب عليك ان تخلي رأسك من كل شيء ـ تجعله فارغا ـ وهـذا فيما أرى ليس أسهل منه عليك ـ كل ما ينبغي هو أن تعتقد ان الالم الذي تحسه ، خيالي ، ثم تغمض عينيك .. هيه . واحد . حسن . انت الان فارغ العقل ، ومتى صحت « اثنين .. »

فقلت بضعف « اذهب . اذهب ، ولا تترك عنوانك »

فقال . « يالك من عامي . اسمع . واذا بلغ الالم الجنـــون فتمرغ على الارض راتل ورد الشاذلي .. واذا ..

فاسكتته الزوجتين .. زوجته وزوجتي .
فعاد يقول . « انما عنيت .. »

فقالت زوجتي . « اسكت . نحن نعرف ماذا تعني »

فقال . « أواثقة أنت ؟ حسن . اني أكرر اني مستعد اذا كنت غير واثقة .... »

فقمت اليه وقرصته وتركته يصرخ وجلست الى المـــائدة وأنا أسأل . « هل في هذه الاطباق شيء يؤكل ؟ »

فقال اللعين . « كلا . فيها ملابس . وعلى ذكر الملابس أود أن أخبركم أن علي واجبات شتى .. أولها اني أريد أن أبتاع حمالــة لجواربي ثانيا . يجب ان آتخير جوارب للحمالة . فهل هذا واضح ؟ وأخيرا .. »

فقالت زوجتي « الا تؤجل هذا البيان الى الصباح . اني جائعة . »

فقال . « ولكنه الصباح الآن يا أختي البلهاء ! ثم ان الامر على عظم جانب .. »

فوضعت زوجته راحتها على فمه .
ولما شرعنا نأكل انقطع التيار الكهربائي فجأة ، وكان الاولاد لحسن الحظ قد أعيدوا الى مضاجعهم فقامت زوجتي تتلمس طريقها الى شمعة أو اثنتين تضيئهما حتى نرى ما يكون، فقلت لاخي زوجتي .. « ناولني الملح من فضلك فاني لا أراه »

فمد يده بشيء لم آكد ألمسه حتى أحسست شيئا لزجا فعرفت أنه المربى . فكظمت غيظي . وقالت زوجته .. « اذا كنت قد فرغت من الملح فهاته »

فناولتها المربى آسفا فصرخت ، ومضت تعنفني بما أستحق .

فلم أقل شيئا • وكانت زوجتى قد جاءت بالشموع ولكنها لم تكد تضعها حتى عاد التيار • واذا باللعين قد أتى فى الظلام على الموز وهو كل ما كان هناك من الفاكهة

ولما أشعلنا السجاير ودفعنا الكراسى الى الوراء قالت زوجتى •• « والان ماذا أخرك ؟ وعلى ذكر هذا • هل أحضرت الصور ؟ »

فقلت بفتور : « أعفنى بالله فحسبى ما لقيت »
فقال أخوها •• « نعم دعيه ينعم بالسيجارة التى لايستحقها »

فانفجرت صائحا • « هل أكون مبالغا فى الطلب اذا رجوت منك أن تغطى وجهك ؟ لم يوجه اليك الخطاب أحد • ولا أظن أحدا يريد أن يخاطبك • وأزيد على ذلك أنه ما من أحد •• »

وكففت لان أنفى أصابته قطعة جامدة من الشوكلاته سددتها زوجته فالتفت اليها وقلت : « انك ماهرة فى الرماية • تستحقين سيجارة . أو ـ لا ـ ارمنى مرة أخرى • فان سجايرى قليلة وزوجك كز لئيم »

فقالت : « قد لا أصيبك مرة أخرى وان كان الهدف لا يخطئه أعمى ثم ان الشكولاته خسارة »

فقال زوجها وهو ينهض •• « ألا أجمع قليلا من الحصى • »
وفتح النافذة فسألته • « ألا يزال الجو صحوا • »
فقال • « نعم • »

فقلت لزوجتى لاصرفها عن مسألتى • « انى أهنئك يا حبيبتى بصباح جديد مشرق كخديك أتمنى لك فيه كل سعادة » فسألت وهى تبتسم •• « أتظن الحال ستظل كذلك • »

قلت « هما كلمتان لا يلحقهما تبديل .. حبى خالد • ولو انى تركته فى مخزن احدى المحطات لوجدته حين أعود اليه أزهى وأنضر وأعذب مما كان ـ صدقينى »
فقالت • « يا أبله ! لقد كنت أسال عن الجو »
فقلت • « صدمة • ولكن هل أبالى ؟ الطمينى على خد أدر لك

الخد الثانى . كلا . لم أنس شيئا حين تزوجتك ، ولنعد الى الجو »

فقالت . «كلا . لندع الجو ولنعد اليك . هات سبب التأخير»
فقلت وأنا اتنهد . « لقد كنت معلقا فى الجو .. لبثت معلقا ساعتين هذا هو السبب »

فدار اخوها يقول . « ما أبدع هذه الصورة . معلق كالكرة الارضية بقوة الجاذبية السماوية أو بقوة طرد الارض لك . أم ترى كان حول رقبتك حبل ؟ ألم أنذرك من قبل ؟ »

فرميته بقشرة الموز فلم يعبأ وأنشأ يقول لزوجته . « انى منتظر وأنت منتظرة . فلننتظر »

فسألته بلهجة حادة . « ماذا تنتظر ؟ »
فقال « التطورات . هيه ؟ ماذا تظنين ؟ ألا ترين كأس مولاك فارغة ؟ »

فقالت . « أوه . »
قال « تماما . ولكن هل عندك شيء تصبينه هنا ؟ »

فقالت وهى تتحسس ثيابها وتضحك « لقد نسيته فى المحفظة هى على .. »

فنهض وهو يقول .. « أخدم نفسى ولى زوجة !! » ثم قال لى .. « لا شك أن صورتك معلقا فى الفضاء هى التى أذهلتها عن واجبها ولذلك اغتفر لها التقصير . أم ترى نسيتمثلها صورتك ؟ لا بأس ! صف لنا غيرها .. قل كيف كنت تبدو فى الحانة »

فقالت زوجتى . « الم أقل لكم ؟ »
فقلت « أعرف دلك »
قالت « انك لاتعرف ماذا قلت لهم »
قلت « أعرف ان ظنا لك قد أصاب . وفى هذا الكفاية »
قالت « حسن . وأين كنت معلقا ؟ »
قلت « ألم أقل لكم ؟ »
قالت « فى الهواء . ولكن كيف ؟ لماذا . لاتكن سخيفا »

قلت « يا امرأة · ستصلين نارا حامية فى الآخرة جزاء وفاقا لك على ما تتوقحين به على مولاك »

فقالت « ياسيدى وتاج رأسى هل كنت معلقا من رجليك ؟ »
قلت ·· كلا ·

قالت ·· من يديك ؟
قلت ·· كلا

قالت ·· من وسطك ؟
قلت ·· كلا
قالت ·· من عنقك ؟

فقال أخوها · « بالتأكيد ! »

فبلعت ريقى واستخرت الله وقلت · « المسألة ان المصعد فى بيت المصور كان فاسدا وضغطت زر الدور الثالث بدلا من الثانى فاذا بى فوق سطح الدور الثالث ، وهو ينقصه البناء ولا سور له ولا سلم هناك · فجعلت أضغط كل زر لينزل فلم يفعل · ولما تعبت من الصياح والتمشى على السطح توكلت على الله ونويت أن أقضى ليلتى فى المصعد · وبعد ساعتين أمكن انقاذى »

فقال أخوها · « ألم يخطر لك أن تلقى نفسك من فوق السطح ؟ »

فلم أعبأ به ومضيت أدخن وقد أحسست بالراحة بعد ان حططت العبء عن صدرى

وقالت زوجتى « ولكن ·· ألم يكن هناك شعف على الجدران فتنزل عليها ؟ »

فقلت : « هل تظنين يا امرأة انك تزوجت بهلوانا ؟ شكرا لك »

ثم ضحكت وقد تذكرت كيف دعانى العمال أن أفعل ذلك ــ أعنى أن أنزل فوق الخشب المشدودة الى الجدران ، وكيف كانوا يقسمون لى أن لا خوف على · وأنا أكاد أموت من الخوف · وأقسم لهم بدورى انى مستريح جدا ، وأن فى المصعد مقعدا وثيرا · وان

المبيت فيه لايضرني أبدا ‥ الى آخر ذلك مما يستطيع القارىء أن يتصوره

ولم يتركوني حتى قصصت عليهم ذلك كله • فلمـــا فرغت سألتني زوجتي « والصور ؟ »

فقلت يائسا « عند المصور • لما نزلت كان هو قد أغلق محله وخرج » فنهض أخوها وهو يقول : « سأنام • أعني سأحاول أن أنام • واعلموا من الآن اني ابتداء من الغد سأغير سيرتي في الحياة وأتنكب الفضيلة وأتوخى طريق الرذيلة • لاتقاطعوني • اني أعلم أن للفضيلة جزاءها الحسن أحيانا ‥ فليكن . ولكن الرذيلة أكرم وأسخى ألست معذورا ؟ ها هو ذا طعامي ما أكلت معكم • وشرابي ‥ سلوا الزوجه فانها تنساه دائما • واذا ذكرته فهل هي تذكر اني أحتاج شيئا غير النبيذ الرخيص ؟ وهذا الفاجر يقضي الليل كله حيث كان في سرور وحبور وفي خمور وأمور ‥ وأراهن انه تعشى وشرب شمبانيا • ثم يجيء بعد أن يقضي أوطاره جميعـــا ويزعجنا من نومنا ويزعم انه جائع وانه كان معلقا في الهواء • وعلى ذكر ذلك من كانت الفتاة ؟ »

فثرت به ألعنه وأمدتني الزوجتان بالعون اللازم ففر وأغلق الباب وراءه ، وجلست أدخن مغمض العينين وقد اغتبطت بهـــذا الثأر • ثم شعرت بكف غضة تمسح لي شعري ففتحت عيني عـلى زوجتي تبتسم في عيني وتقول • « الواقع اني ‥ اننا كنا قلقين عليك »

فقال أخوها ‥ محتجا من وراء الباب • « كيف تدافعين عنه ؟ »

فقالت ‥ وقد عادت تمسح لي شعري • « معـــذرة • فليس لي غير زوج واحد »

فلثمت يدها شاكرا . وهكذا زوجتي أبدا .

# توحة

لبثنا ساعة أو نحو ذلك نحاول ان نرفع عجلات السيارة من الطين الذى انغرزت فيه الىمحاورها، فلما أعيانا أن نخرجها بأيدينا تارة ، وبالالة الرافعة تارة أخرى ـ لانها كانت تغوص تحت ثقل المركبة ـ عدنا الى مقاعدنا صامتين مطرقين • وكان صاحبها يسوقها فى أول الامر ومعه الى جانبه زوجه فلما جاوزنا البلدة وغابت عن عيوننا مئذنة المسجد وصرنا الى السكة الزراعية تولت الزوجة قيادة السيارة على الرغم من اعتراضنا ، فقد كان الجو عاصفا والظلام حالكا والمصابيح ضعيفة لا تلقى ضوأها الى أبعد من أمتار ، وكان المطر قد انقطع ولكن السماء لم تزل غائمة والنجوم محتجبة • وقطعنا بعض الطريق فى سلام ، وكانت الرياح تصفر فى آذاننا وصوت انزلاق العجلات على الارض الطرية يصافح مسامعنا ، ولكن الطمأنينة عادت الينا مع الوقت فانطلقت الالسنه وانصرفت الاذهان عن تصور المخاوف والتفكير فى المحاذر ، واذا بالسيدة ترسل صرخة خافتة وتميل بالسيارة الى اليسار كأنما أرادت أن تتقى الاصطدام بشىء ، وتحاول أن ترتد الى الاستقامة ، ولكن العجلات كانت قد غاضبت فوقف المحرك وبقيت السيارة ملتوية وسط الطريق

لم نقل شيئا لما حدث ذلك بأسرع مما قصصته ، فقد فوجئنا به ، ولما تنبهنا كنا قد وقفنا وتبينا انه لم يصبنا ـ لا نحن ولا السيارة ـ سوء ، ولم نشأ أن نؤلم السيدة فلزمنا الصمت ، ولكن زوجها اغتنم الفرصة وهمس فى اذنها ان اسمحى لى ، فتزحزحت له وخطا فوقها ، منحنيا ، الى مركز القيادة ، فتنفسنا الصعداء وقلت أنا لاحول التفات الباقين عن صاحبنا وزوجته •

« ان هذه الطرق فضيحة فما فى مصر كلها طريق واحد صالح

للسيارات • وليس العجب ان تقع الحوادث بل العجب أن لا تقع فى كل ساعة »

وقال أخو الزوجة وكان رئيس نيابه • « وماذا تريد ؟ ليس فى وسـع ايه حكومة أن تتكفل بانشاء الطرق بين نواحى القطر وتمهيدها وتعهدها بالاصلاح والترميم على حسابها وحدها ، فان الذين يستخدمون هذه الطرق وينتفعون بها ويستغلونها يجب ان يؤدوا أجرا على ذلك ، وهذا ما حدث فى البلاد الاخرى ، ولكن مصر نهب للاجانب ، وليس من العدل ان تفرض ضريبة على المصريين وحدهم وأن تعفى الاجانب من مثلها • وما دام الاجانب يتوسعون فى فهم الامتيازات الى حد انهم يسمحون لانفسهم أن يعيشوا فى البلاد وأن يستغلوا كل ما فيها وأن يرفضوا مع هذا أن يؤدوا شيئا فى مقابل ذلك فماذا تنتظر ؟ بأى حق تنحى على حكومتك وحدها بالملام ؟ ان المسألة هى •• »

ولم يبين لنا ما هى المسألة فقد التفت الينا صاحب السيارة وقال لنا « انزلوا »

وصحنا كلنا فى دهشة « تنزل ! »

قال « نعم • فقد غاصت العجلات فى الوحل وهى فى حاجة الى معونتكم لرفعها ، وأرجو ان يكون ذلك ميسورا والا » فقلت مستحثا « نعم والا •• ؟ »

فقال وهو يبتسم « والا اضطررنا أن نبقى حيث نحن الى ان يرسل الله من ينقذنا • »

ولكنا لم نرفعها بل لعلنا زدناها غوصا ، فقد كنا اذا رفعناها بعد الجهد والنصب مقدار اصبع واحد نعود من فرط الاعياء فندعها تهوى فتنحط بكل ثقلها بعد تخلينا عنها ، فيزداد غوصها فى التربة الطرية ولم تبق لنا حيلة فنفضنا أيدينا يائسين ورجعنا الى مقاعدنا ونحن نلهث وأيدينا وأرجلنا موحلة ، تركنا الانوار مضاءة تنبيها لمن عسى ان يمر بنا • وقلت بعد فترة وجوم طبيعى •

« ولم لا ؟ فلنجرب حياة المتشردين • نحن على الاقل على مقاعد وثيرة • »

ولكن رئيس النيابة لم يعجبه هذا فقال بلهجة حادة ٠

« أي متشردين ؟ اننا لا نحيا حياتهم ولم نالف خشونة عيشهم فنحن أعجز منهم عن احتمال ما يحتملون بالعادة ٠ أجسامنا لم تكتسب ذلك القدر من المناعة الذى اكتسبته أجسامهم بالتعرض والتجرد ٠ وهم جهلة وخيالهم محدود فمتاعبهم هي المتاعب المادية وحدها ٠ ونحن متعلمون مصقولون مترفون ولنا خيال أوسع من خيالهم ، وهذا الخيال يضيف الى ما نكابد ، ألوانا من الشقاء والعذاب لا تجرى ببال المتشرد فهو لايعرفها ولا يحسها ٠لا ياسيدى لو كانت مكاننا طائفة من المتشردين لكان من دواعى اغتباطهم أن يجدوا مثل هذه المقاعد اللينة المريحة ولناموا ملء عيونهم ولما خطر لهم أن يضيئوا المصابيح تنبيها أو تحذيرا أو طلبا للنجدة بل لما خطر لهم أنهم معرضون لخطر وسط هذا الطريق ٠ »

فوافق الاخرون ــ لان ملاحظته فضلا عن سدادها صادرة عن « رئيس نيابة » والذى هو رئيس نيابة لا بد أن يكون أدرى وأعلم ممن ليس كذلك ٠ وأحسست أنا ان الموافقة ليس مرجعها الى الاقتناع بل الى مركز المتكلم ، ولم يكن لاحساسى هذا من علة سوى كثرة ما اهتزت الرؤوس وهو يتكلم ، فجنحت الى العناد وقلت مغالطا أو عادلا بالكلام عن جهته

« ولكنه لاخير في التذمر ٠ وليست المهارة ان نحسن الاعتذار من تذمرنا وتململنا بل أن نحسن احتمال الحالة التى نحن فيها ٠ والمسألة ليست اننا معذورون أو غير معذورين اذا تألمنا ، وانما هى ان نقضى ليلتنا كأحسن ما نستطيع وان لاندع خيالنا يجسم لنا سوء ما نحن فيه ٠

ولم يكن رئيس النيابة أقل منى عنادا ، وكان أبرع في اختيار نقطة الهجوم فقال وهو يشور بيده ٠

« لو كنا جميعا من الرجال لما جادلتك ٠ ولكن هذه أختى ٠٠ لا أظنك تريد ان تطالبها بهذا ٠٠ »

ولم يتمها ، فقد وثب زوجها فجأة ، وفتح الباب من ناحيته ،

وانتزع مصباحا صغيرا معلقا بالقرب من الزجاج المواجه للمقعد الامامي وقال « كبريت » فاندفعت أيدينا الى جيوبنا وناوله أحدنا علبة . فسألته « ماذا تريد ان تصنع ؟ »

فقال وهو يدنى المصباح من زوجته وهى تقدح عود الثقاب لتشعله له

« سأنظر هل هنا بيت أو كوخ قريب يصلح للمبيت . »

فقالت زوجته وهو يمضى عنها « والسيارة ؟ » فلم يزد على أن لوح بذراعه

***

وعاد بعد مدة كانت فيما نحس أطول مما هى فى الحقيقة ، وكان حديثنا فى خلالها متقطعا ، ولم يكن أحدنا يزيد على الكلمة أو الكلمتين وربما بدأ الواحد الكلام ثم قطعه ، فقد فتر الانتظار الرغبة فى الحديث وأغرانا بالنظر والتطلع ، على أمل كان يكبر كلما خيل الينا اننا سمح شبحا ، ثم لايلبث ان يهزل وينتسخ حين نعلم اننا واهمون ، وما أكثر ما كنا ننسى ان مع صاحبنا مصباحا مضيئا وأن هذا المصباح رمزه الذى لا يكذب، وعنوانه الذى لايضل ولكنا كنا ننتظر على قلق فلا بدع اذا كان ما يجريه الوهم والامل والقلق فى أول الخاطر غير مطرد فى سياق من الانتظام مع حقائق الموقف .

ولم ندع شيئا محتملا أو غير محتمل الا تصورناه : فهو ـ فيما كنا نتخيل ـ يعود مرة مخفقا والمصباح فى يده مطفأ ، وتارة ينادينا ويدعونا أن نهرع اليه فقد وجد بيتا حسنا ، وطورا يكبر فى وهمنا انه راجع الينا فى جماعة من الفلاحين أقوياء السواعد ينقلون السيارة الى الارض الجامدة فنشكرهم ونستأنف السير ، وتارة أخرى يقوم فى وهمنا انه لعله اصابه مكروه من انسان أو وحش ـ وان كان لا وحش هناك الا أن يكون انسانا ـ مرة نتصوره قد اخذ منه الكلال واضناه خوض الوحول فكف عن البحث وارتد الينا وهو ينتفض من البرد ويرعش من الحمى .. وهكذا

فلما عاد كان أعجب ما حدث اننا سمعنا صوته قبل ان نرى

مصباحه المضيء وان كان منا قريبا ، فأسرعنا الى الابواب نفتحها وننزل حتى لنسينا أن نأخذ بيد زوجته من فرط العجلة ودهشة السرور بأوبته وبدعوته المبشرة بالخير ، وأمطرناه وابلا من الاسئلة من غير أن ننتظر جوابا ، فلم يزد على أن قال ٠

« لا أدرى ٠٠ ولكن قرويا دلنى على بيت قال انه الوحيد فى هذه المنطقة « بيت توحه » »

فقال رئيس النيابه « توحه ؟ »
قال « نعم هل تعرفه ؟ »

قال « لا ٠ ولكن الاسم مع ذلك عجيب ٠ أين هذا البيت ؟ أهو بعيد من هنا ؟ »
قال « ربع ساعة اذا سرنا على مهل ٠ تعالوا ٠ »
وصرنا الى الباب ، فوقفنا عنده ندقه وننادى فرادى ومعا «توحه٠ توحاه ٠٠ ياتووحاه ٠٠ »
فلم يجبنا أحد . وطال دقنا للباب ونداؤنا توحه هذا ، حتى مللنا ، ونفد صبر أحدنا فأهوى على الباب يضربه برجله مرة ، ويدفعه بكتفه مرة أخرى ، حتى انخلع فاندفع داخلا ، ولكن رئيس النيابة وقف مترددا يراجع نفسه ويراجعنا ويحاول ان يصدنا عن اقتحام البيت لكنا سخرنا منه ومن هذه « الحرفية » القضائية

وكانت الغرفة التى دخلناها عجيبة ٠ ذلك ان أرضها مفروشة بحصير على مداره مما يلى جدارين حشيتان رقيقتان طويلتان ، وفى احد الاركان غرارة كبيرة الى جانب صندوق ساذج ، وكرسى واطىء عليه قلتان كفىء على احداهما كوز ، وعلى أحد الجدران مصباح صغير جلس مواجها له على كرسى له متكئان رجل وحف الشعر متهضم الوجه ثابت الحملاق ٠ فتقدم اليه الذى كسر الباب وقال « هل انت توحه ؟ »

ولكنه لم يتحرك ولم يتكلم ولم يحول عينه الى مخاطبه فهمست فى أذن جارى
« لعله أصم ٠ »

فدنا منه هذا وصاح بأعلى صوته « ياتوحه . هل أنت توحه ؟ »

فلم يحفلنا ولم يولنا أقل عناية ، فضاق صدر مخاطبه وأقبل عليه يهز كتفيه ، فما راعنا الا انه غاص فى كرسيه حتى لخيل الينا انه تقوض أو دخل بعضه فى بعض ، فقال رئيس النيابة

« كفوا ! ان الرجل مشلول بلا شك . »

وتناوله من تحت ابطه ورفعه وسواه على مقعده كما كان . وفى هذه اللحظه سمعنا صوتا عذبا من ناحية الباب يقول « أنا توحه ؟

فالتفتنا مذعورين ، فأخذت عيوننا على ضوء المصباح الخافت امرأة سمراء مستديرة المحيا دقيقة المعارف رقيقة النظـــرة ، فى ابتسامتها المرتسمة على فمها الجميل معان من السرور والسخر والالم والجلد ، فاعتذرنا وقصصنا حكايتنا ، وكانت تستمع الينا وهى واقفة فى مدخل الباب وذراعاها على الجدارين ، فلما فرغنـــا دعتنا الى الجلوس وقالت « ألا آتيكم بطعام ؟ لا تقولوا « لا » ولكن قولوا « نعم » وتعالوا ساعدونى على تهيئته »

فأعدانا بشرها ، وشرحت صدورنا سماحة نفسها ، فقمنا معها الى غرفة ـ ان صحت تسميتها كذلك ـ غير مسقوفة لها باب محاذ لباب الغرفة الاخرى وفيها سلم ينتهى الى السطح ، وسألتنا وهى ترشدنا الى ما تصنع .

« كيف لم تروا الباب الآخر ؟ لو طرقتموه لما احتجتم الى كسر ذاك . فانه لا يوصد أبدا . »

وفى هذه اللحظه شعرنا بشىء يحك جسمه بالباب فالتفتنا منه اليها فقالت .

« هذا خفيرى   أتحبون أن تروه ؟ »

وفتحت الباب فدخل كلب ضخم لم يكد يرانا حتى بدأ يزوم وينظر اليها فوضعت كفها على رأسه ملاحظة له وقالت « لاتخافوا فانه لا يؤذى ضيوفى . »

ثم أولته ظهرها وقالت وهى تبتسم :

« من حسن حظكم انه كان معي حين جئتم ! فاشـــكروا لى غيبتى . »

ولم يكن في حركاتها ولا في كلامها شيء ريفي فقد كان لهـــا ظرف الحضرية ورقتها وكياستها فى الحديث ، فادهشنا ذلك ولم يسع رئيس النيابة الا ان يسالها .

لقد ظننا تومة هذا أسم رجل وحييناه فى أول الأمر هـــذا الجالس هناك فهل هو بوك ؟ »
فقالت موجزة « كلا . »

قال « أخوك اذن ؟ »
« كلا . »
« زوجك ؟ »
« لا » ( ممطوطة )

فاقتصر وكف عن مسائلتها ، وقد شعر بالحرج ، وقالت هى وهى تحمل الطعام الى الغرفة التى كنا فيها .
« هذا حمد »
فزادت الامر غموضا بهذا البيان

وصنعت لنا قهوة بعد الطعام وجلست الى جانب حمد ــ على الارض ــ وتناولت يده فى كفها وجعلت تمسحها وهى تقول :

« لقد كنت في الاسكندرية قبل ذلك ــ قبل ان اجيء الى هنا وجمعت قدرا من المال لا بأس به . أكثره حلى . وكان حمد يعرفنى يعرفنى فقط . وكان له مال غير كثير أنفق معظمه على . وفى احدى الليالى جاء الى بيتى وانحط على كرسى ولم يقم بعدها أبدا . »

وردت رأسها الى الوراء حتى حجب الكرسى وجهها عن عيوننا ومضت تقول

« قال لى الاطباء الذين فحصوه انه سيظل هكذا أبدا . سيبقى كالطفل الرضيع الذى لايستغنى عن عناية الام . وقالوا ان هذا راجع الى اسرافه فى حياته . ولم يكن لى طفل فاشتقت أن أتخذه

طفلي وأن اتعهده بعنايتي وأن أبذل له أمومتي · أليس قد أنفق على ماله ليصير طفلي ؟؟ وكرهت بعد ذلك مقامي في الاسكندرية وحياتي فيها · لقد انتهى ذلك لما وجدت طفلي · بعت حليي واشتريت قطعة أرض صغيرة هنا هي حسبنا بل هي فوق الكفاية وابتنيت هذا الكوخ ، وما حاجتي الى اكبر منه ؟ ليس معي غير حمد · وهو كما ترون تكفيه رقعة الكرسي · وقد كان المقام في أول الامر عسيرا وكانت الوحدة مضنية ، ولكني وطنت نفسي عليها ورضتها على السكون الى العزلة مع حمد ·· ثم وجدت هذا الرفيق ·· وجدته ضالا فأخذته وربيته فهو الان رفيقي وأنيسي لا يتركني قط · هو خفيري أينما ذهبت ، يخرج معي ويؤوب معي · وهو راض عني وقانع بي لا يسألني عن شيء ، ولا يتقيني ، كما كان يتقيني أهل هذه الناحية على انهم أدركوا انهم لا حاجة بهم الى تكلف اتقائي فاني بعيدة عنهم · وهم الان يبذلون لي معونتهم اذا طلبتها · نعم ؟ »

ثم نهضت وهي تقول « ألا تنامون ؟ ليس عندي غير هـــذه الغرفة · فمعذرة · » ،

وخرجت وغابت مدة تقرب من نصف ساعة · وكنا في أول الامر صامتين توقعا لعودتها بسرعة ، فلما طال غيابها نظر بعضنا الى بعض وأقبلنا نتكلم ، الا الزوجة فقد كان وجهها ناطقا بمقت توحة وأحتقارها ·

ورجعت توحه فألقت الينا بطانية من الصوف ولحافا وقالت :

« هذا للسيدة وتلك لكم جميعا · ومعذرة مرة أخرى · »

وجاءت بوسادة صغيرة وضعتها تحت قدمي « حمد » ووضعت رأسها عليها الى جانب قدميه ونامت ·

لما أصبحنا لم نجد توحه ولم نعثر على أثر لها في البيت ولا في الحقول المجاورة · وكانت الشمس قد ارتفعت فتقدمنا واحدا بعد واحد الى « حمد » نصافحه ونودعه ونعد له في كرسيه بعد كل مصافحة ·

وكررنا الى حيث السيارة فألفيناها قد نقلت الى الحافة اليمنى

على أرض يابسة فلم يخامرنا شك فى أن هذا بعض فضل توحه ، فانطلقنا بها فى جو مشمس رائق حتى بلغنا الاسكندرية ، وكانت غايتنا • ولم نكد ندخل الفندق ، وندع السيدة فى غرفتها لتصلح من شأنها وتستريح ، حتى دعانا أخوها رئيس النيابة الى « البار » قال لما وقفنا صفا الى جانبه

« هذا نخب توحه • بارك الله فيها • »

من يدرى ؟ ربما • !



obeikandl.com

# ماء ...

« الا أقولها لك ؟ لقد اخطأنا حين تزوجنا ، ولم تبق فائدة من المغالطة »

وانحنى ليتناول ثيابه الداخلية ، ولم يسمع جوابا فلفت اليها وجهه وسألها :

« أليس هذا رأيك أيضا ؟ »
فبلعت ريقها وقالت « نعم »

وكان قد جثا على ركبتيه ومد ذراعه تحت الكنبة ليخرج القبقاب، ثم قعد وقال :

« ولست أرى علاجا فيحسن اذن أن ... ألا نفترق »

فهزت رأسها موافقة ، ومضى هو فى كلامه فقال :

« بلا ضوضاء .. واذا كنا لم نستطع أن نعيش زوجين فان من الممكن ان نظل صديقين .. أليس كذلك ؟ »

فلم تزد على ان قالت « طبعا »
ومضى هو الى الحمام

وكان هذا ختام الخلاف الذى احتملاه بضعة شهور ولم يدعا أحدا من أهلهما أو معارفهما يشعر به ، ولو أن هؤلاء الاقارب والاصدقاء سئلوا عن أسعد زوجين لما ترددوا فى الجزم بأنهما « فريدة وصابر » وكانت فريدة فى الثالثة والعشرين من عمرها — بارعة الشكل ، شعرها تاج ، ونظرتها سحر ، وصوتها تغريد ؛ وكان الذكور من أقاربها يسمونها « فله » اعجابا بها وتدليلا لها ، أما صابر فكان أكبر منها بثماني سنوات ولكنه كان يبدو أصغر

من سنه ، وكان أنيس المحضر حسن البزة خفيف الظل على الرجال محببا الى النساء ، يعدى الجليس ببشره وضحكه ، وكان كلاهما فيه فكاهة ونزوع الى المرح ، وقد عاشا سنتين أو نحو ذلك متحابين متفقين ثم دب بينهما الخلاف وظل يستشرى ويتفاقم حتى وقعت النبوة وانفجرت الحال ولم يعد لاحدهما طاقة على الاحتمال ، ومن العجيب أن الصفات والمزايا التى كانت حقيقة أن تنقذ الموقف هى بعينها التى وسعت الهوة وأفسدت الامر

وكان هو يؤثر أن يكون طعامه ونظام بيته على الاسلوب الغربى، وهى على نقيضه تكره الغرب وان كان كرهها له لا يمنعها أن تنسج على منواله فيما يوافق مزاجها ، فجاءها يوما بافرنجية شوهاء قال انها « كنز » وحملها اعباء البيت ، فلم تستأنس بها « فريدة » ولم ترتح الى وجهها العابس ، ولم تستطع أن تروض نفسها على السكون الى تصرفها ، فلم تمض بضعة أيام حتى بدأت تشكو الى زوجها كزازة « ألين » وبخلها وتقتيرها وانها جعلت نظام البيت أشبه بنظام المدرسة أو المعسكر ، فلا راحة ولاتمط ولا كسل ، ولاشعور بأن للانسان أن يتمتع بما هو فيه من نعمة ، فما جاء ضيف الا أثار وجوده مشكلا . فالين تقول ان هذا الضيف غير داخل فى حسابها، وفريدة تقول ان الين تفضحها بهذا التقتير ، وانها لا تستطيع أن تفهم كيف لا يكون فى البيت – فى أى وقت – من الطعام الا ما يكفى المقيمين فيه على الدوام ، هذا الى أن فريدة تكاد تموت جوعا لانها لا تستمرىء الطعام الذى تهيئه « الين » فالخضر كلها تصنع توابل ولا تطبخ والملوخية لا سبيل اليها ولا أمل فيها، وألوان الطعام الاخرى ناشفة ، وقصارى القول انها لم تعد تعرف بيتها وانها تحس بوحشة وحيرة وانها تؤثر أن تعيش مصرية كما كانت .

وقال لها « صابر » مرة بعد أن سمع شكاتها

« ولكن المصرية ليس معناها الفوضى وسوء النظام »

فحز فى نفسها هذا التعريض ولكنها سكتت فقال :

« لقد استرحنا على الاقل من البعثرة وصار كل واحد يستطيع أن يعرف أين هو – وأن يهتدى الى ما يريد بسهولة »

فقالت بلا تفكير « فى وسع كل منـــا أن يستيقظ نصف ساعة قبل موعده اذا كان ينقصنا النظام أو الترتيب »

فقال صابر متهكما « من سوء الحظ أن أهلى أهمـلوا تربيتى ، فلم أتعلم كيف أرتب الثياب أو أكويها أو أرقعها او ارفو الجوارب. ثم ان هذا واجبك أنت اذا كان واجب أحد منا ، ثم انى أخـــيرا سئمت هذه الحالة »

« فقالت فريدة « اتفاق عجيب ـ وكذلك أنا »

ولم يمنعها كونهـــا متعلمة أن تتغلب عليها الطبيعة النســوية فأضافت الى ذلك

« ان نومك عميق ـ لا أرق فيه ـ لقد لاحظتك »

فقال وقد نجهم « معنى هذا انك تبيتين مســـــهدة ؟ الحكاية القديمة !! معذرة يا شهيدة الوفاء ـ واذا كان نومى العميق يؤرق جفنيك فأرجو أن تأمرى بنقل سريرى الى غرفة أخـرى ، واذا كان يعز عليك أن تتعبى الخدم من أجلى فانى مســـتعد أن أستأجر من ينقـــله »

على أنه حسما للنزاع استغنى عن الـــين ، ورأى مبالغة منه فى تأليفها واسترضائها أن يبتاع لها قطعا من الحرير لتصنع منهـــا « فساتين » وقال وهو يرمى بها فى حجرها

« لا تعربى عن آيات الشكر فانى واثق أن صدرك يفيض بها» فدهشه أنها نظرت الى الحرير ثم اليه وقالت :

« لا أدرى لماذا تزوجتك »

فساءه منها هذا ، ولكنه آثر أن يحمله علىمحمل الفكاهة فضبط نفسه وقال يمازحها .

« جمال روحى . خفة دمى . هو ذاك . لقد بهركن جميعا »

فلم تبتسم وقالت « بل تزوجتك اشفاقا عليك ورحمة بك » فآلمته الوخزة ولكنه تجلد وقال :

« طبعا · طبعا · لذلك لم أكد أتقــــدم خاطبا حتى بادرتم الى القبــول »

فقالت وقد خرج صوتها عن الاتزان قليلا :
« هل تظن انك كنت فرصتى الوحيدة ؟ »

فسره انه استطاع أن يهيجها وقال :
« لا أدرى · ولكن اذا لم تكن الوحيدة فلا شك انكم عددتموها كذلك ـ أعنى خير فرصة »

فقالت وقد جف ريقها « لقد أخطأنا اذن ـ وما من خطأ الا وهو قابل للاصلاح »

فنفخ وهو يقول « اشفاق ؟ خطأ ؟ وماذا أيضا ؟ »
فصاحت به « أتراك تزوجت امرأة أم اشتريت دبة ؟ »

فقال « معذرة ولكنى لا أفهم »
فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

« هذا هو الذى يريد أن ينظم بيته على الطريقة الغربية ـ ومع ذلك لا يعنى بأن يشاور زوجته فيما يشتريه لها ـ اذا كنت تكره أن أرافقك فهل كان يعجزك أن تجيئنى بقصاصات من الاقمشة ؟ »

فأثاره هذا الذى لم يخطر له فى بال ، وأسخطه شــــعوره بأنه مخطىء ، وانها محقة فقال :

« دعى هذا الاعتراض وقولى أولا ـ هل تنكرين أن عنايتى بأن أشترى لك هذه القطع عمل مشكور فى ذاته ؟ »
فألقت اليه بالقطع وقالت :

« اذا كانت قد أعجبتك فخذها لك »
فلم يسعه الا أن يضحك وقال :

« لا تصلح لى مع الاسف · ومع ذلك ··· »
فصاحت به « لا أريدها ·· أفهمت ؟ لن أضــعها على جسمى ـ انى أمقتها ··· »

فطواها فى ورقتها وقال بلهجة الكمد :

« حسن .. قد يسمح الرجل بردها فلا داعى للكلام.. انتهينا»

***

وقال « صابر » مساء ذلك اليوم الذى انتهيا فيه الى وجوب الفراق « لقد دعوت أخاك . معذرة اذا كنت لم أستشرك . ولكنك تتفقين فيما أعتقد على الاستعانة به »

فقالت « أخى عاقل وكتوم . وقد أحسنت . وليس هناك غيره. ولكن علينا نحن أن نتفق قبل مجيئه »

فقال « لا شك . على أننا اتفقنا على الفراق بلا ضوضاء . أليس كذلك ؟ »

قالت « نعم . فلا داعى لاى ضجة . ولذلك اقترح أن أدع أثاث البيت كما هو — الى حين — وأنتقل أنا الى بيت أخى »

فقال صابر — « كلا يا عزيزتى . بل تبقين فى البيت حتى لا يلاحظ أحد شيئا — وأنتقل أنا الى الفندق أو ما يشبهه . فان الذى أعنيه هو مجرد الفراق لا الطلاق . وأرجو أن تسمحى لى بزيارة من حين الى حين ... مرة فى الاسبوع أو الاسبوعين أو كل بضعة أيام .. اذا شئت .. سترا للمظاهر ... ألسنا متفقين على أن نظل صديقين — أشكرك — مرة فى كل أسبوع أو اثنين تدعينني الى الغداء أو الى العشاء .. العشاء أفضل عندى لنقضى السهرة معا .. الحديث .. ما ألذ هذا .. كمايفعل الاصدقاء ... سيكون سلوكنا بدعة ظريفة ... وطريفة أيضا ... وسيقول كل من يطلع على الحقيقة ما أعقلهما .. ومن يدرى ... »

وأقصر ..

وجاء أخوها « فوزى » وكان كما وصفته حكيما كتوما مجربا — فلما سمع قصتهما سألهما

« أمصران أنتما على هذا الفراق الغريب ؟ »

فقالت فريدة « نعم . كل الاصرار . لقد تبينا خطأنا منذ عدة

شهور ولم تعد هناك جدوى من التكلف »

فسألهما « هل فكرتما فى مقتضيات هذا الفراق ؟ »

فأجاباه بسؤال « ماذا تعنى ؟ »

قال أعنى أن هذا الفراق طلاق غير رسمى • لا ينقصه الا الورقة والشهود • فاذا كنتما جادين وكارهين فى الوقت نفسه لفكرة الطلاق أملا فى امكان عود الائتلاف ( أصوات • كلا • أبدا • مستحيل • ) لا بأس • صبرا • أقول اذا كنتما جادين فيجب أن يفهم كل منكما أن لا سلطان لاحد على الآخر ولا شأن له به أى أن كلا منكما يسترد حريته ـ أعنى الحرية فى دائرتها المعقوله •• الحرية التى لا تجر مشاكل ولا تورث المتاعب والآلام »

فوافقاه وقال صابر « اذا كنت أخاها فانك ابن عمى أيضا »

فقال فوزى « طبعا • وثق أنى طوع أمرك فى كل وقت • اذا نشأ أى مشكل فلا تترددا فى دعوتى أو الحضور الى »

* * *

وجرت الامور بضعة أسابيع على ما اتفقا عليه •• هى مقيمة فى البيت كما كانت وكان صابرا لم يبرحه وهو يزورها مرة كل بضعة أيام ومن حين الى حين اجابة لدعوتها ويتناول العشاء معها على مائدتها ويبقى الى ساعة متأخرة ثم ينصرف • وكثيرا ما التقيا فى بيوت أقربائهما فى أيام الاسبوع الاخرى حتى جرى فى ظن هؤلاء الاقرباء أن هذه المقابلات ليست عفوا •••

وكان سلوكهما فى هذه المقابلات مبعث دهشة شديدة لاقاربهما • فقد كان سلوكا حافلا بالود والمجاملة واشيا بالشوق فى غير لهفه • ولم يشيرا قط فى هذه المجتمعات ، لا باللفظ الصريح ولا بالاشارة ، الى موقفهما و ما كان بينهما •• فلم يسع أهلهما الا أن يجاورهما فيما كانوا يصفونه فيما بينهم « بالسلوك الشاذ المضحك » وبخاصة لان فوزى حتم عليهم التزام الصمت واجتناب كل تعرض لهما • وكان له من النفوذ والكلمة المسموعة ما يستطيع به أن يفرض ارادته على الاسرة كلها

واتفق أن صابرا كان يتعشى ليلة مع فريدة فلما جاءت الفاكهة قال وهو يقشر الموز

« الحق يا عزيزتي ان هذا الفراق – على أسلوبنا – أمتع من الزواج ولو أمكن أن تجرى الحياة الزوجية على هذا النحو لكانت أبقى »

فقالت فريدة وعينها الى الطبق « كلا . لا أظن ذلك ... »

فابتسم صابر وقال مقاطعا

« هل أفهم أنك مللت ... »

فقاطعته بدورها قائلة « كلا . لا تفهم شيئا من هذا . انما أعنى أن المرأة تتزوج – أو دعنى أقول انى أنا تزوجت لانى اشتهيت ذلك – كما أشتهى أن ألبس فستانا معينا حتى اذا قضيت مأربى منه .. اذا شبعت .. رميته .. خلعته على خديجة الخادمة .. فلا سبيل الى استرداده بعد ذلك .. ولا يمكن أن أشتهيه مرة أخرى .. »

فامتقع لونه وقال وهو مطرق واصابع يده على حافه الطبق

« كالثوب تلبستينه ثم تخلعينه ... قد يكون هذا رأى المرأة فى الزواج ... أما رأى الرجل ... رأيى أنا ... أو على الاصح دافعى أنا الى الزواج فهو أني ... معذرة اذا أسأت التعبير ... سمعت ثغاءك (١) ... ناداني جمالك ... دعاني اليه فأسرعت ملبيا ... سمعت الثغاء فعدوت ... »

ثم رفع رأسه وقال بصوت متهدج « أرجو يا فريدة ... أرجو .. اذا .. اذا اشتقت الى ثوب جديد .. فستان طريف .. ان .. ا .. ان تدعينى أعلم .. أعنى أنه يكفى .. صعب جدا .. أن تصارحينى .. ولكن يكفى .. ألا تدعينى الى العشاء .. فأفهم .. فما أريد أن تظلى مقيدة بى مشدودة الى اذا نازعتك نفسك أن

(١) الثغاء : صوت الغنم حين تقول ( ماء . ماء . )

تقطعى الحبل لتصليه من ناحية أخرى .. بغيرى .. و .. اظنك تعذرينني . أليس كذلك .. »
فبذلت له الوعد الذى طلبه

★ ★ ★

ومرت بضعة أسابيع أخرى على هذه المحاورة نسياها فى خلالها وقلت مقابلاتهما فى بيوت أقاربهما لان صابرا كان يضطر الى السفر الى ضيعته لمباشرة شؤونه . فى احدى الاسابيع بعثت فريدة الى صابر تعتذر اليه من عدم استطاعتها دعوته « غدا » ـ كعادتها ـ لاضطرارها الى شهود عقد زواج احدى صواحبها ـ وكانت صادقة ـ ولو أنها لم تفاجأ بالدعوة الى حضور عقد صاحبتها لاستطاعت أن تقدم موعد العشاء مع صابر ـ ليلة ـ فلما أرسلت اعتذارها تذكرت تلك المحاورة فأخذت تعنف نفسها وتتهمها بالغباء والتسرع وتقول لو تذكرت لدعوته الى العشاء بعد غد ـ فالآن سيتوهم بفضل حماقتى انى أريد الطلاق ...

وجرت الى أخيها .. قصدت اليه فى مكتبه ـ وكان مهندسا مقاولا واسع الاعمال . ولم تطق أن تنتظره حتى تلقاه فى بيته . ولم تكد تدخل عليه حتى ابتدرته بقولها

« لقد هدمت البيت على رأسى ... فماذا أصنع ... عجل ... بسرعة »

فقال وهو يتناول سماعة التليفون ليرد على طلب « مهلا .. دقيقة واحدة .. نعم ينتظر فى غرفتك .. سأحضر اليه حالا »
والتفت اليها وقال ببرود

« والآن ماذا تريدين ؟ . قولى وأوجزى فان وقتى هنا ضيق . والا فانتظرى حتى ينتهى عملى فآمر بك أو تسبقينى انت الى البيت. »
فصاحت به « كلا . كلا . ان المسألة لا تحتمل اضاعة دقيقة . »
فقال بهدوء « اذن اشرحيها باختصار وبصوت خافت . »
فحكت له ما حدث . فهز رأسه وقال :
« لا أرى لى حيلة . »
فنهضت ودنت منه وقالت وهى تجذبه .

« كيف تعدم حيلة ؟ أرجو . أتوسل . لقد لبثت هذه المـــدة اتلهف على عودته . وها أنذا أقصـــيه عني الى الابـــد بحماقتي . فاصنع معروفا . فوزى . لا تخذلني . »

فكتم الضحك وقال وهو ينهض « انتظرى هنا برهه حتى آعود . »

وكان الذى فى الغرفة الاخرى صابرا . جاء يعرض على ابن عمه الامـــر .

فقال فوزى وهو يفرك جبينه « لا أدرى . ولكن ربما تفاهمتا اذا خاطبتها بالتليفون . »

فسأله صابر « وماذا أقول لها ؟ »

فقال فوزى «هذا شأنك . قل مايخطر على بالك . انتظر هنا .»

وعاد الى فريدة فقال « لقد خطرت لى فكرة . اطلبيه بالتليفون حادثيه .. فقد يثمر هذا خيرا . »

وأمرها بالانتـــظار وتركها وخاطب عامل التليفون بمكتبه من غرفة ثالثة وقال له « اطلب كلا من الاثنين فى غرفته وصلهما »

فقالت فريدة « هاللو .. صابر ؟ »

ــ نعم . أنا هو . فريدة ؟

ــ نعم . هل أنت هنا .

ــ أظن ذلك .

ــ كيف صحتك .

ــ لا بأس

ــ ما لصوتك . هل أصابك برد ؟

ــ لا . ربما . لا أدرى

« وبعد هنيهة قصيرة »

ــ هاللو . لقد ظننت الخط قطع .

ــ لا . أردت أن أخبرك أنى طلبتك بالتليفون .

ــ متى يا عزيزتى .

ــ الآن .

ــ الآن ؟ لم تجدينى بالطبع .

ــ كيف لم أجدك ؟

ـ لانى لست فى البيت ٠

ـ وكيف صحتك ؟ لقد سألت عن هذا من قبل، ٠ أريد ٠٠٠٠

ـ اسمعى ٠ لقد طلبتك انا أيضا ٠

ـ طلبتنى ؟ ٠ متى ٠٠

ـ الآن ٠

ـ كيف يمكن ؟

ـ اصغى الى يا فريدة ٠ فقد تلقيت عذرك ٠

ـ لم اكن اعنى بالطبع شيئا من هذا ٠

ـ ألا تحضرين زواج صاحبتك ؟

ـ كلا كلا ٠

ـ اذن لا تريدين أن تغيرى الفستان ؟

فأدنت فريدة فمها من بوق التليفون وصاحت بكل ما فيها من قـــوة

« هاء ... هاء ... »

فرمى صابر السماعة وانطلق يعدو

لقد دعته اليها ٠

# الوردة البريئة

لم تكن هى تعنى ذلك ، ولا كانت تجرؤ عليه لو أن خواطرها كانت تجرى فى هذه الناحية ، ولكنه عبث الاطفال القى بها فى هذا الموقف الذى لا يدلها فيه . وللفتى العذر اذا ظن غير ذلك وراح شبابه يستحث خياله . فقد كان سائرا على مهل ولم يكن يفكر فى شىء من هذا ، واذا بوردة ارجوانية تقع على صدره ، فتوقف ، وقد ظنها أول ما أصابته شيئا أصلب وأخشن ، ولم تكد عينه تأخذ غـلائلها المضطرمة حتى ابتسم وتلفت ، وقد الهب شبابه خياله وأزخر خياله احساسات الشباب ، فانطلقت الدماء تتدفق فى عروقه حارة متقدة ، واذا به يرى فتاة وضاءة المحيا تطل من الشباك وعلى شفتيها آهة جزع ، وفى عينيها نظرة هى مزيج من الغيظ وخيبة الامل والحيرة والخجل ، وعلى خديها جمرتان كانتا من الغيـــظ والحركة ، فاشاعت رؤية الفتى وقدتهما الى النحر ، وانحنى الفتى فتناول الوردة ورفع بها أصابعه الى فمه ليلثمها شاكرا ، وأرسلت عينه الى الفتاة نظـــرة ناطقة بمعانى الشكر والاعجاب والرغبة ، فارتدت الفتاة مضطربة منكرة من الفتى ذلك ، ولم تكد تدور على عقبيها وهى مطرقة حتى رأت الغلام الذى زج بها فى هـــذا الموقف فأهوت عليه تضربه وتلكمه

ولم يكن للغلام ذنب ، فقد رأى مع أخته وردة راقته فاشتهى أن تكون له . واشتاقت أصابعه أن تعبث بها وأن تذبل رونقها وتمزق غلائلها على عادة الاطفال فقال لاخته بلغة الاطفال المحطمة

« هات . هات . »

وتعلق بثوبها فلم تفهم مراده ، ولم تدر أى شىء يطلب على وجه التعيين فقالت :

« ايه »

وهزت له رأسها مستفسرة

فرفع أصبعا دقيقا وأشار به الى الوردة وقال
« ده . ده . »

فأدنت الوردة من أنفه بأصبعين ، وربتت له جانب خده الصابح بالثلاثة الاخرى . فرد الغلام رأسه الى الوراء قليلا لما لامست الغلائل شفتيه وأنفه وأغمض جفنيه ، ثم اطمأن فرفع كفيه ليأخذ الوردة ، فنحتها أخته وأبتها عليه ، فألح عليها وراح يكرر « ده . ده . » فرق له قلبها واحتملته على ذراعها وراحت تلاطفه وهو يأبى أن ينصرف عن غايته ، ويميل على ذراعها فى كل ناحية غير متوسقوطا أو ناظر الى غير الوردة التى تضن بها عليه ، وأرادت أن تلهيه فمضت به الى النافذة وأوقفته « على «الكنبة» وجعلت تشير بأصبعها الى ما يبدو من الشباك وتلفته اليه ، ولكنه أصر على الوردة وعبس ولوى وجهه عنها وأسند خده الى المخدة المسندة الى الحائط ، فلم تطق صبرا على جفوته وقالت لنفسها أعطيه الوردة وأراقبه حتى اذا هم باتلافها انتزعتها من كفه

وقالت له « خد . خد . »

ومدت له كفها بها ، فلما سمع قولها « خد » رمى اليها نظرة عن عرض فرأى يدها تمتد فلم يستطع أن يظل متجهما لما يفرح به قلبه ، ولمح على وجهها الابتسام فرفع محياه الصغير وجازها بضحكة عالية ليس أحلى منها ولا أندى على القلب ، فضمته الى صدرها وبودها لو فتحته له ووضعته فيه ، ثم خلته وناولته الوردة فما أسرع ما أولاها وجهه ومضى بالوردة الى آخر الكنبة حيث النافذة الثـــانية فخطت وراءه تراقبه لئلا يفسد الوردة أو تزل قدمه فيهوى الى الارض

وكان الغلام كلما أحس أخته تدنو منه يشيح عنها بوجهه كأنما كان يخشى على الوردة أن تستردها ، وأشفقت هى أن يكون قد أذبلها فدارت به لتنظر ، فدار هو أيضا ليخفى . فارتدت اليه من الناحية الاخرى فتحول عنها ثانية ولجت بها الرغبة فى النظر فمدت يدها ولم تكد تلمسه حتى صرخ واطبق كفيه على الوردة فجزعت وهمت بانتزاعها فما أسرع ما دار حول نفسه ، وهو محنى ويداه مدسوستـــان فى حجره ، وحنجرته الجديدة تخرج أصواتا مختلفة قد تكون صراخا وقد تكون احتجاجا . وظلت هذه المحاورة بضع ثوان ــ هو متشبث بالوردة ،

وهي أحر ما تكون رغبة فى إنقاذها من كفيه ولكن من غير أن تتلفها ، واذا به في بعض لفاته ودوراته حول نفسه يلقى النافذة أمامه مفتوحة فيقذف بالوردة منها

ولم يكن الشاب يعرف ذلك كله ، وانى له أن يعرفه ؟ وهل كان خليقا أن يصدق الفتاة لو أنها قصت عليه الحقيقة؟ كلا انما أمامه وردة أرجوانية هى فى اصطلاح الشباب رسالة الحب المتقد ، وفتاة من وراء الوردة تنظر اليه وتطل عليه لترى كيف يتلقى رسالة قلبها الذى ازدحم – في وهمه – بحبه مثل إزدحام رأسها بشعرها الذهبى المقصوص •

وتلبث الفتى هنيهة ينتظر أن تعود الى النافذة ، فلما لم تعد قال «حسبى هذا ، وهل كنت أطمع فيه أو يجرى لى شىء من هذا فى وهم؟»

ومضى

ويشاء الحظ أن يكون فتانا أحمق من الظروف التى خدعته ، فلم يكن يمر بعد ذلك بالبيت الا وعلى صدره وردة أرجوانية• واتفق يوما أن وجد النافذة مفتوحة والطريق خاليا فاستخار الله ولم يزل يقذف بالوردة حتى دخلت من النافذة ، وكانت الفتاة فى الحجرة مع أمها وأخيها الذى جر عليها هذا كله ، واذا بالوردة تقع ، فانتفضت الفتاة وأسرعت الى الشباك فاذا صاحبها تحته لا ينقصه الا قيثارة يعزف عليها ، فعبست ووجدت نفسها تصيح به « صحيح مجنون » – وأمها تعجب ولا تفهم ، وتسأل لا تسمع منها سوى انه «واحد مجنون ياستى»

ولكن الشباب هو الجنون ، فقد صار خوف الفتاة من عود الفتى الى رمى الورود واشفاقها من عاقبة ذلك يغريانها بادامة التفكير فى الامر ، كانت فزعة في أول الامر ثم اطمأنت لما كف الفتى عن رشقها بالورد وارتزأ بالتطلع والنظر وارسال القبلات في الهواء • غير أن خوفها هذا عودها الاطلال من النافذة ورؤيته رائحا أو غاديا ، فما أسرع ما انقلبت الوردة سهما من قوس كوبيد .

# الطالع

« أتسطيع أن تقرأ ما فى الفنجانة ؟ »
وكان فى يدى فنجانة أتأمل ما رسمت القهوة على مستدارها ، وكان ذلك منى شرودا ولم أكن أقصد الى شيء فردنى سؤالها اليها بعنف فقلت وأنا ألقى نظرة أخيرة على للفنجانة وأعيدها الى طبقها
« عجيب هذا .. فهل له حقيقة يا ترى ! »

فسألتنى بلهفة وقد انصرف ذهنها الى غير ما أعنيه « ماذا ؟ »
قلت « أن يعتقد المرء أن ما يلمسه — من منديل له أو فنجانة يرشف منها ، الى آخر ذلك — يعلق به سره ، ويصبح وفيه مفتاح حياته ، ماضيه وحاضره ومستقبله »
فأبت أن تتابعنى وكرت الى سؤالها الاول

« ولكن هل تعرف . ؟ اصدقنى »
ولمحت فى وجهها آية الجزع من أن أنكر العلم بأسرار الفناجين ، واللهفة على شيء جزع من حرمانه ، ولم تكن تبتسم وكانت شفتاها الحساستان تختلجان ، واذا اختلجت شفتا فتاة فهذا معناه أن كيانها كله يهتز ، فلم أشأ أن أخيب أملها وقلت لنفسى « وما اضرنى أن اقول لها كلاما حسنا مطمئنا . ان وجهها جميل لاينقصه الا الاشراق ، ومن حق هذا الجمال على أن أعيد اليه وضاءته » ثم نظرت اليها — فى عينيها — وقلت :
« ياقتاتى ليس أسهل من ذلك . ولو أنى جهلت أو ضللت لكان حسبى أن أنظر اليك فان وجهك كتاب مفتوح »

فابتسمت ولم تقل شيئا ، ورفعت فنجانتها ورشفت ما بقى فيها ثم هزتها وقلبتها على طبقها قالت بأعذب صوت وأرخمه « من فضلك »

قلت « هاتي قرشا »

قالت « قرش ٠٠ ولماذا ؟ »

قلت « لا تنطق الفنجانة الا بالقرش » هذا ما علمني أستاذي فاعطني ما أعطاك الله »

قالت « ولكن ليس معي قروش »

قلت « آسف جدا ياسيدتي »

قالت « يكون لك عندي قرش »

قلت « لا فائدة »

وأشعلت سيجارة فكادت تبكي ، ثم كأنما الهمت شيئا فخرجت بلا استئذان ولما عادت مدت أصبعين بقرش بينهما ، فتناولت فنجانتها وأطلت النظر فيها بغير فهم ، ولم يحضرني كلام ـ لا طيب ولا خبيث، ولا مطمئن ولا مزعج ـ فعجبت للدجاجله وأكبرت قدرتهم. ويظهر أن طول تحديقي في الفنجانة وتجهمي من جراء عجزي أقلقها فدنت مني ووضعت كفها الرخصة على كتفي وقالت متوسلة :

« قل الحق ٠٠ لا تكتمني شيئا »

فأدركني العطف عليها والاحتقار لنفسي ، غير أن التراجع كان مستحيلا فالهمت أن أقول :

« أوه ٠٠ لا شيء ٠٠ الواقع أن القهوة كانت خفيفة ، ولكني مع ذلك أرى قليلا جدا ٠٠ هذا طائر على غصن ٠٠ واضح جدا هذا ٠٠ والغصن قلق كثير الاضطراب ، والرياح مختلفة المهاب ، ولكن الطائر ساكن مستقر على فتنه ، ويخيل الى أن معنى هذا ان اضطرابا يعتورك ولكنك تنتهين الى الاستقرار ، فهل أصبت ؟ »

فوثبت الى قدميها وهي تقول « برافو ٠٠ برافو ٠٠ ما أصدق الفناجين ٠٠ وما أبرعك أنت ٠٠ انى دائما أعتزم أن أنتقل من البيت ولكني لا أراني أتركه الى سواه ، صحيح ٠٠ صحيح ٠٠ ثم ماذا ؟٠ قل بالله » فشجعني هذا التوفيق وقلت مستمدا من وحي الخيال :

« وهنا يبدو لى ـ على قدر ما أرى ، فان الآثار خفيفة طفيفة ـشىء هو خسارة تصيبك ، خسارة مال أو حلى مثلا • لا أدرى كيف تكون الخسارة ٠٠ ربما حدثت سرقة ، وقد تفقدين هذا المال ، ولكن المهم انه يضيع والسلام ، ولكن تحت الخسارة شخصا يعوضها بما يرضيك وستكونين راضية شاكرة »

ثم حدقت فى الفنجانة وأدرت وجهها الى النور ، ثم رفعت عينى الى وجهها وقلت وأنا أبتسم

« يكفى هذا الآن ٠٠ فى وقت آخر أتم لك القراءة »

فالحت فازددت أنا على الالحاح تأبيا ، وتعمدت مع التأبى أن اتوخى فى كلامى وهيئتى ما يطمئنها ولكنها ظلت تصر وتقول :

« لابد أن تكون عرفت شيئا آخر ٠٠ ومن حقى أن أعلمه فانى أولى به منك »

فقلت أسرارك فى صدرك ياسيدتى لم استبح لنفسى منها شيئا »

فقالت « أهو اذن سر لى عرفته ٠ ؟ حدثنى بالله »

فقلت متخابثا « لا أستطيع ٠٠ فان الذى أراه ليس مقصورا عليك وحدك ، فهناك سر لآخر »

قالت « أهو ذاك ؟ »

قلت « هو بعينـــه ٠٠ رأيتـــه أول ما رأيت وكاوضح ما يكون فكتمته »

قالت « ألا تخبرنى ؟ »

قلت « فى وسعى أن أخبرك بما فى الفنجانة ولكنى أفضل ٠٠ أن أسكت »

* * *

ولما آن أن أتركها سألتنى وهى تصافحنى

« أصحيح ما قلت ؟ »

فضحكت وضغطت يدها وأنا أقول « لم أقل شيئا ولكنه مع ذلك صحيح »

ففركت لى أذنى وهى تقول :

« ياخبيث ·· هل كنت تقرأ فى الفنجانة ؟ »

فقلت « كلا ·· لقد كنت أقرأ ما فى عينيك ·· وانت ؟

قالت « لقد تصنعت لاستدرجك »

قلت « ياللمرأة من ممثلة »

فقالت « وياللرجل من محتال »

قلت «أيهما الذى احتال على صاحبه ـ آدم أم حواء ؟ »

# ابتسامة الايمان

رأيت فى الحلم أنى «حانوتى» ــ أغسل الموتى من الرجال والنساء والإطفال ، على السواء ، وألفهم فى الاكفان وأحملهم فى النعوش الى اللحود ، وللاحلام منطقها وان كان لا يبدو فى كثير من الاحيان. وقد عجبت لنفسى فى أول الأمر كيف صرت كذلك ، ثم صار عجبى من احتمال هذه الصناعة ــ او التجارة ــ ورضاى بها وسكونى اليها ، ولم أكن أعلم انى أحلم وان ما أنا فيه ليس سوى تخييلات ، وانى سأفتح عينى على النجاة منها ، ولو قال لى أحد انى سأكون يوما ما «حانوتيا» لهجت به وعددت ذلك منه شتما واهانة واتهاما لى بالبلادة وكثافة الجلد ، ولو جلست أتصور ذلك لاقشعر بدنى من هوله ، ولكنى مع ذلك كنته ــ فى الحلم ــ فلم استعظمه ولم استنكف منه ، ولم يخطر لى أن فى كونى «حانوتيا» شيئا من الغرابة أو التنافى والتنافر مع الشعور الانسانى الرقيق . فما أقدر الاحلام أحيانا على اظهارنا على مبلغ الاستعداد الكامل فى النفس ، وعلى ارغامنا على مواجهة الحقائق مجردة عن الاوهام والحواشى وغير ذلك مما يخفيها ويشوهها . وأى بأس أو عيب أو شذوذ فى أن يكون المرء «حانوتيا» ؟؟ وماذا فى الموت مما يجعل تناوله بشعا أو فظيعا ؟؟ وهى ثانية واحدة يكون المرء قبلها حيا وبعدها ميتا ، ونحن نتولاه قبلها بالعناية ولا نشعر أن فى هذا ما ينفر أو يثقل على النفس ، أما بعدها فالامر يكون مختلفا جدا ، أدرى لماذا ؟

ولم أكن ــ وأنا فى الحلم ــ أصنع بيدى شيئا . انما كنت صاحب مال ــ وهذا أغرب ــ أستغله واثمره فى هذه التجارة ، فانها تجارة، ويتولى عنى عمالى وصبيانى الغسل والتكفين وما الى ذلك مما يجىء رديفا الموت وتمهيدا للدفن ، واتسعت تجارتى ــ وهل كان يمكن أن تبور؟ واشتد النشاط وعظمت الحركة فى مخازنى ، وتدفقت الاموال فغصت

بها خزانتي ، فانشات أقول لنفسي مرة وأنا مضطجع على كرسي وثير في بيتي :

« ان هذه التجارة التي أزاولها ، جافة ، لا فن فيها . ولست أرى أن انسانا يعجزه أن يكون حانوتيا . اليس كل ما في الامر أن يكون للمرء مخزن أو مخازن للنعوش ورفوف لشتى المنسوجات الحريرية والقطنية ؟؟ وما الفرق بيني وبين أي متجر بأى سلعة ؟؟ لقد صرت صاحب دكان لا أكثر ولا أقل ، وما أرى أن أرضى بهذا ، والا فلست المازني » ( فما نسيت اسمي في الحلم! ولا أذهلني الجديد المفاجيء من أمري عن أن صناعتي الأدب )

وشرعت أفكر فيما ينقص هذه التجارة وما هو خليق أن يفيض عليها جمال الفن أو جلاله . فقلت لنفسي أن الموت سخيف عنيف، فلماذا لا نرققه ونجمله ؟ ولن يكون الترقيق والتجميل والتلطيف بدعا فقد حاول الناس ذلك من قديم الزمان ، وهم يلفون الميت في الحرير اذا وسعهم ذلك أو فيما هو دونه مما يشبهه اذا لم يسعفهم الحال ، ويكسون النعش والاران أو التابوت بما يزينه ، فمبدأ التزيين معمول به ، ولكن الامر فيه يقتصر على الظاهر ولا يمتد الى الميت نفسه .وما خير أن تجيء بالحرير والخز والديباج الموشى وتغطى بذلك خشبا لا علاقة له بالميت ؟؟ أليس الميت أولى بهذه العناية ؟

وقلت لنفسي نعم هو كذلك ، وانطلقت أفكر في الحياة والموت ، وليس أوثق منهما صلة ، ولكن مظاهر هذه الصلة في الانسان على غير ما ينبغي أن تكون ، فالحي يكره الموت ويفزع منه وينتظره وهو ساخط عليه مشمئز منه غير مرتاح اليه ، وقل في الناس من يتلقاه بابتسامة العارف به المطمئن اليه الموطن نفسه على لقائه ، وما أكثر ما تكون وجوه الموتى عابسة مقطبة مغضنة ، وأحسب أن منظر الموتى وما يرتسم على وجوههم في الاحيان الكثيرة من الالم والفزع وما الى ذلك مما يستولى على النفس ساعة الوفاة — هو الذي يقوى في الاحياء شعور النفور من الموت ، ولا شك عندي في أن من تربية الامة أن تروضها على السكون الى الموت ، ولا يتاتى ذلك الا اذا جعلنا الموت

ورققناه وشجعنا العيون على النظر الى مظاهره بغير جزع أو فزع ؛ ولابد فى ذلك من استيحاه الفن

واقتنعت أخيرا ـ فقد شاء الله أن يطول الحلم ـ بأن من الواجب أن أبحث عن وسيلة لتجميل الموت وتخفيف وقعه وتلطيفه ، وهـذا شيء تقدر عليه الصناعة ولا تعجز عنه ، فأقمت فى بيتى شبه معمل ورحت أجرب الدهانات والاصبغة حتى وفقنى الله وهدانى الاجتهاد الى صنوف شتى منها ، رضيت عنها واكتفيت بها . وكان الذى أنا مقدم عليه بدعة ، والبدع تصدم فى أول العهد بها وتثير على صاحبها جمود الناس ، فلابد من الكياسة والحذق واللباقة

وأتيحت لى أول فرصة فأسرعت الى اغتنامها وقبضت على ناصيتها كما يقولون ، ذلك أن أرملة مقطوعة مات لها فتاها فى السابعة عشرة من عمره ، فبعث الى من يدعونى الى ما هو مألوف ، وكانت فقيـرة فآثر رسولها التخفيف اجتنابا للتفقات التى لا قبل للارملة الثكلى بها فقلت لرسولها « لا عليك يا هذا . ان الناس للناس ، وما يضيع العرف عند الله . فاذهب لشأنك . وسأتولى الأمر بنفسى » .

وقلت هـــذه فرصتى فاذا ضاعت فانها الطير أفلت من القفص وتشجعت وحملت معى طائفة من أصباغى ، وتخيرت خير ما عندى من الاكفان وأجودها وآنقها وأزهاها لمعة ، فلما صرت فى البيت قام عنى أعوانى بالغسل ، ثم أخرجتهم وشرعت أعمل ، وكان الفتى نحيفـا ضاويا أصفر الوجه ، وكان الموت قد فاجأه وهو مقطب الجبين، فرجلت شعره وسويته وفرقته له كأحسن ما يمكن أن يفرق ، ودهنته ليثبت على ما صنعت ، ثم أقبلت على محياه الظامىء فعالجته بما صفا لونه ، وجعلت له على خده لعطة تزينه ، وعلى ثغره المتقبض الشفتين مثل الابتسامة ثم ضخمته بالطيب ، ودعوت الغلمان فحملوه الى مكانه بين النادبات

وتلكأت بعد ذلك فى فناء البيت ، فنوديت ، وكنت أتوقع ذلك، فصعدت الى الارملة فاقبلت على تسألنى ما هذا الذى صنعت ؟

قلت « ياسيدتى . هونى عليك . هذه ابتسامة بريئة على ثغره .

عليه ألف رحمة ، وسيراها الملكان على فمه فيحسن وقعها فى نفسيهما فيدركهما عليه العطف ولا يثقل عليه سؤالهما . »

قالت « أهو ذاك ؟ »

قلت « نعم وكان الله فى عونك . ارجعى اليه وانظرى،وتملى بالنظر وتعزى . فان فى وسعك أن تنظرى الآن بلا جزع ولا استهوال لما يفعل الموت حتى بالوجوه النضيرة . ولولا أنك مسكينة . مسكينة ، مرزوءة رزءين لما فعلت ذلك ، اذهبى . اذهبى ، وليمسح الله على قلبك »

وما أشك فى أن الاغتباط بمنظر ابنها خفف من لوعتها عليه ، على أن المحقق انها رضيت ولم تسخط

وتلاغط النساء فيما بينهن بما صنعت ، وأكبرنه ، واستحسنه ، فقد اشتد الطلب بعد ذلك لهذه الابتسامة ، والاقبال عليها ، وصارت سلعة رائجة بين الموت ، واضطررت أن أدرب العاملات عندى على استعمالها ، فما استطيع أن أتولى الامر بنفسى اذا كان الميت سيدة أو فتاة . وكثرت ابتساماتى وتنوعت.فهذه ابتسامة بريئة للصغار، وتلك ابتسامة الجمال للعجائز . وكان النساء يوصيننى بطبعها على وجوههن ، وهكذا

وصنعت دهانات أخرى سميتها « ابتسامة الايمان » وقفتها على الشيوخ والعجائز ولم أكن أتقاضى أجرا على هذه الابتسامات أو ثمنا لصبغاتى ودهاناتى ، لانى أردت أن أخدم الفن وما أعرف فنا يخدم الا بتضحية ، وما أقل ما تكلفت فى سبيل ارسال الناس الى قبورهم باسمين مشرقين الوجوه لا عابسين قبيحى الصور .

ولا أحتاج أن أقول ان اختراعى ذاع وشاع ، وأن الفضل فى ذيوعه كان للنساء دون الرجال ، وهذا طبيعى فان النساء أشد تعلقا بالزينة

واتفق مرة أن توفى رجل فدعتنى امرأته ، فلما كنت عندها ووقفت بين يديها ، قالت لى :

« لقد مات منذ ساعة ، وأنا وحدى معه ، فلم أطلق صوتا ولم

أولول عليه حتى استشيرك » قلت « شكرا لك ياسيدتى . هاتى ما عندك واعلمى أنى خادمك الامين »

قالت « انى حائرة ، أى ابتسامتيك أليق به ؟ ابتسامة الرضى أم الايمان ؟ » .

قلت « هل تسمحين أن ألقى عليه نظرة ؟ فما استطيع أن أعرف أيهما أولى أن تنطبع على وجهه حتى أعاين »

قالت « تفضل »

ومضت أمامى الى السرير فنظرت الى وجهه المتهضم ولونه الاخضر وجبينه المخدد وعنقه المعروق ، وقلت :

« ابتسامة الايمان فى رأيى أفضل وهو بها أولى »

قالت « ولكنه مات وهو لا يؤمن بشىء !؟ لقد كانت آخر كلماته كفرا »

قلت « قد يكون ذلك من فرط تبريح الآلام فان أثرها على وجهه »

قالت « أليست ابتسامة الرضى أولى ؟ »

قلت «معذرة فانى أخالفك . ان ابتسامة الايمان تنطوى ـ ضمنا ـ على الرضى . ولكن الرضى ليس من المحتم أن يكون فى طيه ايمان ، وهذا هو الفرق بين الابتسامتين »

فشردت قليلا ثم قالت « ربما . أنت أدرى ، ولكنه مات كافرا »

قلت « هذا شىء يعلمه الله لا أنت ولا أنا . واعتقادى أن الله أرحم من أن يؤاخذه على كلمة أجرى الألم والعذاب بها لسانه . ويحسن أن نرد الى وجهه الايمان كتمهيد لما نرجوه ونسأل الله من العفو عنه . ثم انه لا يليق أن يذهب الى القبر كافر الوجه أيضا حتى وان كان كافر القلب »

فاقتنعت وعدت أنا لاجىء بجؤنى التى أضع فيها طيوبى وأصباغى ،

وشرعت هى فى الولولة لجمع المؤاسيات والمعزيات ، ولم أعرف باى شيء مات المسكين وأى مرض قتله ، ولـكن ثقة المرأة بى أغرتنى بالاحتفال بفقيدها ، والعناية باكساب وجهه كل ما يدخل فى وسع الفن من معانى الرضى والايمان • وكأنما كنت أرجو بذلك أن أرد اليه ما أفقده المرض وما خسره بكفره وجحوده نعمة ربه •

وأظن أن المرأة سرها مجهودى أو ثمرته على الاصح فقـد أشرق وجهها وأضاء على الرغم من الدموع السائلة على خديها • وعلى ذكـر الدموع أقول • انى لا أدرى من أين يجيء النساء بهذا الطوفان كله ! وعلى كثرة ما يبكين لا أرى ذلك يضير عيونهن !

وقد ندمت بعد ذلك على اسرافى فى تزويد هذا الميت بالابتسامات ويارب خير جر شرا ، وكم من عمل صالح فى هذه الدنيا العجيبة كان مجلبة للمتاعب • ذلك أن قريبا للميت كان طبيبا ، فجاء ليمشى فى جنازته ويشيعه الى قبره • وخطر له أن يلقى على قريبه نظرة أخيرة قبل أن يوضع فى النعش فصعد اليه فلما وقعت عليه أمـر بالنسوة المحيطات به فخرجن واستبقى هو أرملته وقال لها وهو يشير الى وجه الفقيد

« ما هذا ؟ »

« ابتسامة الايمان »

فلم يفهم على ما يظهر وصاح بها

« باى مرض مات ؟ هيه !! أنطقى ! »

قالت المسكينة « تسألنى كأنك لا تعرف ؟ مات بالسل »

فدق الطبيب يدا بيد ، وجعل يقول وهو يروح ويجيء فى الغرفة كالنمر ، ووجهه محتقن والشرر يتطاير من عينيه

« سل ؟ سل ؟؟ انظرى ( وقبض على يد المسكينة وجرها الى فراش الميت ) أنظرى الى تقلص عضلات الوجه ! هذا سل ؟؟ • هذا فعـل السم • هنا جريمة ••• »

فقالت وهى تنشج «سم؟ أعوذ بالله! ياشيخ هذه ابتسامة الايمان!» فصاح بها « ايمان ؟ هذا سم وسأبلغ النيابة حالا ... »

وفعلها الأحمق .

ولكنى استيقظت قبل أن تتولى النيابة التحقيق ، فلا أعلم ماذا صنعت ، وهذا عذرى الى القراء .

(حاشية) « هذا الحلم صحيح لا خيال فيه وقد رأيته فعلا . ومن ألاعيب الذاكرة التى يحسن ذكرها انى ظللت أياما مشغولا بهذا الحلم لا من ناحية تأويله فما أعرفنى اكترثت قط لتأويل الاحلام، ولكن لأنى قرأت شيئا عن معالجة وجوه الموتى بالتدليك والاصباغ ، فى مجلة أو رواية أو كتاب ــ لا اذكر ــ وقد حاولت أن أهتدى الى هذا الكتاب أو المجلة أو الرواية فلم يوفقنى الله ، ولكنى موقن انى قرأت شيئا من هذا القبيل . ولا شك عندى فى أن ما قرأته انطبع فى ذاكرتى ثم تراءى لى وأنا نائم فرأيت أن أنبه الى ذلك »

# وردة او الجبان

## هذه القصة خلاصة اخرى اضخم واقوى

تعشوا – الأب الهرم والأم التى لم تذبل الكهولة رونقهـــا ، وابنهما – ثم مضوا الى الشرفة الوسيعة فانتحى كل منهم ناحية ، وجلس الفتى قريبا من أمه ويداه متشابكتان حول ركبته وشعـــره الوحف الناعم راقد الا فى الموضع الذى تتخلله أصابعه ، وكانت عينه الى أمه غير أنه لم يكن يراها وانما كان يرى « وردة » بنت ابن خال أبيه – يراها كما رآها فى الحديقة المقمرة ، وفى النهار المشمس بين أزهار الربوة ، وفى الاصيل المطلول على شاطىء الغدير ، وفى ثوبها البرتقالى تخطر اليه وتهامسه وتحنو عليه وتقبله بين عينيه .

ولما صعد الى غرفته جاءت اليه أمه ووقفت معتمدة على النافذة فدنا منها وقال « ألا تحدثينني عن سر العداوة التى تشطر عائلتنا . »

قالت « كلا . ان هذا من شأن أبيك اذا رأى أن يفضى اليـــك بالسبب »

فخفق قلبه وسألها « أهى اذن مسألة خطيرة ؟ »

فلم تزد على أن قالت « نعم »

وكان أبوه فى خلال ذلك جالسا فى الشرفة يقول لنفسه « لمـاذا نولد صغارا ؟ أما لو كنا نولد كبارا ثم نصغر بعد سنـــة !! اذن لاستطعنا فى أيام الشباب أن نفهم كيف تجرى الامور وتقع الحوادث ولاتسعت صدورنا ورحبت آفاقنا ووسعنـــا أن نقدر ونعـــذر . يا لتهكم الاقدار . وردة يحبها ابنى . وردة ابنة الرجل الذى طلق المرأة التى أحبتنى فتزوجتها ! كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

انحدر القمر فزحفت الظلمة لينة دافئة ، وشملت كلما في الدنيا من أهواء وعواطف ، وأشواق ومنادم ، وسقط الطل فتقفلت كمائم الزهر وانطلقت الابقار ترعى فى الحقول وتدفع ألسنتها وتمدها لتحس بها الحشيش الذى لم تعد تراه ، ورقدت الانعام وراحت تجتر وسكتت الاطيار فى هذا الليل الدافىء الذى لا حلم فيه وهدأ كل شىء الا الانسان

وكانت « وردة » مطلة من نافذتها تصغى الى أصوات الليل كلما هبت الريح وخشخشت الاشجار ، ونفسها متطلعة مشرئبة ، وبودها لو تستطيع أن تحرق أجنحتها فى نار الحياة وهى ترى الفراشات تطير حولها الى المصباح . تركت غرفتها ومضت الى الحديقة وقد لجت بها الرغبة فى مكاشفة أبيها بما يكن صدرها ويجد قلبها ، وكان جالسا تحت شجرة فدلفت اليه وأفسح لها مكانا الى جانبه على المقعد ولكنها آثرت الوقوف وسألته بغتة على عادتها « ابى . ألم تعشق قط ؟ »

ولم تنظر اليه وهى تساله ذلك فاحمر وجهه وتجهم وتدانى حاجباه ولكنه ضبط نفسه ــ هل يجديه الغضب مع هذه الفتاة المدللة التى يحيا الا لها ؟ ــ قال « وماذا يعنيك من هذا السؤال ؟ »

ونهض ومشى الى حوض زهر فحلقت به على أطراف أصابعها ووضعت كفها على كتفه وقالت « حدثنى عن هذا يا أبى »

فصمت لحظة ثم قال . « ماذا يعنيك أن تعرفى ؟ وفى مثل سنك أيضا ! »

قالت ملحة متقصية « ألا تزال حية ؟ »

فهز رأسه .

« أهى متزوجه ؟ »

« نعم »

« أهى أم سمير ؟ وكانت زوجتك الاولى ؟ »

ولم تكد تقول ذلك حتى راعها أن ترى وجه أبيها الساكن يتلوى من الألم .

« من قال لك هذا ؟ »

« ولكن يا أبى انها حادثة قديمة ٠ »

« قديمة أو جديدة ٠ لا ٠٠٠ »

فأمسكت بذراعه وجعلت تمسحه بكفها فقال فجأة ٠

« انى أحاول أن أنسى ولست أحب أن يذكرنى شيء ٠ » ثم كأنما أراد أن يرفه عن صدره المحرج فقال « ان الناس لا يفهمون فى هذه الايام ٠ ولا يستطيعون أن يقدروا ٠٠ »

فقالت كالهامسة « أنا أفهم وأقدر »

وكان قد أولاها ظهره فدار اليها وقال ٠ « ماذا تقولين ؟ أنت التى لاتزالين طفلة ! »

قالت « ربما كنت قد ورثت حبك »

فقال فى فزع « كيف ؟ لمن ؟ »

فقالت « لابنها »

فبهت وامتقع لونه وأطرق ومشى ٠ ولما صارت فى غرفتها دخل عليها وقال ٠ « لقد فكرت فيما سمعت منك ٠ »

قالت « نعم »

قال « ليس أوجع لنفسى من الكلام فى هذا ٠ ولكنه لا حيلة لى ٠ ولا أدرى أتعرفين ، أى شيء ، أنت عندى ، أم تجهلين ٠ ولكنى أدرى انك كل شيء ٠٠ ان امك لا ٠٠ ليس لى غيرك .. لم أشته شيئا ولا عبئت بشيء بعد مولدك ٠ »

قالت « أعرف ذلك »

قال « قد تحسبين انى أستطيع أن أصنع لك شيئـــا ـ أن اذلل الصعاب ـ انك مخطئة ٠ ليس فى وسعى شيء »فلم تنبس وردة بحرف ومضى فى كلامه فقال : « ان هؤلاء الناس لا يمكن أن يتقبلوا منى شيئا ٠ انهم يبغضوننى وان كانوا هم المسيئين الى ٠ هكذا الدنيا ٠»

فقاطعته « ولكن يا أبى ما لسمير ولهذا ؟ »

قال « انه ابنهما . من لحمهما ودمهما »

قالت « كلا يا أبى . كلا . »

فاضطجع في مقعده صابرا حليما كأنما آلى على نفسه أن لا يدع شيئا من عواطفه يطفو الى وجهه وقال: اصغى الى . انك تضعين شعور شهر واحد ــ بضعة أسابيع ــ في كفة وشعور خمس وعشرين سنة في كفة أخرى فما هي فرصتك ؟

استمعى لصوت العقل يابنية . ان ما انت فيه جنون مطبق . »

ففركت وردة الزهرة التي كانت في يدها وانتفضت قائمة ثم ندمت على ما قالت . « ان الجنون هو أن تدعو الماضي يفسد الحاضر . ما لنا نحن وللماضيكم . انها حياتنا نحن لا حياتكم . »

فرفع أبوها كفه الى جبينه ومسحه مرة وأخرى وثالثة ثم قال وهو اشد ما يكون سكونا وحلما .

« بنت من أنت ؟ ابنتى . ابن من هو ؟ ان الحاضر متصل بالماضى والمستقبل مرتبط بهما جميعا . ولا سبيل الى الفكاك من ذلك . »

فوقع من نفسها هذا الهدوء والحلم ولم تخف عليها مغالبته لنفسه ولكنها على الرغم من ذلك بكت وألقت رأسها على كتفه وقالت مستصرخة ..

« عونك يا أبى . انك تستطيع معاونتى . »

فسرت في بدنه رعدة وهو يقول « أنا ؟ أساعدك ؟ انى أنا العقبة. ان دمى فى عروقى. »

ونهض وقال . « وا أسفاه . لقد وقع الشحم في النار . تعالى يابنيتى . ياوحيدتى . »

* * *

قال سمير لامه . « لقد اطلعنى أبى على كل شىء . »

قالت « أعلم ذلك . فهل تظن أن لك أن ترجو السعادة مع هـذه الفتاة . »

قال . « نعم . اذا أمكن أن تكوني أنت أيضا سعيدة . ؟

فابتسمت أمه وقالت « شيء آخر .. أفكرت فى أنه قد يتبين لك غدا أن الحب ليس هو هذا الاعجاب بالجمال . ولا هذه الرغبـة فى الاستيلاء . ؟ ألا تخشى أن يتكرر معك ما وقع لى .. ؟ »

قال وهو مطرق « لماذا يا أمى ؟ ألأنها بنت أبيها تكون مثلك . »

قالت « أخشى . »

ثم أردفت ذلك بقولهـا وعلى فمها ابتسامة مرة وفى عينيها سهوم أليم فزع له ابنها .

« على كل حال لا تجعل بالك الى . فكر فى نفسك وفى سعادتك. أما أنا ففى وسعى أن أحتمل ما تجىء به الايام . انه الجـزاء الذى استحقه »

فصاح بها « أمى . »

قالت « لا تخف ! لن تخسرنى مهما فعلت . »

وخرجت وتركته يمزق قلبه الحبان : حب أمه وحب وردة .

★ ★ ★

قالت وردة لأبيها وهو داخل عليها « ماذا يا أبى ؟ »

فهز رأسه وخانه لسانه وأحس انه سيقتلها اذا تكلم . فصاحت به ماذا ؟ ماذا ؟ عجل يا أبى ؟ »

قال « يابنيتى قد تحاملت على نفسى وذهبت . ووالله لقد بذلت جهدى ولكن ... »

وهز رأسه . فأسرعت اليه ووضعت يديها على كتفيه وقالت «أهى أمه التى تأبى ؟ »

قال « كلا • بل هو سمير نفسه • تعالى يابنيتى• لايسؤك هذا منه انهم لا يعدولون قلامة من ظفرك • »

ولكنها انتزعت نفسها من بين ذراعيه وصرخت كالمجنونة « انك لم تسمع • لم تفعل شيئا • كلا لقد خنتنى • خاننى أبى • »

فبهت الرجل وحز فى نفسه هذا الاتهام ، وبدا كأن سنه علت عشر سنين فجأة • ولما نطق كان صوته خافتا ضعيفا كانما يجىء من دنيا غير هذه •

« هذا جزائى • لقد كان حريا بى أن أتوقع الفشلين جميعا • لا بأس »

وخرج مخنوقا ، فى حلقة شىء يوشك أن يسده ، وفى صدره تمزيق ، وفى قلبه هبوط ، وفى ظهره انحناء •

ولما عاد كان الليل قد أظلم ولم يكن فى البيت نور الا حيث بقيم الخدم ، فاضطرب ودار بالغرف يتلمس ابنته فى احداها ،وبلغ من اضطرابه وذعره ان لم يضىء نورا أو يدعو أحدا الى اضاءته ، وانه ليمشى فى قاعة الجلوس التى خلفها فيها اذ اصطدم بشىء فمد يده يتحسسه فاذا فتاته كوم متهافت على الارض • فأهوى اليها يجسها حتى اطمأن ثم احتملها الى غرفتها لاهثا مكدودا مضعضع النفس •

# الرجل الطليق

يجيء من حيث لا أدرى · ويذهب الى حيث لا أعرف · ولا علم لى به فيما بين الزورتين · ولم أره مرة فى يده حقيبة أو معه فضل ثياب · فكل ما يملك ثوب على بدنه مما يخلع عليه هذا أو ذاك من معارفه · وعصى غليظة يتوكأ عليها وان كان شديد العضل قوى المفاصل لا يعنى بعمل · ويقيم عندك ما شاء لا ينتظر منك دعوة أو يحفل كيف تكون معه · ثم تعود نفسه فتنزع الى الرحيل والتجوال فينصرف بغير استئذان

وكان رجلا محببا وان كان مجهول التاريخ · لا يعرف أحد عنه شيئا · ولا يحكى لك هو من ماضيه شيئا · والدنيا عنده حزمة من المسائل ينقصها الحل · حديثه خليط من الهزل والجد · وهو نفسه لغز مخبر ، فهو آنا له وجه مجرم وكلام جان ميؤوس من صلاحه · وتارة يكون الرجل المهذب · وطورا يكون العالم الفيلسوف · وعلى كل ما يظهره من الاستخفاف ( بالعاطفة ) والزراية عليها فقد تلمح أحيانا ومض الاخلاص وائتلاق الشعور الصادق· غير أن ذلك لا يكون الا عارضا لا يستطيل فى سماء النفس ولا يتتابع فى أفقها · ولا يلبث أن يخبو وينام ويعود الغيم الى سواده · ومن يدرى ؟ لعل تلك أصداء لما كان · أو لمحات مما هو مخبوء وراء القناع الكثيف الذى لا يرفع ·

وقد يتبسط أحيانا فيقص عليك بعض ما وقع له فى حياته من غير أن يعين زمانا أو مكانا · ولا يكون تبسطه معك لانك تستدرجه بل لأنه هو يطيب له أن يشجيك أو يفزعك أو يروعك · قال لى يوما ونحن على الطعام :ــ

أما المدينة فلا يعنيك اسمها ويكفيك من العلم بها أنها رقعة من الدنيا يلهث الناس فيها من فرط العدو وراء الاصفر الرنان كما يقولون ولا تمل نساؤها تغيير ثيابهن ــ كالافاعى · فخطر لى يوما

خاطر أجراه فى رأسى حسن الثياب التى كانت على بدنى ، ولا أحتاج أن أقول انى لم أشترها اذ أنى كنت مفلسا كالعادة ، وعلى ذكر الافلاس أسألك ما هو اللفظ الذى يطلق على رجل لا يكاد يعرف الفلوس لانه لا يحتاج اليها ؟

فخفت أن يستطرد عن الحكاية على عادته فقلما يتم قصة أو يرويها الى آخرها ، واحسبه يتعمد ذلك حتى لا يزيدك بنفسه علما فأبديت اشارة استخفاف وضجة وجهل فى آن معا فهز رأسه واستأنف كلامه ..

« لا بأس . ولا عيب على اللغة أن تخلو من كلمة تحيط بهذه الحالة . فان الحياة لا تكاد تعرفها .. نهايته . خطر لى على ما أذكر لآن أن أكتب مقالا أوفق فيه بين المعرى وأبى نواس . لا لأن التوفيق ميسور . بل لأن مجال السخرية واسع رحيب .. مهلا مهلا . لا تضجر انما أحاول أن أبين لك حالتى النفسية يومئذ لتستطيع أن تتبعها الى آثارها وتتعقب نشوء الفكرة التى تكونت عندى بعد قليل ، والفكرة هى أن أكتب وصف متشرد . ألا ترى كيف تطورت الفكرة ؟ ربما كان مما يعنيك أن أذكر لك أن الذى كان فى ذهنى هو أن أبين استحالة التوفيق بين الشرطى والمتشرد . آه فهمت الآن . حسن ؟ . ضربت الارض بعصاى وقصدت الى « مجلة .. »

وقلت لصبى هزيل مسلول ـ نظرة واحدة الى وجهه كانت حسبى للعلم بأن الداء يدب فى صدره ـ يا ذا الوجه الاصفر . أين قدس الاقداس هنا . »

فنظر الى ممتعضا ونهض فى تثاقل وقال : « ايه »

قلت : « المحرر ».

قال : « أيهم ؟ ومن تريد منهم »

قلت : « كبيرهم . صنمهم المعبود . هبل الأكبر . ألا ههم . »

فلم يفهم ولولا ثيابى النظيفة ومظهرى الفخم لما منعه الضعف

وهزال السل أن يتلقانى بما يعتقد أنى أستحق ـ أو بما استحق فعلا . ولكنه مد يده وسعل ثم قال : « أمعك بطاقة ؟ »

فصحت به : « ماذا . »

قال : « بطاقة . أليس معك بطاقة . »

قلت : ما حاجتى اليها يا مغفل ؟ »

فرمانى بنظرة حقدومكر ومضى الى مكتب وجاءنى من فوقه بورقة مطبوعة وقال « اكتب اسمك وصنعتك هنا »

فضحكت . اسمى حقا . وصناعتى أيضا .!

وتناولت الورقة وغطيت بها وجهه واقتحمت الغـرفة التى كان واقفا على بابها ، فألفيت فى ركن منها رجلا نحيلا غائر العينين مكبا على المكتب يتكلم فى التليفون ويرسم فى أثناء ذلك خطوطا ودوائر على ورقة أمامه ، فانتظرت حتى فرغ من الكلام ورفع رأسه ــ وكان العرق يتصبب من جبينه فقد كان الوقت صيفا ــ وقلت : « لمـاذا تشقى على هذه الصورة ؟ فى أى سبيل يتصبب عرقك هذا .؟ أنا الواقف أمامك ، أتعب ولا .. »

فصاح بى : « من أنت ؟ لماذا جئت »

وأظنه حسبنى مجنونه . فقلت أسكن روعه وأطمئنه : « لا تخف .. لست الا انسانا مثلك على الاقل . »

فنهض وقال ووجهه مكفهر : « ماذا تريد منى ؟ أخرج من هنا »

ودق الجرس فدخل الصبى المسلول فأشار عليه أن يخرجنى . فقعدت على كرسى وضحكت وقلت : « أتكلف هــذا المسلول الذى يتنفس بجهد أن يحمل ثقل جسمى هذا بكل ما فيه من عضلات ؟»

فجلس مثلى وأشار الى الصبى يرده وعاد يسأل : « ولكن لمـاذا لا تخبرنى من أنت وماذا تريد ؟ »

فقلت : « لانى لو فعلت لما زدت بى علما . أريد أن أصــف لك

حياة المتشرد كما هى فى الواقع فقل تقبل ؟ هل تدرك أن قراءك يموتون حسرة اذا لم أكتبها ؟ ويشقون اذا لم أصفها ؟ »

وخيل الى وأنا نظر الى وجهه أن الغضب سيطير بعقله ويلقيه صريعا • ولكنه بلع ريقه وقال : « اكتب ما تشاء وارسله • ارسله وارسل عنوانك • لا حاجة الى الحضور بنفسك »

« فخرجت »

وأشعل صاحبى السيجارة ومضى يدخن كأن الامر قد انتهى • والحكاية قد وافت ختامها ، فصبرت هنيهة فلما رأيت أنه لا ينوى أن يفتح فمه قلت :

« وهل كتبت المقال ؟ »

فابتسم وقال : لماذا أكتبه ؟ لماذا أتعب نفسى وأكد خاطرى ؟ »

قلت : « ولكن لماذا اذن قصدت الى ادارة المجلة وعاملت الصبى بهذه القسوة واقتحمت غرفة المحرر وأزعجته • »

فضحك وقال : « المسأله بسيطة• خطر لى أن أفعل ذلك ففعلت• ثم خطر لى أن أعدل فعدلت • وحى الساعه • ماذا تريد منى ؟ أما الغلام فالى متى يا صاحبى أنبهك الى وجوب التحرر من العواطف التقليدية ؟ وما هذا الغلام ؟ ذبالة تحترق • كيان يذوى ويموت • فرقعة أصابع • نفخة • رهن لعبة الحياة • لا يبلغ حتى أن يكون مسألة من مسائلها • »

ونفخ الدخان ووضع رجلا على رجل ثم قال : « الذى كنت أريد أن أكتبه يومئذ لا يزال مادة صالحة•خذها وانتفع بها اذا استطعت أن تتصور حياة المتشرد وتضع نفسك موضعه وتحس بكل ما يضطرب به جنانه ، على أن هذا لا يهم اذا تعذر عليك لانه اطار الصورة ، أو ألوانها اذا شئت• انما المهم هو مسألة حسابية يسهل اثباتها بالارقام • ذلك أن تعقب المجرمين ومطاردتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم واسكانهم السجون يكلف الدولة أضعاف ما يمكن أن تنفقه مع التبذير لو انها أسكنتهم أفخم الفنادق بدلا من السجون

ووفرت لهم وسائل الترف وأسباب العيش الرغيد • هذه هي نظريتي • وبسطها سهل • فما عليك الا أن تجيء باحصاء دقيق رسمي للحقائق والارقام • هات ما تنفقه الدولة على الشرطي والمحاكم والسجون • وضع أمامه ما عسي أن تنفقه لو عنيت بالمتشردين واغدقت عليهم نعم الحياة وغمرتهم بطيباتها من ثياب فاخرة وسجاير « هافانا » الخ الخ •• الارقام مقنعة فهات واقتنع وأقنع الدولة • »

وبعد قليل عاد يقول • « نعم • وقد تسأل • ولكنك لا تسأل شيئا • لانك جامد كغيرك ، لا تستطيع أن تتحول عما ألفت وشببت عليه ، ومن أجل أن الدنيا كلها تعتقل المتشردين وتسجنهم • تبدو لك نظريتي مزاحا مستظرفا على الاكثر ••

على أن لنظريتي ذيلا •• ذلك أن الدولة هي في الواقع التي تسلب المتشردين حقوقهم وتسرق أموالهم الموقوفة عليهم • لا تعجب ولا تعجل • هذه الاموال الجماعة تخصصها للعناية بالمتشردين • ولكن الدولة تأخذ هذه الاموال وتنفقها في وجه آخر • تعطيها للشرطة والقضاة والسجون • والمتشرد لا يأخذ شيئا منها وان كانت له موقوفة عليه ومخصصة للعناية به ، فهلا صرفوا الشرط والقضاة ـ أو على الاقل الموكلين منهم بالمتشردين ـ وأنفقوا المال على أصحابه ـ أصحابه الشرعيين ، أعني المتشردين ؟ »

وقام وتناول العصا وهو يقول : « اكتب هذا • فانها نظرية صحيحة على أن أكبر ظني انك لا تفعل وان كان لا ينقصك الاقتناع الذى أقرأ آيته في وجهك • لانك مقلد »

وهكذا صاحبي ابدا ••

# فى الحياة الموت

أظنه رد فعل لما ظللت سنوات طويلة أعالجه من رياضة النفس على السكون الى حقيقة الموت أو فكرته أو وقعه المفزع – فما أدرى كيف أقول – فقد صرت اذا فاجأنى من تجب تعزيته عن فقيد له ، كأن يلقانى بغتة فى طريقى ، أو يدخل على ، على غير انتظار ، أرانى أغرى بالضحك ويرتج كيانى كله وتعترينى « نوبة قهقهة » اذا استقام هذا التعبير – فلا أستطيع أن أكبح نفسى وأزجر أعصابى عن هذه العربدة الا بجهد جاهد ، والمفاجأة فى مثل هذا المقام هى التى تخرج بى عما اعتدت من ضبط النفس ، فلست أخشى أن أضحك – أو حتى أن أبتسم – اذا خرجت قاصدا الى التعزية ، وأحسب أن الوقت فى هذه الحالة يتسع لعلاج الاعصاب اذا نزعت الى التمرد ، والزامها ما يقتضيه المقام ولكنى أسهو أحيانا عن أداء واجب التعزية أو أقصر لسبب ما ، أو لا يتصل بى خبر الوفاة الا بعد فوات الوقت الملائم ، أو أطلع على الخبر فى صحيفة ولكنى أكون قد نسيت اسم الرجل فلا أعرف أنه هو الذى فجعه الموت ، ويتفق أن ألقاه فى الطريق وأرى ثيابه السود ووجهه الكاسف فأذكر وأتنبه وأخف الى تعزيته فتعترينى هذه النوبة السخيفة ، وغير مقبول أن تلقى بالضحك محزونا فقد والده – ولعله عائله أيضا – أو ثكل ابنه وأمله ولف عليهما كفنا واحدا ، وهبه أعقل وأرشد من أن يجعل باله الى ابتسامتك أو يخطىء فيتوهمه استخفافا أو شماتة أو يحفل على العموم ما يتكلفه الناس ، مجاملة له ، من الوجوم وما يجرون به ألسنتهم من ألفاظ التعزيه المألوفة التى لا تغنى ، وعبارات الاسف التى لا خير فيها على كل حال ولا قيمة لها ولا دلالة فى الاغلب والاعم ، فان أقل ما فى الامر أن الموقف لا يدعو الى الضحك ، واذا كان المرء لاينتظر منك ان تحزن مثله ولا يطالبك بأن تشاطره حمل الهم ، فانه كذلك لا يتوقع أن تركبه فى ظاهر الامر وفيما يبدو له منك، بالسخريه والاستخفاف،

وعلى أن أثقل ما فى الامر شعور الانسان نفسه بأنه ـ وهو فى مقام الاكتئاب ، أو الاحتشام على الاقل ـ يضحك فى غير فرح ويعجز عن ضبط أعصابه المضطربة والزامها ما يقتضيه الحال • والبلاء أن ادراك المرء لخروج أمر أعصابه من يده وافلات العنان من كفه يزيده عجزا عن ضبطها وكبحها ، وأحسب أن شعوره بهذا الافلات يزعزع ثقته بقدرته على جمع الاعنة بين أصابعه وشدها اليه ، ثم تعود الثقة ـ ومعها القدرة ـ شيئا فشيئا فيرجع الى حالته الطبيعية المألوفة • وليس فى الموت ما يضحك ، وما أعرف شيئا هو أشد اثارة للنفس وأعظم ازعاجا لها من انقطاع الشعور بالذات ، أو أبعث على دهشة العقل من امحاء الشخصية بفضل هذا الموت • حتى حين يصيب ذاك سوانا من الناس ـ قرباء كانوا أو بعداء ـ يكون وقع الموت مرا • وخير ما يتمناه المرء لنفسه أو لغيره : طول البقاء فى هذه الدنيا ، كأنما كل خير يجيء رديفا لذلك ، وان كان الاغلب والارجح أن يكون الرديف لطول العمر صنوفا من البلايا وألوانا من الشقاء • والبقاء مهما طال محدود ، وان المرء ليعلم أنه مهما امتد به الاجل ملاق حينه لا محالة • ولكنه يتشبث بالحياة ويتعلق بالامل فيها ويشق عليه أن يفارقها ، ولم أر قط فى حياتى سوى رجل واحد خيل الى أنه يشتهى الموت ويروم أن يفر من الحياة ، وكانت آلامه أوجع من أن يحتملها الرجل العادى ولكنه ظل مطيقا لها قادرا على الصبر عليها كفؤا لمغالبتها وكتمان ما يعانى منها حتى خيب الله أمله فى ابن له كان مرجو المخايل ، فتضعضعت نفسه وتقوضت معاقل جلده ، وحملت عليه الاوجاع كأنما هى مخلوق حى فيه عنف وقسوة وحقد وله أظافر وأنياب ، فعجز عن المقاومة وتحلل المبرم من عزمه الذى كان يمسك به روحه وشاع الضعف والخور فى نفسه وارتد تعلقه بالحياة زهدا فيها وكراهة لها ، وكان قوام عزمه الامل والذكرى فانتسخ الامل وصارت الذكرى من أجل ذلك لا تطاق ، وكان من قوله لى وقد رنقت فوقه المنية

« اننا فى الحياة نبذر ونحصد ـ نزرع ونجنى ـ فاذا فاتنا أن للحصد ما زرعنا حين يربو ويهتز ، فاننا بعد ذلك نحصده ذاويا

أو مسمما ، ولسنا نعيش في الحقيقة وانما نحن نحلم ، وقد شاء ربي أن يجعل حلمي حلما لا يمكن أن يحياه المرء . وكان ظني أن يعوض ابني كل خسارة ، ولم أكن أخشى الموت على شيء لما كان لي أمل فيه ، والآن ... يجب أن أقتصد ... واسرع الى ماينتظرني وأبغيه ... »

وكف عن الكلام وأخذ الاصفرار ينتشر من جفـونه على وجهه وينسدل كالستار ، وخيل الى وأنا أنظر اليه وأراعيه وهو صامت مطبق الشفتين في اصرار كأنما روحه جنين يريد أن يولد . وكانت عينه الى النافذة كأنما عند زجاجها العون الذى يبغيه ، وبدا لى من هيئة وجهه أنه يحاول أن يعزل نفسـه عن الاوجاع التى تنتاب جسمه ، وأظن هذا قد وسعه ، فقد كان يرخى عينه عن النافـذة ويصوبها الى ساقيه ، وكأنهما لجسم غـير جسمه أو كأنما كان يعتصر من آلام هذا الجسم الغريب راحة كالتى يشعر بها المحموم لامسته يد باردة .

ثم قال « لقد تغيرت ـ كيف ؟ لا أدرى ! ولكن أنفاس هذا التغير على وجهى كالنسيم ، وحرارته فى روحى كالشمس فى الثمرة التى لا تزال على غصنها ، وطعمه في فمي وعلى شفتى .. ولا أحب أن أحرم هذا الشعور الجديد .. كل ما لقيت وبلوت فى حياتى قـد صار خيالا غامضا . ومتى آن أن أقضى نحبى فانى أحب أن يكون ذلك فى سلام وسكينة وأن أكون فى تلك اللحظة وحدى . لا أريد أن يرانى أحد وأنا أجود بأنفاسى ... فاذهبوا عنى واحسـبونى ميتا من الآن ... »

والايام هى التى تروض الانسان على السكون الى المـوت ، ذلك ان المرء فى صدر حياته يكون فيض حيويته عظيما فلا يستطيـع أن يفهم هذا الموت ولا يسعه أن يأنس اليه ، ولكن المرء يجف شيـئا فشيئا وتنضب حيويته على الايام مع ارتفاع السن ، فتقرب الشقة ويتدانى مابين الحياة والموت ويزول الشعور بالاستهوال والتنافى . ولم الاستهوال وقد جرب المـرء فى نفسه موت الآمال والاهـواء والرغبات ؟ والحياة وقعها تبليد ، وفكرة الموت لا تزايل المرء أبدا ،

ولكنها فى الشباب تـكون كامنة فيما وراء الوعى ، ومـــع الاعياء والكلال والفتور تبرز الفكرة شيئا فشيئا وتتسع وتنتشر ويزداد استيلاؤها على النفس والخاطر ، فيألفها المرء من طول النظر اليها وان ظل بغريزته وبفضل شــعوره بذاته نافرا منها ، ثم ينهب يغالط نفسه فى حقيقتها ويتصورها مجازا ومعبرا وغير ذلك ليقوى على احتمالها وليرضى شعوره بذاته وليسكن اليها ٠

* * *

وما أكثر ما تعابثنا الذاكرة ، ذلك انى كلما بسطت يدى لتعزية أحد ، لا أزال أذكر حادثة وقعت لى وأنا فى السادســـه عشرة من عمرى أو حوالى ذلك ، وكنت فى ذلك الوقت تلميـذا ، فتـــوفى بعضهم فى البيت الذى أنا ساكنه ، فلما عدت من المدرســة رأيت السرادق والمعزين والفقيه على دكته يتلو سورة من القرآن الكريم، وكان الوقت شتاء والبرد شديدا فقلت أصافــــح جارى وأعــزيه وأمضى الى مسكنى بلا توقف أو تلبث ، وكان الجـــار واقفا فى مدخل السرادق ، فقصدت اليه ومددت يدى مصافحا وقلت بصوت خفيض من فرط الحياء من هذا الموقف الذى لم آلفه :

« عقبال كل عام ان شاء الله (١) »

ولم أكن أقولها حتى عضضت لسانى ، وارتج على فلم أدر ماذا أقول غير ذلك ، وارتبكت واضطربت وبلغ من سوء حالى أن ظللت قابضا على يد الرجل لا أدعها تفلت كأنما سمرت كفى الى كفه ، وهو ينظر الى مستغربا طول شدى على راحته ، ثم يعود فيهز يـــدى ويتلفت كأنما يطلب نجدة أو يلتمس عونا على هذا الصبى المجنون الذى تعلق بكفه كالقرد ولا يريد أن يتـــخلى عنها ويتركها ، وأنا أفكر فيما قلت وأتصور فظاعته وأخشى أن يكون قد سمع ولا أجرؤ أرفع وجهى اليه مخافة أن أقرأ فيه آيات الاستبشاع والنقـــمة ، ولا أعرف ماذا أصنع وبعد لأى ما خلصت يدى من يده ــ خلصهـا هو بنزعة قوية مباغتة كادت تطرحنى على الارض ، فاتقيت الوقوع بالاتجاه الى الباب ، فلما بلغته رحت أعدو ٠

١ ــ عقبال عاميه وأصلها عقبى لك أو له الخ

وليس « عقبال كل عـام ان شاء الله » بالـــذى يتمناه الانسان فى مثل هذا المقام ، ولكنها كلمة تمثل الواقع الا تكن أمنية لائقة ، فما تدور الاعوام بغير هذه المنايا الدائبه ، واذا كان اللسان قـــد غلط فقد أصاب الهام الوجدان ٠

وحادثة أخرى أذكرها فى هذه المواقف ٠ فقد كانت لأبى عمـة تقيم معنا بعد وفاته ، وكان عندى « قفطان » جـــديد أبيت الا أن يكون لى ، لغير علة مفهومة ، فما كانت « القفـاطين » مما ألبس أو يلبس التلاميذ ، وأحسبها نزوة صبيانية ، ولم تشأ أمى ان تخيب رجائى فأجابتنى الى ما طلبت وحققت لى أملى ، فلما صار عنـــدى القفطان أهملته ولم أرتده ، حتى ماتت عمة أبى وتوافد المعـــزون على فناء البيت وكان رحيبا ـ أعنى الفناء ـ فذكرت القفطان الجديد المهمل الذى لم أضعه مرة واحدة على بدنى الا يوم قسته وهـــو يفصل ، فأخرجته من خزانته ولبسته وجعلت أخطر فيه مزهوا به بين الناس كأنى فى عرس لا فى مأتم

ولست أدرى لماذا لا تخطر لى الا هذه الحوادث الصبيانية كلمـا لقيت محزونا ، وصحيح ان الشىء يذكر بالشىء ، ولكن لماذا لايذكر بغير ذلك مما لعله أكثر مواءمة لمواقف الاسى وأشبه بمـــا يتطلبه المقام ؟؟ أحسب جواب ذلك يحتاج الى العـلم بما تجن النفس فيما وراء الوعى ٠ وأين من يستطيع أن يثنى عينه الى هذا الكهف ويدير نظره فى ظلامه على ما فيه ؟؟



Obeikandi.com

# فى الحلم

كان هذا منذ عشر سنين ، ومع ذلك تذكره كأوضح ما كان ، وترويه كأنه ما تراءى لها الا البارحه ، ولا تصنع ما يصنع سواها من بنات حواء فلا تذهب تزيد عليه ولعلها تنقص منه ، فقد كان يعوزها الخيال المسعف ، ولم يفتر تعجبها منه على رغم السنين والاعادة المذيلة ، فهو عندها أبدا طريف مصقول لا تكبو له لمعة ، غير أنها - وان كانت لم تمل القص ولم تسأم التكرير - لا تتطوع لذلك ولا تأخذ فى حديثه حتى تسألها ، وربما احتاج المرء أن ينبه احساسها ويوقظ شعورها ويهز نفسها ليحييها قبل أن يجرى لسانها بكلام فى حلمها القديم ، فقد أذوتها الايام وأذبلها طول ماتأيمت وتعنتت ولم يبق لها شيء رابيا رفافا سوىحلمها ومخلوق خيالها الذى بدا لها فيه .

وكانت يومئذ قد شارفت الاربعين وتخطتها أخواتها الصغريات وخلفنها عند أبيها تريكة لا خاطب لها ولا طالب ، فأيبسها الفقر الى الـذى لينهن ، ونضب ما كان يترقرق فى وجهها من نضرة ، وجف عودها ونشف ، وصارت ممصوصة كأن بها داء يخامرها ، ولاذت بالتستر واشتد تحجبها وآثرت العطل، وامتنعت عنالتزين والتطيب ولم تعد تتخذ الا الحناء تخضب بها قدميها. والا المكحلة والمشط ترجلبه شعرها قبل النوموفى الصباح . ولمتكن قارئة ، فوقتها تقضيه - بعد الفراغ من أعمال البيت - فى وجوم وسهوم، حتى تنقذها منهما زائرة من صواحبها أو قريباتها

وكانت ، ليلة الرؤيا ، قد أوت الى مخدعها قبيل منتصف الليل بقليل ، فقد كانت صغرى شقيقاتها وزوجها عندها فطال الحديث ، فلما انفض السامر بدا لها - زيادة فى الحفاوة بهما - أن تعد فى الليل ما يحتاجان اليه فى الصباح ، ثم دخلت غرفتها وانحطت على كرسى أمام مرآتها لتمشط شعرها وكان مفلفلا يحتاج الى تسريح

كثير وتبليل لتخف جعودته على المشط ويسترسل بين أسنانه ٠ وكانت تفكر فيما أسرت به أختها اليها ، فقد دخلت عليها المطبخ وأنبأتها بصوت خافت أن أخا زوجها الأكبر قد مل العزوبة واحتاج الى من تتعهد له بيتهوتدبر شؤونه وتعفيه من هذه التكاليف التى لا يصلح لها الرجال ، وأنها أوعزت الى زوجها أن يشجعه ويلفته الى أختها أى الى صاحبتنا فوعد وبر وأنجز يوشك أن يكون ما فيه الخير ان شاء الله ٠

فلم تجب المسكينة بحرف ، وعقل لسانها الخجل ، وألقت الىأختها نظرة فيها من الشكر والحزن والسرور والالم معان ، وكانت أختها ذكية ففطنت الى ما يضطرب به صدرها وأمسكت عن الاسترسال وقامت عنها وخلفتها لخواطرها ، فلما صارت المسكينة وحدها فى غرفتها وأمنت أن لايزعجها أحد ، جعلت تنظر فىالمرآة الصقيلة الى صحيفة وجهها وما شرع الزمن يخط فيها ويجرى عليها ، ثم تنهدت ونهضت فاستلقت على سريرها ٠

ورأت فى الحلم أنها ما زالت أمام مرآتها تصلح شعرها وتسويه ، وقد انقلب بقدرة ربها فينانا ، كما ارتدت هى فتاة لبقة رطبة العود حسنة الدلال ، وكانت ساعة بدت لنفسها هكذا تتلفت باحثة عن أنشوطة ارجوانية لضفيرتها واذا بعينها تقع على فتاة تراهق العشرين وضيئة الطلعة ريا الجسم ، فى منامة ( بيجامة ) قرمزية مخططة تبدو فيها كاسية كعارية ، وفى يمناها ـ بين اصبعين ـ سيجارة وهى جالسة على كرسى وقد وضعت ساقا على ساق ، وراحت تنفخالدخان فى اطمئنان وتراعيه وهو يتلوى ويصعد ثم يشيع فى جو الغرفة ويعقد فيه مثل السحابة الرقيقة ٠

فانتفضت قائمة وصاحت بمن حسبته غلاما :

« كيف جئت الى هنا ؟ »

فثنت الفتاة اليها جانب وجهها وقالت :

« ألا تعرفنى من أنا ؟ ابنتك ! »

وأدنت السيجارة من شفتيها الرقيقتين وقالت وهى لا تنظر اليها:

« كيف لم تعرفني وأنا بعضك ؟؟ ولكنك لم تجيئي بي بعد ، فلك العذر ».

فقعدت « الأم » وقد أراحها ان الجالسة فتاة لافتى ، واستغربت انها لاتستغرب ، وان انكارها فاتر لوجود هذه الفتاة المتبرجة الطوافة بالليل في بيوت المحصنات .

وسمعت الفتاة تقول « انك أمي ـ أعني بحسب ماسيكون ـ وأنا ابنتك المنتظرة . سأكون هكذا ( وأسالت على جسمها نظرة واشارة بيديها ) بعد عشرين سنة من ميلادى .. كما ترينني الساعة .. ألا أعجبك يا أمي ؟ »

فصرخت « الام »

« امك ياوقحة ياقليلة الحياء ؟ أتشتمينني ؟ »
فابتسمت الفتاة وقالت

« لاموجب للغضب ياحبيبتي . ويجب أن تروضي نفسك على سعة الصدر وطول الاحتمال ... ولا بأس من الايضاح فان النبأ مفاجيء والزيارة مباغتة . كل ماأعنيه ياحبيبتي انى سأكون بنتك بعد أن تتزوجى ... تتزوجيه .. حسن افندى ... هيه ؟ »

فعادت الام تصيح

« كيف تجرئين على هذا الكلام ؟ »

وراعها أن هذه الفتاة الغريبة غاصت على أخفى مافي خاطرها واستخلصته وأبرزته لعينيها . غير ان هذا لم يسؤها وان كان قد أدهشها العلم به والكشف عنه . وشردت وهى تفكر في هذا وتعجبت ، وتذكرت النبأ الذى همست به اختها في أذنها في المطبخ ، غير انها استقبحت جرأة الفتاة على كل حال ، وكأنما أدركت الاخرى هذا كله فقالت :

« لقد نسيت انك من جيل سابق عتيق الآراء ... »

فقاطعتها الام بسؤالها عما تعني فقالت على سبيل التفسير

« ان جيلنا ياحبيبتى لايعرف هذا الحياء الكاذب ولا يخجله الكلام فى المسائل الجنسيه »

فبدا على الام انها غير فاهمة ، وهزت الفتاة رأسها وقالت :
« لاأدرى كيف أقول ؟؟ انك ياحبيبتى جاهلة جدا لاتعرفين حتى مبادىء القراءة »

ونهضت تتمشى أو تخطر ، ويمناها فى خاصرتها ، وكان الثوب محبوك التفصيل منسجما على بدنها الرخص لاصقا به ، فبدت خطوط جسمها ومحانيه ، وبان ما أشرف من الصدر والظهر ، ولم يخف ما أطمأن ، فكأنه ملبوس للتعرية لا للستر والكسوة ، وكانت ( الام ) تتبعها بنظرها وهي ذاهلة ، ودنت الفتــاة منهـا واراحت أطراف اصابعها على كتفها وهمت بكلام ، غير ان الام نحتها عنها وهي تقول:

« ألا تسترين ذراعك ؟ اني أخجل أن أنظر الى عريه ! »
فابتسمت الفتاة ابتسامة العارف المتسامح وقالت :

« ماذا يخجلك من العرى ؟؟ هل فى الجسم الانسانى عيب ؟؟ ان كل مافى الامر أن طول الستر يجعلكن تستغربن الكشف • على انك ستألفين ذلك شيئا فشيئا ••• على الايام ... ولا تعودين تنكرين سلوكى أو تستقبحين مظهرى ••• وسترين أن كل بنات جيلنـــا وأبنائه هكذا ••. لافرق بين فتى وفتاة .. لاخجل من الطبيعة ،ولا خنق لغرائزها باسم الكاذب ولا انكار لوحيها ، ولا تشويه لسنتها ولا افساد لقوانينها بدعوى الاصلاح والكبح ، وقد تعلمين انالاعتراف بالحقائق الطبيعية يجعلها مألوفة ويفقدها السحر الذى تحسونه فى جيلكم ، فلا يبقى موجب لتكلف الكبح لانه لااسراف هناك ولا جماح ••• ولكننى أتكلم بما لاتفهمين ، فمعذرة ••. ستألفين مظاهر هذه المعانى كلها وان بقيت ـ لاتفهمينها ••• »

فقالت « الام »
« ولكن شعرك ؟؟ أغلام أنت حتى تقصيه هكذا ؟ وهذه السجاير أيضا ؟ اني لاأكاد أطيقك ! بنتى ! تقول انها بنتى ؟ لو كنت بنتى لخنقتك »

فضحكت الفتاة ضحكة اهتز لها كيانها كله وقالت »

« وما الفرق بالله بين الفتى والفتاة ؟؟ انه فرق فى التفاصيل لافى الجملة وفى الفروع لا الاصول ، وفى المظهر لافى الجوهر • لقد مضى الزمن الذى كانت فيه الفتاة للحمل والوضع ، والفتى للسعى والكسب • وانا لنحمل ونضع ، لكن هذا بعض ماتقتضيه الحياة المشتركة ، وليس هو بوظيفة تقتصر عليها المرأة من بنات جيلنا ، والرجل شريكهما وعونها فى ذلك حين يريدان النسل ويطلبانه ، وهى شريكته وعونه فيما عدا هذا أيضا ، فلماذا يكون لكل منا لباس خاص ومظهر منفرد ؟؟ أما الدخان فانى آسفة اذا كان يضايقك ، وسأعلمك التدخين بعد أن أجىء الى الدنيا وأكبر ، فعليك أن تحتملى الان ماوسعك الاحتمال »

وتلفتت كأنما تبحث عن شىء ثم قالت بلهجه الاسف :

« تمنيت لو أن عندك قليلا من النبيذ أو الشمبانيا •• ولكن جيلك لاعهد له بهذه الاشربة ، ومن يدرى ؟ لعلك لاتعرفين حتى أسماءها لابأس لابأس • ولكنى أتكلم وحدى كأنما أحدث نفسى • أفلا تقولين أنت شيئا ؟ هيه ؟ »

فلم تدر « الام » ماذا تقول ، وأحست باشمئزاز يخالطه حنان ورقة لهذه الفتاة العجيبة ، وهمت بأن تدفعها عنها ، غير أن شيئا عصر قلبها فمسحت لها رأسها وهى تستغرب من نفسها هذا الحنو ، فقالت الفتاة :

« هذا أحسن • يظهر أن الامل كبير فى أن تصفو لى الحياة معك • واذا استطعت أن تجنبى الجدل السخيف وأن لاتحاولى صد تيار الحياة ، فانك خليقة أن تصبحى فخر الامهات • وعلى ذكر ذلك أرجوأن تسرعى ، فحسبك انك أبطأت على كل هذا الزمن • »

فلم تفهم « الام » وسألتها

« عن أى شىء تتكلمين ؟ »

فقالت الفتاة « كنت أرجوك أن تعجلى فقد مللت الانتظار »

فعادت الام تقول :

« انتظار أى شىء ؟ لست أرانى أفهم شيئا »

فقالت الفتاة

« انتظار ولادتى ... الا تفهمين ؟ انى لم أولد ولم أوجد ... لم أخلق ... وقد سئمت . أتحسبين أنه يروقنى أن أظل سنة بعد سنة متأهبة مستعدة للانحدار الى الدنيا وملاقاة ماينتظرنى فيها ، ثم تمضى السنوات واحدة بعد واحدة ، وأنا لاادعى ؟ أتظنين أن من الهين أن أحبس عباب الحياة الزاخر فى نفسى والذى يريد أن ينطلق؟»

ونظرت الى الساعة المعلّقة ثم قالت

« لقد أذهلنى الكلام عن الوقت ، فيحسن أن أنصرف ، فأوصّيك بالاسراع ، فان الانتظار ثقل على نفسى »

***

واتجهت نحو الباب فدفعت «الام» ذراعها وراءها لتمنعها من المضى وتسبقيها ، ولكنها صادفت عمود السرير فانتبهت على ألم ، وأقبلت تتلفت وتفرك عينيها ، ولكنها لم تر شيئا . فقد ذهبت فتاة حلمها ــ كما جاءت ــ ولم تعد بعدها ، لافى الحقيقة ولا فى المنام

# رجل غريب

لهذا الرجل قدرة نادرة على مايسمونه « قراءة الافكار » ، ولست أعنى أنه ممن يشتغلون بذلك ويدجلون أو يشعوذون به ، فلعله لايدرى أن له هذه الموهبة ، ولو درى لكان الارجح فى الظن أن يبدى للناس من آيات قدرته أكثر مما يخف عليهم حمله ، وانما أعنى أنه يكون معك فيباغتك بالرد على مايدور فى خاطرك أو الاشارة الى مايهجس فى نفسك • كنت مرة مدعوا الى حفلة استقبال ، وليس أبغض الى ولا أثقل على نفسى من أن أرانى فى حشد كبير من الناس، ولا أعرف سببا لهذا النفور ، ولكننى أحس ـ اذا جالست قوما فيهم من لا أعرف كأن يدا تأخذ بمخنقى وتضغط ، فلا أزال أفكر فى الهرب وأحتال للفرار حتى أجد السبيل اليه ، وفى هذه المحافل يكثر التكلف والتصنع، ويغلب الدهان والملق، والتأنق والترقق والتطرى والتظرف ، ولا سيما اذا كان المجلس « تزينه » المرأة • فترى الرجل يتثنى ويتلوى ،ويلج فى الابتسام السخيف ،ويحاول أن يبدو للمرأة أصغر وأرشق وألطف ، ويتحرى أن يكون كلامه موافقا لاأن يكون صحيحا أو صادقا ويزيد المرأة غرورا بنفسها بالثناء الكاذب عليها وبالضحك المتعمل كلما فتحت فمها بما تظنه فكاهة ، ويتحبب الى العجوز الحمقاء من أجل فتاتها الحسناء ، ويتملق الزوج ويظهر له الصداقة المفاجئة ليضمن أن يرى زوجته مرة أخرى ، أو أن يدعى الى بيتهما ، أو أن يرافقهما وهما خارجان ، وعلى الجملة يخيل اليك فى هذه المحافل أن المرأة هى محور الوجود وقطب الرحى فى الحياة ، وأن لا عيش الا بها ، وأن الدنيا لم تخلق الا لها ، وان الرجولة فضول ، وتنخدع المرأة بذلك وتسلس من عنانها وتؤاتى الرجل ، فاذا به يفتر عما كان يعالجها به من الخديعة ويحاورها ويداورها به من الكذب والملق والتلطف ، ويضمن بما كان يكيله لها ويغدقه عليها من ألفاظ التحبب وعبارات الثناء والاعجاب • فلا أدرى أيهما أحق بالاحتقار : سفالة الوسيلة الى المرأة أم غفلتها هى : قبح الله الاثنين !

على أنى كثيرا ما قلت لنفسى أنلا داعى للنفور من مثل هذا الحال فان الجمال سلاح المرأة فى الحياة ولا سلاح لها سواه ، ولا جمال فيما يحس المرء اذا لم يكن ثم اعتراف به واقرار له ، فبالمرأة حاجة الى هذه «المظاهرة» من الرجال ، وخير الاعتراف وأوقعه فى النفس ما كان على ملأ من الناس ، وأبلغ ما يكون وأعمقه أثرا فى نفس المرأة اذا شهدت الاعتراف امرأة أخرى ، ولكنى مع ذلك قلما وجدت لى صبرا على تملق المرأة ولا أعرفنى قط أثنيت عليها فى وجهها

ونسيت أمر الدعوة ، واتفق مع ذلك أن ذهبت زائرا ، فاذا ضجة عظيمة ، فتذكرت ، وعجبت لالاعيب الذاكرة ، فأنا أنسى أنى مدعو الى حفلة ولكنى مع ذلك أحس دافعا قويا الى أداء الزيارة وقد دخلت متباطئا ثم وقفت فى زاوية أنظر وأفكر فى وسيلة للخلاص ، فلم يفتح الله على بشىء ، وأقبل الخادم على وكان يعرفنى ولا يخفى عليه كرهى لهذا الزحام ، فحيا وسألنى « هل أجيئك بالشاى حيث أنت؟ أم تفضل عصير الليمون ؟ »

قلت « لا هذا ولا ذاك . ولكن دلنى على طريقة أنجو بها »

قال « سيدتى لا تعلم انك هنا »

قلت « اما من طريقة أخرى غير الانسحاب ؟ »

فهز رأسه وابتسم ، فصرفته وقلت ان الشجاعة نصف الظفر وتقدمت لتحية السيدة ، وكانت جالسة وفى يدها مروحة وحولها رجال تحدثهم وسيدات يصغين ، ولم أجد فراغا أنفذ منه اليها على قلة ما احتاج اليه من ذلك ، فوقفت وقد عاودنى خاطر الانسحاب فاذا بالرجل الذى أشرت اليه يضع يده على كتفى ويقول :

« انها لا تراك فاهرب اذا شئت »

ولم يكن وجهى اليه ، فلعله قرأ ما يدور فى رأسى مسطورا على قفاى !

وحديث هذا الرجل متعب ، لأنه دائم التنقل أو التوثب من موضوع الى موضوع وقد تلقاه فينسى أن يحييك ، ويغفل الرد على

تحيتك ، ويخوض معك فى الحديث الذى يريده ، ثم يقطع الكلام ويحيى ويصافح ، ثم يستأنف الحديث من حيث انقطع أو يطرق موضوعا جديدا .

لقيته مرة فلم يعبأ بتحيتى ولا جعل باله الى يدى الممدودة لمصافحته ، فهوت ـ باردة ـ الى جنبى ، وقال :

« هل وصل الى مصر كتاب المستر ويلز الجديد «صورة ما سيكون»؟ ان هذا الرجل جامح الخيال ، وأرى كتبه لهذا ممتعة وان كانت تدير الرأس . وعلى ذكر ذلك نهارك سعيد ـ كيف حالك ؟ »

ومد يده للسلام على ، ولا أعرف أى شىء فى ويلز أو كتبه اذكره بما كان ناسيا من ذاك ، ولكنه هكذا أبدا ، ولم ينتظر جوابى فمضى يقول :

« لك جار هنا لا بأس به ، فاذا شئت فلنزره معا ... فى وقت آخر ... لا تصدق ياصاحبى أن من الممكن أن تقوم حرب جديدة .. ان هذا بعيد جدا فما أفاقت الامم من الحرب الكبرى ولا نسيت أهوالها وزلازلها »

واظن هذا رجوعنا منه الى موضوع ويلز الذى يتنبأ بحرب أخرى . وتلك عادة صاحبنا : يترك الموضوع ويثب الى سواه ثم يعود اليه فجأة وبلا مناسبة ظاهرة ، فانت معه فى عناء دائم لأن عليك أن تتابعه من غير أن تنسى ، وأن تكر معه حين يكر آيبا الى ما ترك . وقد يغيب عنك أسبوعا أو شهرا أو عاما فاذا لقيك استأنف الكلام من حيث تركه آخر مرة ، وهو يتوقع منك أن تكون معنيا مثله بما يفكر فيه مسايرا له فى التفاتات ذهنه ووثبات خاطره .

كنت مرة أتمشى على جسر قصر النيل كما كان يسمى قبل أن يبنى الجسر الجديد الذى يدعى الآن كوبرى إسماعيل ، وكان معى صديق لى ، فاذا بصاحبنا يعدو الينا من الافريز الآخر وهو لا يبالى السيارات المتلاحقة حتى اذا صار أمامى قال بلا تمهيد أو ايضاح

« خمس سنوات ومائة .. حسبتها . »

وكر راجعا الى الافريز الثاني حيث وقف اخوانه ينتظرونه

ولم يكن صديقى يعرفه ، فنظر الى بعد أن أطال النظر الى ظهره وهو يولى عنا ، فقلت له مفسرا

« ان به بعض الشذوذ ، ولا شك انه يشير الى حديث سابق لنا ولكنى أنسيته وبقى هو يذكره فلما رآنى أحب أن يلقى الى نتيجة هذا الحساب »

وليس له فى الثياب أى ذوق ، فهو يضع على بدنه ما يجده ، وكثيرا ما يتفق أن يكون البنطلون من بذله والجاكتة من أخرى والصديرية من ثالثة ، فما يحفل هذا الاختلاف ، وقد ينسى ربطة الرقبة فاذا نبهته لم يكترث ، وله أخ يشكو منه انه دائم الغلط معه فى أمر الثياب ، فقد يجد بذله لأخيه فيلبسها له ، وكثيرا ما سطا على أحذيته غير متعمد ، وقد رأيته مرة لابسا جوربين مختلفين ، فابتسمت ولم أقل شيئا ، وربما لبس سترة ردنجوت على بنطلون أبيض ، أما طربوشه فليس له وضع معروف ، ولا استقرار له أبدا، فتارة يكون مائلا الى اليمين وتارة أخرى الى الشمال ؟ وطورا يرده الى الوراء وزره الى الامام ، فاذا حطه عن رأسه ــ وكثيرا ما يفعل ولا سيما حين يجلس ــ فان أصابعه لا تكف عن العبث بخيوط الزر، حتى لقل أن يبقى منها سوى خيطين او ثلاثة ٠

ولم يتزوج قط لأنه قليل الصبر على المرأة شديد المقت لها ،وأين المرأة التى تستطيع أن تعايشه ؟؟ ومع ذلك يضطرم وجهه ويلمع فى عينيه نور البشر اذا أطرته امرأة !! وهذه النقائص التى لا أعرف لها تعليلا يستريح اليه العقل ، ومن غرائبه أنه مشغوف بالأطفال الذين لا يتجاوزون الخامسة من العمر ، وما لقى فى طريقه طفلا الا وقف يلاعبه ويضاحكه وقل أن يتركه من غير أن ينفحه بقرش أو يدع له منديله بعد أن يجعله على صورة الارنب ، أو يخرج من جيبه ورقة ــ أى ورقة ولو كانت لازمة ــ يصنع منها زورقا أو مدفعا أو غير ذلك٠ وقد عرفه الاطفال فى حيه وأحبوه ، فهم أصدقاؤه ، وأسعد وأصفى أوقاته هى التى يقضيها مع هؤلاء الصغار الذين يسميهم « عصافير الجنة » فاذا ذهب الى بيته أقبلوا عليه وتعلقوا به ودخلوا معه ٠

فيعطيهم مما عنده يلاطفهم ويداعبهم . وما أظنهم يطيعون آباءهم كما يطيعونه . وليس أبغض اليه من البكاء . ولهذا زجر أطفاله عنه . وعودهم أن يحتكموا اليه كلما شجر بينهم خلاف أو اعتدى منهم واحد على الآخر ، وآباؤهم يعرفون ذلك ويرضون عنه . وقد اتفق مرة أن لقيه والد أحدهم فاستوقفه ليشكره . فلم يكد يسمع الكلمات الاولى حتى انصرف عنه

# ضارة نافعة

«لو علم أحدكم الغيب لاختار الواقع» .

أى والله يا سيدى !

ولكنى لا أعلم الغيب ، ولم يكن لى فى الامر خيار ، ولو أنى كنت مخيرا وكان لى رأى أو ارادة ، لاثرت أن أقضى ليلتى تلك أغط فى نوم عميق لا حلم فيه ، فان «كل نومة وتمطيطة ، أحسن من فرح طيطة» كما جاء فى أمثالنا الحكيمة ، ولا أعرف من يكون «طيطة» هذا أو هذه ، فما سبق لى أن تشرفت بمعرفته أو رؤيته ، ولم يقسم لى أن أشهد «فرحه» ولكن الذى أستخلصه مما حكوا عنه أن «فرحه» كان هائجا مائجا كليلتى تلك

وكنت فى نهار ذلك اليوم المنحوس قد أغرانى الشيطان الذى أطلقه تمرده علينا ، بأن أستحم فى البحر ، وأنا كما تعلم ، أو لا تعلم ، أكره أن أكون فيه – أى فى البحر – وان كنت أحب أن اركبه ، فما أحسن من السباحة سوى الغوص ، كقريعى المسكين ابن الرومى ، وأنا فيه – أى الغوص – أبرع وأسرع من حجر . فاشتريت ثوب استحمام أزرق ، أعنى أن الثوب هو الذى كان أزرق ، ونزلت الى الماء ممسكا بالحبال وغطست غطسات وجعلت الحبل تحت ابطى ورحت أضرب برجلى ويدى وأقلد السابحين الذين كانوا فى الماء كالسمك ، وكان فريق منهم يتقاذفون كرة فجعلونى هدفا لها ، وكأنما كان لهذه الكرة العظيمة عينان ترى بهما ، فما أخطأتنى قط ولا مرة واحدة ، وكأنى بها لم يعجبها أنفى فقد كانت بادية العناية بتسويته ، ورأيت قطرات من الدم النازف على وجه الماء فقلت أرجىء بقية العلاج أو الاصلاح الى يوم آخر ، وارتددت الى اليابسة ، وارتميت على الرمال البليلة وأنا ألهث حتى اذا استرحت وانتظمت أنفاسى ، قنعت بأن أستحم بعينى ، قياسا على دفع المنكر بالقلب اذا عز دفعه باليد أو العصى أو الرصاص .

وكانت قبالتي فتاة مصريةرشيقة تحادث شابا غير رشيق ، وكنت مصروفا عنها بما أصاب أنفي من الكرة ، ولكنني سمعت الفتاة تقول كأنما في صحراء مقفرة

«أترى هذا المخلوق ٠ ٠ انى لم أر فى حياتى أقبح من وجهه ٠٠» فقال مقاطعا

«اسمعى ٠ ان هذا لا يليق ٠ ٠ فقد يسمع ٠ ٠»
فقالت

«يسمع ؟؟ من هو الذى يسمع ؟؟ أمن أجل أنله أذنين‌طويلتين كأنقاب الحمير ، تظنه يسمع ؟؟ ومع ذلك أنا واثقةأنه غيرمصرى٠٠ ان هذه السحنة المنكرة لا يمكن أن تكون لمصرى»

ولم يكن هناك غيرى فى دائرة قطرها فرسخ ، فلاشك أنى‌كنت المعنى بهذا الثناء الجميل ، وهممت بأن أرفع يدى الى أذنى لارى‌ماذا فعلت الكرة بهما حتى بططتهما وأصارتهما كأنقاب الحمير طـولا ، ولكنى ذكرت أنى فيما ترى الفتاة غير مصرى ، واشتقت أن أعرف بقية مزاياى التى خفيت عنى ٠

وقال الشاب محتجا

«ولكن مالنا وماله ؟ انه لا يعنينا ، ثم انك قد تكونين مخطئة ، أعنى قد يكون مصريا فان لونه أسمر»

فقالت « أسمر ؟؟ تقول أن لونه أسمر ؟ أعوذ بالله ! هذا لون النحاس‌علته‌من الصدى طبقات‌سميكة٠٠٠وتأمل أنفه ! ياحفيظ٠٠ هذه طلمبة ٠٠٠ أوه ٠ وانظر الى ساقيه ٠٠ أى حق لانسان فى أن يكون له مثل هذا الجسم الدميم ؟ ؟»

فقال الفتى « ولكن ياتوتو هذا عيب ٠٠ ليس لك حق ٠٠ ثم انه ليس دميما الى هذا ٠٠٠ »

وأقول أنا الحق ، لقد أحببت هذا الفتى‌المنصف ، وأذهلنى‌اعجابى بأدبه ومروءة نفسه وكـرم روحه عن حرقات الحقـد التى هاجت فى

صدرى على هذه الفتاة ، ووددت لو ظلا يتكلمان وأنا أسمع ، فان صوت العدل خفيض فى هذه الدنيا ، ولسانه قطيع ، ولكن الفتى جذبها وهو يقول

«تعالى ... تعالى ...»
ومضى بها .

وما كادا يغيبان حتى عدوت راجعا الفندق ، فرميت ثوب البحر وارتديت بذلتى ثم أردت أن أصلح شعرى المنفوش فنظرت فى المرآة .

لقد كانت الفتاة على حق ، وكنت أنا ظالما لها متجنيا عليها ، فما عدت أعرف وجهى بعد ان غيرت الكرة معالمه ونكرت معارفه .

***

ولم يمنعنى هذا أن أخرج وأن أجوب المدينة وأجالس الاخوان وأسامرهم ، الى ما بعد نصف الليل ، ثم عدت الى الفندق فلم أر أحدا فى ابهائه فقصدت الى المصعد ودخلته وانى لاهم بأن أغلق بابه واذا بفتاة تدخل ورائى مسرعة وهى تقول

«خذنى معك ... انى فى الدور الرابع»
ولم أكن أضأت النور فى المصعد ، فلم أر وجهها ولـكنى عرفت صوتها فارتعت ، وتنحيت لها حتى دخلت وجلست ثم أوصدت الباب وضغطت الزر وأنا أقول «أنا أيضا فى الدور الرابع»

وتحرك المصعد ، وأنا واقف ووجهى محول عنها ، وفى مأمولى أن تخرج من غير أن تلتفت الى ، غـير أن النحس كان ملازمى فى يومى ذاك ، فوقف المصعد فجأة قبل أن يبلغ عتبة الدور بأكثر مـن متر ، فلا هو بلغها ولا هو وقف عند دور آخر ، وكنت قد تركت المصباح الكهربائى مطفأ ، فقالت :

«ماذا جرى ؟ ؟»
قلت «لا أعلم ... انه على ما يظهر ...»

قالت «على ما يظهر ؟ ؟ ماذا تعنى ؟ هل عندك شك ؟»

قلت «كلا ··· انما أعنى ···»

قالت « أين زر المصباح ··· ان هذا الظلام لا يطاق»

قلت «لا أعرف مكانه ، ثم انى أعتقد انه ليس هنا مصباح···»

قالت «لا تكن غبيا ··· أنر المكان واجلس لنفكر فيما يجب أن نصنع»

قلت «ان الواجب علينا الان أن نعمل لا أن نتكلم ، وأنا أقترح ···»

فقالت مقاطعة
«اجلس أولا فانى لا أستطيع أن أحادث ظهرك»

قلت «هو خير من ··· وجهى»
قالت «من هو ؟»

قلت «ظهرى»
قالت «ظهرك ؟ ماله ؟»

قلت «نعم»
قالت «ماذا تقول ؟ ما خطبك ؟»
قلت «أ أ ··· لا أدرى ، ولكنك على حق ···»

قالت « ايه ؟ على حق ؟ فى أى شىء ؟ »

قلت «فيما قلته عن وجهى ··»
قالت «لست فاهمة !»

قلت « أعنى انه دميم ··· مرعب ··· الى آخره ··»

فنهضت وأنارت المصباح ونظرت الى ثم صاحت «أوه !»

قلت «لقد أنذرتك ···»

قالت «لم أكن أعلم ···»

قلت «صدقت ... ولا أنا ...»
قالت «انما أعنى انى لم أكن أظن انك ...»
قلت «بالضبط ... انه ليس وجهى ...قد يكون فطيرة ... ولكنه ليس وجهى ... لا يمكن أن يكون وجها ...»

قالت «ألا تجلس ...؟ انى آسفة جدا ... واعتذر ... باخلاص لم يخطر لى انك مصرى وأنك سمعت كلامى . أوه ... انى كنت فظيعة»

قلت «بل لك العذر ، وقد وافقتك على كل حرف لما نظرت فى المرآة الى... الى... هذا الذى كان الى الصباح وجها واضح المعارف جلى القسمات»

قالت «أوه ... مسكين ... لشد ما قسوت عليك ، فهل تصفح عنى ! ؟»

فوثب قلبى وثبتين ، وداردورتين وصعد الى حلقى تم ارتد الى مكانه بسرعة ، وقلت

« اصفح ؟ انى أنا المحتاج الى غفرانك ، فما كان يليق أن أفزع الناس بمثل هذا الـ ... ولكن عذرى انى لم أكن أراه ... »

فعادت تكرر الاعتذار ، وجلست وأجلستنى الى جانبها ورأيت أن أنقل الحديث الى موضوع آخر يكون أرفق به وبها فقلت

« والآن ماذا نصنع ؟ لقد كنت أريد أن أقترح أن نقف ونصيح ـ معا ـ صيحة واحدة قوية توقظ من فى الفندق جميعا ليدركونا ويخرجونا فما قولك ؟ »

قالت « فكرة ... ولكن ؟ .. »
قلت « اذا لم نصنع شيئا كهذا فالارجح أن نقضى الليل فى هذه الخزانة الضيقة »
قالت « صحيح ... ولكن الصياح ... ألا توجد طريقة أخرى ؟؟ »

قلت « لست أرى بديلا من اقتراحى سوى تسليم الأمر لله »

قالت « ولا أنا ... على فكرة ... وقبل أن أنسى .. انا اسمى ... » وتسمت ، فقلت

« وأنا اسمى تعرفينه ... ذو الوجه المبطط »

قالت بصوت عذب « لا تقل هذا ... أرجوك ... انك تؤلمنى »

قلت « لا كما يؤلمنى هو .. ولو كان خصمى انسانًا لجعلت وجهه حذاء ولكنه كرة »

وقصصت عليها ما كان ، وصارحتها بأنى كنت حينما سمعتها تخلع على هذه النعوت البديعة أريد أن أذبحها بأظافرى وأن أشرب من دمها فقالت « والآن ؟ »

قلت « أخشى ! »

قالت « تخشى ؟ »

قلت « نعم ... لا أزال أطلب دمك ... »

قالت ضاحكة « ولكنك سامحتنى .. ألم تقل انك صفحت عنى ؟ »

قلت « عما كان منك فى الصباح ... نعم ... »

قالت « وهل فعلت شيئا آخر ؟ »

قلت « نعم ... فان دمى فى عنقك »

فضحكت وقالت « أوه ! آه ! هذا ! »

فقلت « والآن . ألا يحسن أن نصيح ؟ »

قالت « نصيح ؟؟ أوه ! آه ! ولكن لماذا لا تريد أن تعرفنى من أنت ؟ »

قلت « اشفاقا عليك يا فتاتي · وعلى نفسي· فاني أخاف أن أزيدك نفورا ولكن ذنبك · فاعلمي اني أدعي ··· »

قالت « الآن قم لنصيح ··· »

وأقمنا القيامة · وأنقذونا بعد ساعة او نحوها

وقالت « توتو » هي تصافحني

« ما صداقة الا بعد عداوة ··· أليس كذلك ؟ »

obeikandl.com

# ليلة ولا كالليالى

منذ آلاف من السنين ، أو بحساب التقاويم ، منذ خمسة وعشرين عاما ـ فما ثم فرق بين الامس وعهد نوح ـ كنت أسكن في أعلى طبقة من بناء شاهق ، وكان الوقت صيفا ، فخرجت الى احدى الليالى مع بعض الاصحاب الى قصر النيل وركبنا زورقا محقبين عدة قوارير أو زجاجات من الجعة ، وكان اقتراحي أن نشترى « برميلا » صغيرا ، ليشرب كل منا كفايته ، وكان كلفى عظيما بهذا الشراب فى تلك الايام ، وكنت أسخر من الاطباء الذين يزعمون أن الجعة تورث ما يسمونه « تمدد المعدة » غير أن رفاقي استثقلوا (البرميل) وزعموا أن منظره لا يناسب معنى الشراب فى زورق على النيل ، وكنت أنا أنظر الى الكفاية لا الى المعانى . وكنت أخشى أن نحتاج فلا نجد ، غير انهم كانوا جماعة وكنت واحدا ـ وأقول كنت لانى صرت بعد ذلك ( أسرة ) ـ والكثرة كما يقولون تغلب الشجاعة . والالسنة العديدة ـ اذا جرت فى وقت معا بمثل هذه العبارات ( بلاش كلام فارغ ) ـ ( رح ياشيخ ) ( طيب بس بس بس بلا جنان ) ـ تضيق المجال على فصاحة اللسان المفرد

وانطلق بنا الزورق يفرق الماء . وفى هذا الوصف مبالغة من صنع الخيال بعد أن تقادم الزمن على الحادثة ، فما كنا نحسبه يتحرك ، وقد توهمت ـ بعد بضعة أكواب أو على الاصح (أشواب) من الجعة ـ أن بطأه من الخفة ، وانا لو أثقلناه بطائفة من الحجارة الكثيرة على الشاطىء لمرق كالسهم ، فاستضحكوا ـ لا أدرى لماذا ؟ ـ وقال قائلهم « خد يا خفيف » ، وناولنى كوبا آخر مترعا فكرعت منه كرعة روية تنستنى ما كنت فيه ، ثم صارت الخفة فى رؤوسنا والثقل فى أرجلنا ، فصرت كلما مال بنا الزورق أضع رجلى على الجانب الذى شال وأدعوهم أن يصنعوا هكذا ليتزن ويعتدل ميزانه ، ولكنهم كانوا سكارى ، ومن العبث أن تكلم من لا يفهم ، فامسكت وأطبقت فمى ، واكتفيت من

المشاركة فى الحديث بهز الرأس ـ أو تركه يهتز ـ وبايماءة الاصبع، فعل الذى يتشهد فى الصلاة ، وأكبر ظنى انى كنت محتاجا الى التشهد ، على كل حال. ولو لم أكن أصلى .

ولا أعلم متى أو كيف رجعنا ، وقد نسيت ـ الآن ـ المعجزة التى وقتنا الغرق ، ونسيت ـ فى ليلتى تلك ـ انى كنت فى زورق وانه كان معى فيه اخوان ، وجعلت أمشى فى الشوارع المقفرة وأنا أقول بعد كل بضع سنوات «آمنت أن الارض كرة» فقد كنت كلما أرسلت لحظى فيما حولى أذكر انى كنت فى هذا الشارع ، وعلى يمينى والى شمالى هذه الدور بعينها ـ أعنى بأبوابها ونوافذها وجدرانها وشرفاتها، وكنت أحيانا أرتاب وأعجب وأسأل نفسى ، هل أنا فى مدينة كل مبانيها وشوارعها متماثلة ، أو أنا أخرج من الشارع وأعود اليه ، وأروح وأجىء فيه كما يفعل الشرطى الحارس ؟؟ وأعترف انى لم أحل هذا اللغز ـ الى الآن ـ ولو أمكن أن تعود تلك الليلة بنيلها وزورقها وجعتها ورفقائى فيها وشوارعها المسحورة ، لأمكن فيما أعتقد أن أهتدى الى الحل الذى أعيانى فى شبابى ، فان للكهولة من الحكمة وصدق النظر ونفاذه ما ليس للشباب الطياش !

ثم وقفت بقدرة الله وحده من غير شك ، أمام بيتى ، وخالجنى الشك أول الامر، وقلت لنفسى أنه لا يعقل أن يكون هذا بيتى ،فقد قطعت ـ على رجلى ـ مسافة أطول من عرض الصحراء الكبرى ،ولم يكن بيتى يكلفنى كل هذه المشقة ، وأحسست ، وأنا أفكر فيما تجشمت من تعب المشى ، بعتب شديد على البيت ، وهممت بمكاشفته باللوم ، غير انى أردت أن أتبين أولا ، مخافة أن أكون مخطئا وان لا يكون البيت بيتى فأظلمه ، فارتددت عن الباب خطوات ورميت رأسى الى ظهرى وصعدت عينى فى البناء ، ثم ثنيت رأسى على صدرى وأسندت ذقنى الى كفى مفكرا ، فقد اختلط الامر على ، أهذا بيتى؟ انه يشبهه! ولكن أليس الله يخلق من «الشبـــه» أربعين ؟؟ أو لم أر الليلة مدنا عديدة وأقطارا شتى من الارض كلها على طراز واحد ؟؟ واذا لم يكن هذا بيتى على الرغم مما يبدو لى من الشبه القــوى ، فأين يكون ؟؟ وأين أنا؟ ، وظننت هذا السؤال أسهل فقلت فى جوابه « أنا بالطبع؟ وأين أكون الا هنا ، وهل ممكن أن يتصورها عقل العاقل .

وفى هذه اللحظة برزت لىقطعة من الليل وصارت تدنو منى حتى وقفت أمامى ، فمددت يدى اليها اتحسسها ، فاذا لها طول وعرض وسمك وأعجبنى التماع ما يشبه العينين فيها ، وبياض ما نسميه الاسنان فأحببت أن ألمس هذه وتلك فنأت عنى كالخائفة ، ثم مالت فتأبطت ذراعى فلم أعد أراها وانبقيب شاعرا بها الى جنبى ، ومشت بى وأنا مسرور بهذه القطعة الطرية من الظلام تحت ذراعى •

وسمت صوتا من ناحيتها يقول

« خطى »

فسألت « خطى ؟ »

قال الصوت « خطى انت »

فسألته « انت ؟ »
قال « انت »

قلت « انت ؟ »
قال « انت »

فزمت وهززت رأسى مبتسما للصدى •

ورأيتنى أصعد السلم وأحسست أن شيئا يدفعنى،فغضبتوركلته برجلى فاقصر ، وارتقيت وحدى ، معتمدا على الحاجز حينا ، وعلى راحتى أحيانا أخرى ، حتى كلت ساقاى ومللت هذه الدرجات التى لا نهاية لها ، وخفت اذا ظللت صاعدا أن أبلغ السماء ، وكنت شابا ، وكان أوان ذلك فىرأيى لا يزال بعيدا ، ثم وقفت أمام باب ، فأخرجت المفتاح وحاولت أن أديره فى القفل ، ولكن الباب كان يتراجع وكان المفتاح من أجل هذا لا يقع على موضعه ، فلم أزل بالباب يدفعنى وأدفعه حتى أسندته الى الحائط ودسست فيه المفتاح ، ثم تركته ودخلت وأنا أتم ما أكون رضى عن نفسى •

وانتهيت من الدهليز الضيق ، وكان ضيقه محسوسا جدا ، وكان لفرط ضيقه يحتم على سالكه أن يسير على خط مستقيم ، بين حائطيه،

ولكن تبين أن هذا الخط كان عسيرا جدا في الظلام الحالك ، وبعد لأى ما بلغت حجرة وسطى ، ولم يكن من عادتي أن أدخلها ، ولكن جدران الدهليز دفعتني اليها ، فملت عن طريقي المألوف والفيت أمامي مائدة لا عهد لي بها وعليها أطباق مغطاة ، وآخر مكشوف والى جانبيه ملعقة وسكين وشوكة ، سلة صغيرة فيها خبز أفرنجي ، فعجبت لهـــذه الادوات من أين جاءت ؟ غير اني شعرت بالجوع لما أخذتها عيني ، ولا بدع ، فجلست اليها ورفعت الغطـــاء عن طبق فاذا فيه لحم بارد ، فأقبلت عليه أتناول منه فاذا بصوت عال يسألني بلهجة جافية

« مين ده ؟ »

فاستغربت أن يسألني في هذا سائل في بيتي ، فلم أجبه فعاد يسأل :

« مين ده ؟ »

فغضبت وقلت بصوت عال :

« ابراهيم عبد القادر المازني »

ويظهر انه لم يسمع فقد كرر سؤاله باللهجة عينها

« مين ده ؟ »

فقلت بأعلى من صوته وأجفى من لهجته

« ابراهيم عبد القادر المازني »

وصار الحديث بيننا هكذا :

هو ـ « مين ده »

أنا « ابراهيم عبد القادر المازني »

هو ـ « مين ده »

أنا ـ يا أصم . قلت لك ألف مرة

هو ـ « مين ده »

أنا ـ « إنفلق بقى ! »

هو ـ « يلعن أبوك ! »

أنا ـ « ايه ! يا قليل الادب يا وقح يا ... »

هو ـ « أبوك السقا مات ! »

فذهلت . وانتفضت واقفا ودفعت الكرسي بعنف ، والغضب يتطاير شرره من عيني ، أو على الاقل لابد أن يكون قد تطاير يدى الى الطبق لاقذفه به ، فقد نويت أن أخطم له رأسه أحطم عليه كل ما في البيت واذا بيد ناعمة بضة تربت على كتفى في رفق ، وتمسح عليهـا فى لين ، فارتد الدم الفائر هادئا ، وثابت الى نفسى ، فابتسمت ، وقد خيل الى أن ما هاجنى لم يكن سوى حلم ثقيل ، وعدت الى الكرسى فجررته وجلست مرة أخرى لآكل :

وقال صوت حلو من خلفى

« ازاى غلطت ؟ »

فقلت أحدث نفسي، « هذا أحلى ! »

قال الصوت « ايه هو ؟ »

قلت ماضيا فى مناجاة نفسى « صوت ناعم حلو ، لا كذلك الوقح القليل الحياء ، أين يا ترى ... »

الصوت ـ « بتقول ايه ؟ »

أنا ـ « ليت المرء يحلم دائما بمثل هذه الاصوات العذبه »

الصوت ـ « بتقول ايه ؟ مالك ؟ بتحلم ؟ »

فأغمضت عيني واضطجعت وقلت « آه ! ما الذ هـذا بعـد ذلك الصوت المنكر! وليت من يدرى أيهما أجمل: الصوت أم صاحبته ؟ »

فأحسست على وجهي نفسا حارا وسطعت انفى رائحة ذكية ففتحت عيني فصافحها وجه ملائكى لم أشك أنه من الفردوس ، فشاعت فى نفسى الغبطة وانشرح صدرى لارتقائى فى الحلم ، وقلت أن الحلم اذا

انتسخ لا يرجع فيجب أن أغتنم فرصته القصيـرة الزائلة ، وماذا أخاف وهو حلم ؟؟ ودفعت ذراعى فطوقت بها الجسم المائل فصاحت:

« أوه ! ايه ده ؟ أوع ! »

قلت غير عابىء « أو يكون الدلال حتى فى الاحلام الخاطفة ؟؟ خل هذا للدنيا وخبرينى من أى الفراديس أفلت يا حورية ؟ »

وأبى سوء الحظ الا أن يصيح بى ذلك الصوت المنكر الذى لعن أبى وزعمه سقاءا ـ نعم سقاءا !؟ تصور هذا ..

« أنت ياولد ؟ »

فأفقت ، وتهاوى ذراعاى الى جانبى الكرسى ، فما يليق حتى فى الاحلام أن يكون العناق أمام الناس ، وشعرت بالغضب يشيع فى نفسى ، لقد عاد هذا الفضولى الوقح فلأؤدبنه غير هـذا الادب ، ونهضت أتلفت باحثا عنه واسأل « أين هو أين هو ؟ »

فقالت حورية الحلم وكانت لا تزال باقية :

« مين هو ده ؟ »

قلت «الكلب الذى شتم أبى وزعمه سقاءا ! ونغص حلمى ! »

قالت وهى تضحك « ده البغبغان ياسيدى ! »

فدهشت ، وماذا يدعونى أن أحلم بالببغاوات ؟ ثم كأنما ارتد الى ذاكرتى شىء من وراء الوعى فبهت وقلت

« أين أنا ؟؟ انـهليس عندنا ببغاء »

قالت الحورية « انت فى الشقة اللى تحت شقتكم ! داخل كدة من غير تكليف ! احمد ربنا بقىاللى جات على كدة وقوم روح فى ستر وسلام . ولو كان الراجل هنا كانت بقت ليلة »

ولا أحتاج أن أقول ان هذه الجعة التى شربتها طارت كلها دفعـة واحدة فى مثل خطف البرق .

# فاتحة عهد

أدركتنى حرفة التعليم كما أدركتنى حرفه الادب ، فبلائى عظيم، ومصيبتى كبيرة ، وخطبى أدهى من خطب ابن المعتز الـذى لم تكن فيه ـ مثلى ـ لو ولاليت ، وأنا أحق منه بما قيل فيه ، وأحوج الى انصاف الشعراء من ظلم الحياة ، وكنت قبـل أن أدخـل مدرسة المعلمين العليا ـ فقد كانت هناك مدرسة اخـرى « سفـلى » أعنى دونها مرتبة ـ أشتهى أن أكون طبيبا ، لان الطبيب ليس كمثـله أحد ، يقتل الناس ويأخذ كراء يده ثم انى من مازن ، كما لا أحتاج أن أقول ، والطب كأنما هو فى طباعهم ، وكثيرون من أهلى أطباء، فلا حاجة بى الى الغرباء حين يوافى الحين ، وقد اشتهر الموازن فى جاهليتهم باتقان الجراحه ، وكان أحب الالعاب الى أطفـالهم أن يخرجوا الى مخارم الجبال ويتربصوا وراء صخرها ، حتى اذا عبر الطريق عابر ، سالوا عليه وحفوا به وراحـوا ينوشونه بالرماح القصيرة ويشكونه بالسيوف الصغيرة ويغمزونه فى المواضـع الطرية فيتوثب ويقفز ويصيح « أوخ... آى ... » وهم يقهقهون مسرورين ، ولا يزالون يداعبونه ويجمشونه حتى يفتر عن الحركة المسلية والصياح الممتع فيدعونه الى غيره ممن تقوده اليهم رجلاه

ولكن الدكتور كيتنج ـ ناظـر مدرسة الطب فى ذلك الوقت ـ طردنى ورمى لى أوراقى وقذف بى وراءها لان نتن جثة أحـدث لى اغماءا ، فوعدته أن أسد أنفى فهز رأسه ، فتعـهدت بأن أروض نفسى على حب النتن والعفن فلم يلن ، فخرجت بقلب كسير، وقلت اذا فاتنى الطب فلن تفوتنى المحاماة ، فان فى قومى مروءة وطول لسان ، وقديما كان الموازن أهل لسن ونجدة ، ومضيت الىمدرسة الحقوق ، فأخذوا أوراقى وقالوا حبا وكرامة ، وانقلبت الى بيتى أنتظر موعد الدخول ، واذا بالوزارة تزيد أجور التعليم فى هـذه المدرسة من خمسة عشر جنيها فى العام الى ثلاثين ، فقلت « ياخبر

اسود ! » وأسرعت الى المدرسة فاستعدت أوراقى فما كان ذاك يدخل فى مقدورى • وأيقنت أنى ضائع وأن التعلم قد سدت فى وجهى طريقه ، وبكيت على صدر أمى ، وقلت لها قد ذهب مع الريح كل تعبك فى تعليمى

قالت « ادخل مدرسه الهندسة »
قلت « يا حفيظ ! » وجفت دموعى من الرعب
قالت « لم لا ؟ »

قلت « ألا تعلمين أنى حمار ؟ »

قالت « لا تكن طفلا • اذهب اليها فما بقى هناك غيرها »

قلت « انى لست طفلا • انى حمار ••! حمار ! ألا تفهمين ؟ »

قالت « كلا ! لست أفهم »

قلت « انى لا أستطيع أن أفهم هذه الدروس• ليس لى استعداد لفهمها »

قالت « وكيف فهمت ما تلقيت من الدروس الى الآن ؟ »

قلت « بجهد وعناء »

قالت « اذن تفهم الباقى بجهد جديد وعناء آخر •• قم الىهذه المدرسة »

قلت « وحياة رأسك ان هذا مستحيل »

فأقصرت ، فقد كنت أصدقها ولا أحلف بحياة رأسها كذبا ، وكانت هى تعرف ذلك معرفته

ثم فتحت مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا أقول ان هذا على كرهى له أهون من هندسة مدرسة الهندسة

* * *

ومضت الايام ـ أعنى الاعوام ـ وصرت معلما ، وتسلمت من



obeikandi.com

الوزارة الشهادة لى بذلك ، ولكنى لم أفرح بهـا لان ذلك كان بكرهى ، كما صار من لا اذكر اسمه فى رواية لموليير طبيبا على الرغم من أنفه ، فعينتنى الوزارة مدرسا للترجمة بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وكنت صغير السن ولم تكن لى لحية ولا شارب ، فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بانبات الشعر ، فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مفتول وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تجدنى فتيلا

وكنت أبكر فى الذهاب الى عملى بلا موجب ، وأدخل المدرسة مع التلاميذ ، ثم اتفق أن تأخرت يوما الى ما بعد الساعة الثامنة ، فاقفلت أبواب المدرسة كما هى العادة ، فلما بلغت أول باب قلت

« افتح ياعم محمد »

وكان نوبيا ، فنظر الى وقال

« من الباب الثانى »

قلت « هل من سبب ؟ »

قال « أيوه »

قلت « ماذا ؟ »

قال بايجاز « الاوامر »

قلت « ألا تتفضل بشىء من الايضاح ؟ »

قال وهو ينظر الى ممتعضا « تأخرت »

ففهمت وقلت « تريد أن تقول ان التلاميذ الذين يتاخرون يكون دخولهم من الباب الثانى ؟ »

قال « أيوه »

قلت « ولكنى لست تلميذا »

فلم يخف ضجره وهو يقول « روه • روه ! »

فرحت ـ أعنى انصرفت ـ فما بقيت فائدة من خطاب هـــذا النوبى الجاهل ، وعلى أن هذا لم يكن ذنبه ، ولـــو كان لى ولو شارب واحد على الاقل لما ركبه الوهم ولا خلطنى بالتلاميذ

وبلغت الباب الثانى فالفيت البواب النوبى جالسا وبين يديه كتاب عرفت بعد ذلك أنه دلائل الخيرات ، وكان يهز رأسه هـزا عنيفا وهو يقرأ ، ولم أكن أعرف اسمه فقلت « هوه » فرفع رأسه عن الكتاب ولكنه ظل يحركه الى الامام والخلف فقلت بلهجة الجد « افتح »

فلم يقطع التلاوة واكتفى بأن يشير بسبابته اشارة الرفض

فأعدت الكرة بصوت أعلى

« أقول لك افتح »

فأشار فى هذه المرة بذراعه كلها أن أنصرف

فالححت وحملت صوتى أشد ما يحتمل من العنف

فقال « تؤ ... تؤ ... »

فصحت به وقد كدت أجن

« تؤ فى عينك ... افتح »

فنطق لانه غضب ، وقال « اسمك ايه ؟ »

قلت يا فرج الله ! وذكرت اسمى وفى ظنى انه لا يكاد يسمعه حتى يسرع الى الباب فيفتحه على مصراعيه وينثنى على يدى يقبلها ويعتذر ويسألنى الصفح

ولكنه لم يفتح بابا ولم يتناول راحتى ولم يطلب عفــوى وانما قال وهو يخرج من جيبه قلما ويبل سنه بلسانه

« اسمك ايه ؟ »

قلت « ايه ؟ »

قال « اسمك ايه ؟ »

قلت لعله لم يسمع ، وأعدته عليه فكتبه على ورقة وقال متوعدا « استنى ! »

ومضى عنى الى حيث لا أعلم ، وفى هذه اللحظة لمحت الاستاذ الهراوى — وكان موظفا معنا فى المدرسه — فصحت

« ياهراوى افندى ! ياهراوى افندى ! »

فالتفت على صوتى فصحت مرة أخرى :

« أدركنى يا أخى ! هذا البواب الاحمق لا يريد أن يفتح لى الباب » وأخبرته الخبر فانطلق يضحك ويقهقه فقلت :

« هلا فتحت لى أولا ؟؟ »

فجاء بالبواب ، وعرفت انه كان قد ذهب يشكونى الى الضابط ، فلما دخلت قلت للضابط الاول

« ياصاحبى ان لى عندك رجاء . ان تجمع الخدم والبوابين جميعا وتعرفنى بهم وتعرفهم بى ، فنتصافح ولا يحدث بعد ذلك مثل هذا الخطأ ، فلست أضمن أن أجد الاستاذ الهراوى كل يوم بحيث يسمعنى اذا دعوته الى النجدة »

* * *

ولكن الخطأ لم يمتنع بعد ذلك ، فقد كنت مرة واقفا فى غرفة المدرسين ، ولم يكن بها فى تلك اللحظة سواى ، فمر الناظر ، وكان انجليزيا ، فرآنى ، وكان ظهرى اليه ، فظننى تلميذا بعث به أحد المدرسين ليجيئه بكتاب أو كراسة أو غير ذلك ، فغضب ، ودعا كبير الضباط الى غرفته وأخبره ان فى حجرة الاساتذة تلميذا وان هذا لا يجوز ، وان عليه أن يبلغ المعلمين أن الناظر يرجو منهم أن لا يخرجوا التلاميذ من المكاتب لقضاء شىء ما لانهم يجيئون الى المدرسة ليتعلموا لا ليقضوا حاجات المدرسين

ودخل الضابط على فسألنى

« من كان هنا يا أستاذ ؟ »

قلت « متى ؟ »

قال « الآن ؟ »

قلت « أنا »

قال « انت ؟ »

قلت « نعم .. »

قال « لا أحد غيرك ؟ »

قلت « لا أحد . لماذا تسأل ؟ »

فقص على الحكايه وضحكنا ، وصار النـاظر لايرانى الاقهقه ، ولكن هـــذا لا يمنعه أن يغلط مرة أخـــرى غلطا أفحش ، وكنت أتمشى ، ويداى فى جيبى البنطلون ، فما أشـــعر الا وكف غليظة تقبض على عنقى وتهزنى بقوة ، وبعد لاى ما تملصت وواجهت هذا المعتدى فاذا هو الناظر واذا به يتراجع مبهوتا ويقول

« آسف ... آسف جدا »

قلت ، ويدى على قفاى ، « ايه ؟؟ آسف ؟؟ ولكن أى مزاح هذا ؟ »

قال « أكرر لك أسفى ... على أنى لم أكن أمزح »

قلت مستغربا « لم تكن تمـــزح ؟؟ ولكن لماذا تريد أن تخلـــع لى راسى ؟ »

قال « لم أكن أريد أن أخلعه ... »

قلت « ايه ؟؟ ولكنك كدت تخلعه »

قال « لقد توهمتك تلميذا هاربا من الدرس . وأحسب هـــذا سيكون درسا لى . لن تمس يدى تلميذا بعد اليوم »

وكانت لى جرأة عليه لانه كان استاذى ، وكنت أحبه وأحترمه، فزادتنى صراحته اكبارا له ، ولم يسعنى الا أن أعترف ــ فيمـــا بينى وبين نفسى ــ انه معذور

ولم يتكرر الخطأ بعد ذلك ، ولكن هذه الفاتحة لعهدى بالتعليم، لم تكن أسعد الفواتح ، ولا كان من شأنها أن تقلب كرهى لهــذه المهنة حبا ، ونفورى منها ، اقبالا عليها • وقد ظللت أتحين الفرص للنجاة بنفسى فلم تسنح منها واحدة الا بعد عشر سنوات



obeikandl.com

# ليلة سوداء

هل للموت جلال ؟ وهل للمقابر حرمة ؟؟

لا أدرى ! وانما الذى أدريه انى كنت أفكر فى هذا وما هو منه بسبيل - أو أسأل نفسى عنه - فى ليلة سوداء - أعنى حالكة الظلمة - لا قمر فيها ولا نجم ولا شىء الا عتمة سميكة ، وكنت قد تناولت عصاى وقلت أخرج من ضيق البيت الى الفضاء الطليق لعل المشى يحط عن صدرى ما يجثم عليه من شعور ضاغط ، وكان الجو راكدا ، وكنت لهذا ومن فرط الانقباض - أحس كأن أصابع ضخمة - الا أنها معروفة - تأخذ بمخنقى ، فكنت أفهق : أفتح فمى وأدفع رأسى الى الوراء وأرفع صدرى - كالذى أشفى على الغرق ، فليس الماء وحده كل ما يخنق . وكنت أقول لنفسى وأنا أدير عينى فى كثافة الليل وأردها الى ظلمة النفس « انها ليلة سوداء حقا ! أين ترى غابت نجوم السماء ؟؟ ويالها من لعنة حارة أسن لها الهواء وعاد أوبل من مستنقع ؟ »

وتذكرت قول ابن الرومى المسكين وهو معصوب العينين .

أرعى النجوم- وأنى لى برعيتها وطرف عينى فى أسر وتقييد ؟

وان من يتمنى أن يؤاتيه رعى النجوم ، لمجهود المجاهيد !

صدق والله ! وانه لمسكين مسكين ، وانى لمثله ، أو شر منه

ولكن « المسكنة » ثقلت على نفسى ولم أرضها لها ، فضربت الارض بالعصا وقلت بصوت عال « مسكين ؟ لماذا ؟؟ هب القمر كأوضأ ما يكون ، والنجوم الخفاقة اللمعان تتلامح وتزين هذه القبة الزرقاء ، والنسيم كأرق ما يعهد فبماذا كنت حقيقا أن أفوز مما حرمت متعته الآن ؟ هذه السماء من فوقى بآفاقها جميعا أهى سوى « جمجمة » - كما يصفها العقاد فى بعض أراجيزه ؟ »

وراقني أن السماء « جمجمة » وحمدت للعقادهذا الوصف الذى واءم مزاجي في هذه الليلة السوداء ، وما يدريني ويدريه ؟ لعل كرتنا الارضية كلها مدفونة فى هذا الكون ولعلنا نحن الذين يسمون أنفسهم « بنى آدم » لسنا سوى ديدان وحشرات ترتع فى جوف هذا القبر الهائل ونحن لا ندرى ، ولعل من الالهام أن تكون نفس العقاد قد اسودت مرة فقال ان السماء جمجمة وفتح بذلك الطريق الى معرفة النفس ـ معرفتنا نفوسنا على حقيقتها الدودية!

ومال بى هذا الاسلوب من التفكير الى الطريق المفضى الى القبور ـ ولم أكن أرى مواضع خطوى ـ وانى لى برؤيتها فى هذا الظلام المتراكب ؟ ـ ولكن المرء يرى أحيانا بقدميه ، ويهتدى برجليه ولا يحتاج الى عينيه وما أكثر ما رأى الانسان بغير عينيه ؟ صحيح انهما أداة نظر ، ولكنه نظر قصير ، وبغيرهما يكون النظر البعيد ـ النافذ ، والاهتداء والوقوع ... على ... على ماذا ؟ كدت أقول الحقائق .. ولكن رجلى اصطدمت بحجارة قبر من آلاف القبور المنتثرة فى هذه الصحراء

ياالحماقة الانسان أو غروره أو لاأدرى ماذا ؟ ماخير هذه الصوى القائمة والحجارة المرصوفة ؟ يف ! ـسخافة ! وركلت ـ برجلى ـ الحجر الذى صدمني ، لاغيظا ، فليس ذنب الحجر أن صد رجلى، ولكن ركلته استسخافا للانسان ، هذا الجيل الذى يبنى القبور فى هذا فالموضع سيذهب ويغيب فى جوف الارض ؛ ثم تندثر على الايام قبوره وتخفى معالمها ، ويجيء جيل آخر ، يبنى فى هذا الموضع بعينه قصورا ودورا ، ويشق بينها طرقا

وميادين يخترقن بساتـ
ين تمس الرؤوس بالاهداب
ويجعل فيها الملهيات ويفتن فى ذلك
ويظلون فى المناعم واللـ
ـذات بين الكواعب الاتراب

لهم المسمعات ما يطرب السا
مـــع والطائفات بالاكواب
مالهذا الرومي يكظ اليومذهني جدا؟

ومع ذلك ينسون انهم بنـوا قبورا قديمة ، ويروحون يتخذون المدافن ويعلون صواها ويرفعون حجارتها ـ في مواضع أخرى !! بف ! سخافة !

ورأيتني أتمنى لو كانت رجلي التي اصطدمت بالقبر فأسا ،فأهدم هذا العبث المشيد ! فجرى ببالي خاطر موروث : أليس لهذه القبور حرمة ؟؟ فضحكت ، حرمة !؟ لشد ما يخادع الانسان نفسه! أي حرمة هناك لحجر؟؟ وما الفرق بين حجر القبر وحجر الماخور؟ كلاهما حجر، وتحت كليهما أجيال دفينة من هذا الانسان الذي يحاول أن يكرم نفسه وتأبى الحياة الا أن تهينة وتسخر منه ـ بل تأبى الا أن تجعله هو اداة سخرها منه وتهكمها عليه

ومن هو الذي يرى للقبور حرمة ؟؟ أنا وأنت وهذا وذاك ـ أربعة أو خمسة أو عشرة ممن أفسدت الكتب والاوهام والخيالات عقولهم وتفكيرهم وأرتهم دنيا غير التي يعيشون فيها ثم يرحل بهم الموت عنها أما سواد الناس غيري وغيرك يا صاحبي ـ فلا يعرف لهـــذا الموت جلاله المزعوم ولا للقبور حرمتها الزائفة • لقد رأيت ـ بعيني هاتين ـ أحب الناس الى وأكرمهم على ، ترفع من نعشها لتدرج في لحدها ، وكانت الايدي التي تتناولها خشنة عنيفة ، ورأيت أصابع هذه الايدي الغليظة تغرس في جسمها الغض فهممت أن أدعوهم الى الترفق بها في هذه اللحظة على الاقل ، ولكنني سمعت أحدهم من جوف القبر ـ وكان واقفا مادا ذراعيه استعدادا منه لتلقف الجثة ـ سمعته ينادي زملاءه •

« هات الشغل ياجدع »
فقلت لنفسي ان هذا الميت الكريم ليس عند هؤلاء الا « شغـــلا » ولعله ليس في نظر الحياة أكرم من ذلك ، فامسكت ولم أقل شيئا

وانحدرت وراءهما الى القبر لاحسر عن وجهها بيدىأنا ، فذكرت قول الشريف الرضى :

صور ضننت على العيون بلحظها أمسيت أوقرها من البوغاء
ونواظر كحل التراب جفونها قد كنت أحرسها من الاقذاء

ثم ابتسمت ــ أى والله وصعدت الى الدنيا والحياة والنور ــ وأنا أحدث نفسى أن ليست الصور والنواظر الا « شغلا » ، صدق الحانوتى ! وكذب الشريف ; وسأكون أنا فى يوم من الايام «شغلا» بين أيدى هؤلاء الرفاق ذوى الايدى الجافية الخشنة والتناول العنيف وسيلفوننى فيما يقسم لى الحظ من حرير أو خيش ، وسيعجلون بدفنى لأن اكرام الميت دفنه ، وسيطرحوننى على التراب فى غير ترفق بعد أن ينزعوا اللحاف من تحتى ، وسيحاول بعضهم أن يطوى هذا اللحاف ويخفيه ليعود اليه بعد ذلك فيسرقه

واذا كان على أصابعى خاتم زهد أهلى فيه أو أكرمونى أن ينزعوه، فسينزعه دافنى وهو يسوى التراب تحتى ولو كسر أصبعى ، ويخبئه فى شدقه أو جيبه ويخلع أسنانى الذهبية اذا كانت لى سن ذهبية واذا كان ما لففت فيه من الكفن حريرا أو ما هو أغلى من الحرير ، فسيفتح القبر ، حارسه ، ويهجم على ، ويسلبنى حريرى وديباجى ويفصل منه لبناته ثيابا أنيفة يلبسنها ويزهين بها ويخطرن فيها أمام الشبان ليعجبهن وليصدن قلوبهم . نعم وسينعهد قبرى حارس ، اذا وسع أهلى ذلك وأسعفتهم الحال، وسيكنس المكان ويرشه ولا ينى يجىء اليه بالازاهير والرياحين ــ ويلح عليه البول مرة ، فيطلقه على قبرى!

ولم لا !

نعم لم لا ; وهممت أن أطلق ضحكة مجنونة من هذا الانسان الاخرق ولكن صوتا صافح أذني فوجمت ، كأنما أذهلنى أن يسرى بين القبور مخلوق سواى ، وكان الصوت آنة خافتة فراحت الاوهام تعربد فى ذهنى أتراها جناية أم لا أكثر من زفرة باك على جدث فقيد؟ أم ميت ردت اليه الحياة ونفدت صرخته من الارض

وأرهفت أذني ، فمر دهر طويل ثم هفا الى الصوت كرة أخرى ، فمشيت اليه على أصابعي ـ محاذرا ـ ولم يكن هذا سهلا ، فان القبور مبعثرة ، والليل طاخ • فبعد كل خطوة صدمه أو عثرة ، ولا نجم هناك يهدى ، وكثرة الالتواء والانعطاف ، والدوران حول القبور ، تضل عن الغاية ، وقد يتأى المرء عنها وهو يحسب أنه يدنو منها ، وغاب عني مصــدر الصوت فيئست وسرت والسلام ، واذا بى فجأة ألمس حائطا وأسمع حوارا كهذا :

ـ استنى بس لما أكلمك

ـ وأنا مش عاوزه أكلمك

ـ امال عاوزه ايه ؟

ـ عاوزه أبص لك كده •• عاجبنى وانت بوزك شبرين •• بوز •• والنبى تبوز

ضحكة خشنة

ـ ياباى بتضحك ليه ؟

ـ عشان كلامك بضحك

ـ لكن أنا مش عاوزاك تضحك • عاوزه أشوفك مبوز وأنا أديك بوسه

ـ هو التبويز بالكيف ؟ ما دام مبسوط أبوز ازاى ؟

ـ ياباى عليك ! امبارح كنت حلو وانت مبوز

ـ يابت أنت تكونيش عبيطة ؟ حد يبوز وهو مبسوط ؟

ـ مبسوط من ايه والنبى ؟

ـ أهو مبسوط

ـ والنبى تقول لى

ـ أقولك ايه ؟ سيبك من الكلام بأه ! تعالى

ـ لا • قبله قول لى

ـ مش بزيادة امبارح طلعتى روحي

ـ صحيح ؟

ـ صحيح ؟ بتقوليها كده زى اللى كنت مبسوطة

ـ امال ؟

ـ تبقى مبسوطة وأنا منكد ؟

ـ آه • مش انت لعبتي ؟

ـ لعبتك ؟

ـ آه • لازم أخلق لك حاجات تعذبك ولازم أكيدك ، ولازم اسمع انك بتعيط • وبسرعة أمسح لك دموعك وأبوسك

وكانما التقت الشفاه فى قبلة طويلة مستغرقة فقد ضمتا هنيهة، ثم تنهدت الفتاة تنهد الرضى والاغتباط ، ثم صار صوتهما اخفت وهى تقول أو تهمس •

« خذنى على صدرك •• لأ مش قوى كدة •• بالراحة •• خلينى كده شوية •• »

* * *

خطر لى أن أصيح بهما وأسوقهما امامى بالعصى ، ولكنى هززت رأسى ومضيت عنهما وأنا أعجب أى مقبرة هذه التى اتخذاها لاطفاء جذوة الحب ؟؟ وجعلت أسال نفسى في الطريق ـ وأنا عائد الى بيتى ـ عن حياة هذه الطبقة من الناس ، ولست أعنى طبقة الباعة والعمال ومن اليهم ، وانما أعنى طبقة الناس الذين لا يقرأون ولا يعنون أنفسهم بالادب والكمال والمثل العليا ، والحياة والموت والفناء والخلود ، ولا يخلقون لأنفسهم عوالم يشقون فيها وبها ، ثم رحت أتساءل : إتراني لو كنت مكانه ، أعنى مكان هذا الرجل، أكنت أصنع ما صنع؟



obeikandi.com

أكنت أحجم عن اغتنام هذه الفرصة من أجل أن حولي أجداثا ورموسا؟ وهبني عزني أن ألاقي حبيبا لي الا على قبر ، أيمنعني ما قرأت وما علمت وتصدني مثل الكمال عن الشعور بفرحة المحب والسرور باللقاء بل عما هو فوق ذلك ؟

لا أظن !

وأي مكان في الدنيا لا يطوي شيئا من انسان أو حيوان ؟ فكل مكان قبر ، وعلى أن رهبة الموت ليست الا مظهرا لتعلق الحي بالحياة، أما الموت في ذاته فليس شيئا ـ لا جلال له ولا روعة ولا غرابة فيه، ولو وثق الانسان أن الدنيا تفنى بفنائه ومعه ، لهانت عليه الحياة ولما شق عليه الموت ، وانما يعز على المرء أن يفارق الدنيا لان غيره سيبقى على ظهرها بعد أن يرحل هو عنها ، ولو كان هذا الذى يبقى ابنه ، والذى يقول أن يظن خلاف ذلك يكذب نفسه ويغالطها في الحقائق .

وقلت لنفسي وأنا أدق باب البيت

« اذا كانت روعة الموت مستفادة من حب الحياة ، فما لومي هذين اللذين سمعتهما يتلاثمان على القبر ويتعانقان ؟ وكيف يكون ما فعلا منافيا لجو الموت المحيط بهما ؟ جلال الموت مستمد من جلال الحياة ، والاسى للموت أسى للحياة ، وحرمته من حرمتها ، فماذا اذن ؟

ومع ذلك لو رأى اللذان تعانقا على القبر غيرهما يفعل ذلك لثارا به يلعنانه ويفضحانه ، وهكذا الناس أبدا .. في كل شيء .

# فى سبيل كتاب

**هل أقرأ ما أحب أنا من الكتب ، أو ما يحب الناس أو يريدون ان أقرأ ؟؟**

فى هذا كنت أفكر ، وبه كنت أعنى نفسى ، وأنا سائر - بعد المغيب - فى أزقة ضيقة فى حى قديم ، وكنت قد بعثت بكتاب «النثر الفنى» وبطائفة أخرى من الكتب التى جاءتنى ، الى وراق يجلدها ، حفظا لها من التلف وضنا بها على البوار ، وأبطأ الرجل على ، وطال انتظار صاحبى الدكتور زكى مبارك أن أتناول كتابه الضخم بما هو أهله من العناية ، وأنا كلما لقيته أكرر له الوعد انى لا محالة فاعل، وان الكتاب عند من يجلده لتسهل قراءته ولا أستغنى عن تمزيق ورقاته وافساد شكله ، ثم لم يبق بد من استرداد الكتاب وقراءته والفراغ منه ، وأمرى الى الله . كانت الشمس قد مالت للمغيب ، فتوكلت على الحى الذى لا يموت كما فعل « كولمب » على التحقيق ، وخرجت أبحث عن دكان هذا الرجل كما خرج سلفى العظيم ينشد الدنيا الجديدة التى كانت تتراءى له فى أحلامه وخيالاته ، وكل ما بيننا من الفرق انى كنت على يقين من أن الدنيا التى أبغيها عتيقة جدا وأنه هو ودع زوجه وأولاده وجيرانه قبل أن يتحمل ، أو يبحر ، ونسيان وانى كنت أحمق مغرورا فلم أودع أحدا ، فلولا أن الله لطف بى فى قضائه لفارقتكم يا ابنائى الصغار المساكين دون أن تفوزوا من أبيكم الطياش بقبلة وداع ! فالحمد لله على كل حال

ولا شك أن القارىء قد أدرك أنى لم أكن أعرف اين دكان هذا الوراق ، وانى كنت لجهلى مكانه أتخبط وأسير على غير هدى ، على أن الحقيقة انى كنت أعلم أن الدكان فى حى (٠٠٠٠٠٠٠) وهو كما لا يعرف سكان «جاردين سيتى» و «هليوبوليس» من الاحياء القديمة التى تمتاز شوارعها بأنها تظل تضيق على الايام حتى تتلاصق فيها

البنى المتقابلة ، فيستغنى الناس عن الابواب ويدخلون البيوت من النوافذ والشبابيك ، وقلما يخرجون بعد أن يدخلوا ، ولكن أين فى هذا الحى ؟؟ هذا ما كنت أجهل ، على انى قلت لنفسى أن الاهتداء الى موقعه لن يكون متعذرا ، ولا ضير على كل حال من ارتياد هـذا الحى ، فان لى فيه معاهد ، وفى ذهنى له صور ، وقد بهتت ألوانها فيحسن أن أجددها وأصقلها وأحييها

وكنت وأنا أدخل من زقاق وأخرج من زقاق ، أفكر ، كما قلت، فى انى أشترى الكتاب لاقرأه ، فيصرفنى عنه أن صاحبا لى يريد ـ أو يتوقع منى ـ أن أقرأ كتابه هو ، وأن من حق الصداقة أن أقدمه على ما عداه ، وكنت وأنا سائر أوافق أصدقائى أحيانا ، وأسخط عليهم ولا أكتفى بمخالفتهم ، احيانا اخرى ، وكان رأيى فى ذلك يختلف تبعا لحالة السير ، فاذا استقام ، ولم تعترضنى الاوحال والزحاليق، قلت ان أصدقائى على حق ، وان كتبهم أولى بالتقديم وأحق بالتعظيم واذا زلت قدمى أو غاصت فى الطين ، أو تفضل على بعض السكان فأمطرونى بما بقى فى «السلطانية» من مرق الفول النابت ، ممزوجا بالمخلل ، دعوت الله أن يغرق هؤلاء الاصدقاء فى بحر طام لا قرار له من مرق الفول النابت والمخلل تسبح فيه قرون من «الشطة» فى حجم الحيتان العظيمة ، تنحشر بين جفونهم ، وفى حلوقهم وتنعصر فيها .

وسئمت زحاليق الطين ومطر المرق الكاوى ، وثقل على السير فى هذه السراديب ، ومزق ثيابى التمسح بالجدران وان كان ذلك ألطف وأخف محملا مما يسقط على رأسى من النوافذ ويأبى الا أن يدخل فى عينى ويتسرب الى حلقى ـ لا أدرى كيف ؟ ـ ويقطر على صدرى ـ تحت ثيابى ـ فقلت أسأل بعض السابلة ، ولكن الطريق ـ أعنى السرداب ـ كان خاليا ، فلو أنه كان عريضا واسعا لكان أصلح ما يكون للسيارات التى يركبها شياطين الشبان ويمرقون بها كالسهام أو القذائف ، وكان هذا ـ أى خلو الطريق ـ عجيبا ، فان هذه الاحياء مكتظة بالناس ، وهم يعيشون فيها كالسرادين فى العلب ، وابتسمت وأنا أقول لنفسى انى كالقائد الذى غزا قوما ودخل مدينتهم ففروا من

وجهه،ولاذوا بالبيوت يختبئون فيها ويحتمون بجدرانها ، وكما يحدث في هذه الحالة أن يقذف بعض المختبئين جيش القائد الظافر بما يكون معهم من أدوات الهلاك لان نفوسهم لم تخلد الى الهزيمة ، ونار غيرتهم على وطنهم لم تخمد وقدتها • كذلك أنا في هذا الحي ــ بطل غاز • يهرب من ملاقاته صناديد الحي،وترشه نساؤهم بمرق الفول والمخلل•فالحمدلله على الجهل ــ أعني جهل أعدائي ــ فلو أنهم كانوا يعرفون شيئا يسميه الذين يعلمون حامض الكبريتيك ••• أووف ••!!

واستعذت بالله من هذا الخاطر وحثثت خطاى • ومال الزقاق بغتة في هذا الظلام فملت معه ولكن بعد أن صدمني جدار وألقاني في أحضان جدار آخر • ورمى بي هذا على صدر رجل • أو على الاصح على شعر صدره • ودخلت شعرات أو أشواك من هذه الغابة في عيني وأنفي وفمي وانغرزت في جبيني وخدي • وكتمت أنفاسي فأسرعت فارتددت اتقاء الاختناق • ولـــكنني على فرط سرعتي لم أتق الشتم واللعن والسباب المبتكر

فوقفت ألهث وأنا ذاهل • فما سمعت شيئا أبرع من هذا في بابه• وكان الرجل يهضب به ولا يكاد يبلع ريقه • فاذكرني الزامر الذي ينفخ في مزماره ، وقد انتفخ شدقاه وصار كالبطيختين على جانبي وجهه ، وهو لا يكف عن النفخ ولا ينقطع صوت المزمار ، ولا يبــدو عليه أنه يتنفس ، فلولا خوفي أن يستقل لي السباب ــ على حسن ابتكاره فيه ووضوح استاذيته في ابتداع معانيه ــ وأن يلجأ الى ما هو أعنف لطربت •

ولم يخطىء ظني فقد دنا مني الرجل • وأمامه هذه الطلائع ــ أعني ما على صدره من الشوك الحديد ــ وقال وهو يحرك ويقلب تحت عيني كفا كالرغيف

« فاكر نفسك ايه ؟ هيه ؟؟ كرة ؟ سكران حضرتك ؟؟ انطق »

فلم تعجبني نظراته بل لم يعجبني شيء فيه • ولست أذكر اني رأيت انسانا غيره كل ما فيــه بغيض • من فرعه الى قدمه • وكان حافيــا وعلى رأسه « لبدة » سمراء • وعلى بدنه جلباب أزرق • أو

لعله أسود . وعلى خصره ـ اذا جاز أن يسمى هذا خصرا ـ حزام . خيل الى أنه حبل غليظ فظننته حمالا . وخطر لى أن أتالفه واسترضيه وأغريه فقلت :

« انى أبحث عن حمال »

فقال « حمال ؟! حمال يعنى ايه ؟ »

فاستدركت « يعنى شيال ... »

قال « شيال يابن بنت اللى ماشالت على .... »

ولم يتمها ، أو لم أسمع أنا الباقى . فقد مرقت من تحت أبطه وذهبت أعدو ، وأدور مع الزقاق كما يدور . وأنا الآن كهل بطىء الحركة لكنى كنت فى ذلك الوقت أفر مما هو أشنع من الموت : أى من أن يعجنني الرجل بأوحال الزقاق فيرجع المازنى قبل الأوان طينة كالتى خلق منها مع الأسف

ولمحت طفلا يلعب فاتأدت حتى بلغته . ووقفت أستريح واسأله :

« هل لك يا بنى أن تدلنى على دكان مجلد اسمه .... »

فترك الصبى لعبته وقال لى بأدب واحترام
« فى آخر الحارة التانية على الشمال »

وابتسم ، فشكرته ثم كررت له الشكر ، وقد حسن فى نفسي وقع هذا الأدب بعد خشونة ذلك الفحل الغليظ ، وهممت بأن أضع فى يده قرشا ، ولكنى لم أجد قروشا ، فاستكثرت ما فوق ذلك وعذت بالحزم واستأنفت السير

ولم أكد أقطع ثلاثة أمتار حتى صك ظهرى حجر ، فكدت أقع منكبا على الارض ، وصرخت من الالم فقد أصاب الحجر عظمة الكتف اليمنى ، ودرت فاذا بالصبى الذى غرني أدبه وكاد يغرينى بالجود، يعدو داخلا فى الزقاق ، وأذهلنى وأطار صوابى هذا السلوك ، قبل ثوان قليلة كان هذا الغلام مثال الرقة والظرف والادب ، وهو الآن شر مجسد ، يفسد الحسنة التى أسلفها بالسيئة التى أعقبتها ،

فانطلقت أعدو وراءه وما فى رأسى عقل ،ولا فى نفسى الا انى أريد أن أذبحه وأشرب من دمه ، ولو أنى فكرت قليلا لجريت فى طريق آخر ، ولكن هكذا قدر فكان . وأدركت الغلام فقد كان حنقي يسعفنى بالمدد كلما فترت قواى . ولكمته لكمتين ، ثم حملته وضربت به الارض وأحسست انى شفيت غليلى . فرفعت عنه يدى وانكفأت راجعا . ورحت أمشى على مهل وقد رضيت عن نفسى وعن الدنيا . ولكنى لم أبلغ حيث كان الغلام يلعب حينما سألته حتى رأيت شابا يتلقانى بهذا السؤال

« عمل ايه الولد حتى تضربه ؟ »

ولم يكن الشاب ممن يحق لى أن أخاف . غير انى مع هذا لم أرتح الى سؤاله . وعددته فيما بينى وبين نفسى فضولا غير لائق . فعدلت الطربوش ومسحت العرق عن وجهي بمنديل ومضيت ولم أجبه . وقد سرنى انى أظهرت هذه الشجاعة ، وانى رعته بالثبات، وقابلت فضوله بالاحتقار . غير ان سرورى لم يطل به العمر فقد شعرت أن انسانا يمشى الى جانبى فنظرت اليه بمؤخر عينى فاذا به الشاب الذى أهملته . فتنبهت الى وجوده وأدركت أنه يتكلم . وسمعت ألفاظا فهمت منها أن نيته معقودة على الشر لسبب ما ، فقلت أحدث نفسى .

« وماذا يخيفنى منه ؟؟ انه شاب صغير على كل حال . وقد يكون أقوى منى . ولكنى أستطيع أن ألجأ الى حيلى القديمة أيام طفولتى فألقى فى عينيه ترابا ، مثلا ، فيعمى . ثم أضرب أنفه بجمع يدى ضربة قوية تجهز عليه ، ثم تركه وأمشى متئدا . وعلى كل حال يجب أن أحتفظ بوقارى وأكرومتى واتزان أعصابى . فان للمظهر أثرا بليغا فى نفس الخصم الذى تحدثه نفسه بالعدوان »

ورميت اليه نظرة أخرى فرأيت عضلات وجهه متصلبة ، وعينه تقدح نارا . فنسيت ما أوصيت به نفسى وذهبت أعدو كالغزال !

ووقع طربوشى على الارض ، فلم أحفله . وهل هذا وقت العناية

بالطرابيش ؟ ثم ان تقلقل الطربوش على رأسى واضطراب حركته الى الامام والخلف ، والى اليمين والشمال ، كان يعطلنى ويمنع سرعتى أن تبلغ الغاية • وكان الشاب قد فاجاه انطلاقى فوقف لحظة وهو مبهوت ، فيظهر أن ذكاءه لم يكن كنظرته حدة ، ثم رأى الطربوش يسقط فجرى الى حيث وقع من الارض وأقبل عليه يركله برجله اليمنى ثم باليسرى ، ثم داسه فى الوحل بكلتيهما • ولما فرغ من ذلك عاد الى مطاردتى

وكنت قد تعبت ونهجت وخذلتنى رجلاى ، وانقطعت أمداد الخوف والحنق جميعا ، رأيت بابا مفتوحا فولجته بغير استئذان ، الى فناء وسيع تحيط به غرف كثيرة لبعضها نوافذ قريبة من الارض، وكانت احداها مفتوحة فقفزت اليها وسقطت على أرض الغرفة وبركت ، فلما استرحت وانتظمت أنفاسى ، عاودنى الامل ، واشتقت أن أعرف ماذا صنع الشاب بعد أن اختفيت فى هذا البيت ، فرفعت رأسى حتى صارت عيناى على حافة النافذة فأبصرت الشاب اللعين فى وسط الفناء ، وشر من ذلك انه أبصرنى أيضا ، فهممت بأن أرتد ، ولكن الخوف ألهمنى أن أغلق مصراعى النافذة ، وثابت الى نفسى بعد ذلك فأقبلت على الغرفة أجيل فيها عينى وأنظر أين بابها والى أين يفضى، وكيف يكون المخرج من هذا المأزق الجديد ؟

وكان الظلام شديدا فى الغرفة فأشعلت عودا من الكبريت ، واهتديت به فى طوافى الى مصباح غاز فأوقدته ، ورأيت أن للنافذة ستارا كثيفا فأسدلته ، ووجدت سريرا فقعدت عليه أفكر ، وأدخن سيجارة لعل الله يفتح على بحيلة أنجو بها

ولم يفتح على بحيلة ولكنه فتح على الباب ودخل منه شيخ وقور أبيض اللحية وعلى رأسه عمامة كبيرة، فتنفست الصعداء وحمدت الله على أن الداخل شيخ هرم وليس بشاب مفتول الذراعين ، وقلت ان متاعب التحقيق والحبس أهون من علقة ، ورأى النور ورآنى فوقف ويده على الباب وقال :

« من أنت ؟ ماذا تصنع هنا ؟ انطق ! »

فتذكرت «الحمال» ــ أو من ظننته «حمـــــالا» وقلت وأنا أتكلف الابتسام ،

« أو كلما خاطب انسان انسانا فى هذا الحى يقول له انطق ؟ »

قال ــ وهو لا يبرح مكانه ·

« نعم انطق بسرعة · ماذا تصنع فى بيتى ؟؟ »

« لا تخف · انى هارب · هذا كل شيء »

فلم يفهم وقال « وأنا مالى ؟ مالى ماذا تصنع فى بيتى ؟ »

فسرنى اصراره على أن يسمى الغرفة بيتا ، وسألته :

« هل هناك غرف غير هذه ؟ »

قال « ألا تريد أن تقول من أنت وماذا تصنع هنا ؟ حسن سأغلق الباب وأدعو البوليس »

قلت « ياصاحبى لو كان فى هـذا الحى رجل واحـــد من رجال البوليس لما رأيتنى فى غرفتك »

قال « طبعا »

قلت « لا تغلط · فلست أعنى ما فهمت »

قال « ماذا تعنى »

قلت « أعنى انى قطعت الكرة الارضية فى حيكم هذا عدوا فلم تأخذ عينى واحدا من رجال البوليس ولا خفيرا »

قال « ولهذا دخلت مطمئنا ؟؟ هيه ؟ »

قلت « على العكس · دخلت وأنا فزع جدا »

قال « طبعا · طبعا ولماذا دخلت ؟ »

قلت « انى منذ ساعة أريد أن أفهمك انى هارب من وجه شقى لعين يتعقبنى طالبا دمى · ولم أسترح أو أشعر بشيء من الاطمئنان الا عندك · »

قال « وكيف دخلت ؟ ان الباب موصد.»
قلت « هذه حكاية طويلة » •• شققت الحائط ودخلت •• »

وفي هذه اللحظة سمعنا مثل صوت القنبلة ، وكان الستار مسدلا فلم ير الشيخ شيئا ، ولم يفهم ، أما أنا فادركت ان صاحبي طال انتظاره أن أخرج ومل وأراد أن يفثأ غيظه فتناول حجرا وقذف به النافذة فتكسر زجاجها •

فقلت « أسمعت ؟ »

قال « ماهذا ؟ »

قلت « تحطمت نافذتك •• دخلت منها وأغلقتها ورائى ، ووقف متربصا لى راصدا فى الفناء ، فلما لم أخرج رمى الزجاج بحجر ••»

وأراد الشيخ أن يدنو من النافذة ليرى ما أصابها ، ولكن بقية من الحذر ردته فسأل

« هل - يعنى ••• أنت لست لصا ؟ »

فضحكت وقلت « كيف أكون لصا وأنا كما ترى ؟؟ »

وكأنما أقنعه هذا ، وان كان لم يقنعنى أنا ، فسارالىالنافذة ونحى الستار عنها ووقف يهز رأسه

فقلت « سأؤدى لك ثمن هذا الزجاج • فان الذنب لى ، التبعــه على والان ماذا تقترح ؟ »

فالتفت ولم يتكلم فقلت

« ألا تفهم ؟ انى أريد أن أنجو من هذا الشرير الذىتعقبنى ،فكيف تشير ؟»

فخفت أن يعاوده الشك فى أمرى فعرفته بنفسى وقصصت عليه قصتى ، وشربت عنده قهوة ، وخرج معى • وأبى أن يأخذ للزجاج ثمنا

وكان أول مافعلت بعد نجاتى أن اشتريت طربوشا • أما النثر الفنى وغيره من هذه الكتب المؤذية فبقيت عند الوراق ،وستبقى عنده اذا لم يجئنى هو بها ولم يحملها هو الى ، فانى أحوج الى سلامةعظامى من أن أعرضها للدق والتهشم فى سبيل النثر الفنى أو غير الفنى

# شفته الوارمة

« تصادم ! »

« نعم · فلولا أن الله ادركنا بلطفه ، لكنت الان · · · »

فوضعت الزوجة راحتها على فمه لتقطع الكلام وقالت له ، وفي وجهها تقطيب الالم وسهوم الفزع من المصاب المتخيل « اسكت والنبي ! »

فسكت ، واطرق هنيهة ، وجعل يتحسس شفته الوارمة بأنامله ، وطافت برأسه صورة ما كان فيه من اللهو والقصف والمجـــون ، وبرزت له وجوه أصحابه وصواحبه حول المائدة ، وايمانهـــم على الكوؤوس المترعة ، سواعدهم على الخصور اللينة ، فاشمأز مما كان فيه ما احتاج اليه من الكذب على زوجته التي لاتستريب ولا تتردد فى التصديق ، وعرته هزة فانتفض ، فسألته زوجته

« مالك ؟ هل تحس بشيء ؟ »

فلم يسمعه ، وقد كذب عليها الا أن يلج فى الاختلاق ، فقال

« لا · · · ولكنى كلما تصورت . . . أ . . . الحادثة . . . ! »

فقاطعته وربتت على كتفه وقالت « احمد الله · · · واشكر فضله »

ورق له قلبها الطيب ، فقالت « مسكين ! »

فأحس بالسخط على نفسه يفور فى صدره ، وخاف أن يسـكت فينفجر بالحقيقة ، وحينئذ ماذا يكون مصيرها ومصيره ؟ فقال

« لقد ركبت الترام الى شارع فؤاد ، ومن هناك انتقلت الى الامنيبوس ، وجلست على المقعد الثالث ــ فى الدرجه الاولى ــ وكان من حسـن حظي أن مجلسى مما يلي الممر بين صفي المقاعد ، لا الى جانب النافذة

فى الامنيبوس ، ودار ليدخل فى شارع آخر ، واذا بسيارة تضربه فى جنبه فترجه ، وتنقلب هى فى الطريق ••• »

وكان يجاهد ، وهو يقص ذلك ، أن يتصور المنظر ، وأن يجعل خياله يستولى على شعوره ، وأن يهيج نفسه للاحساس به ، وكان يشير بيديه ، وهو يتكلم ، على خلاف عادته ، ويحس أن فى هذه الحركات العضلية بعض الترفيه من ضغط الشعور بالخجل والالم ، وعزت زوجته هذه الحركات التى لم تألفها منه الى اضطرابه فقالت

« ياساتر يارب ! سيارة صغيرة ؟ »

فقال « نعم – ( ووجد شيئا يستطيع أن يحول اليه النقمة التى يجيش بها صدره ، فمضى يقول ) يقودها واحد من هؤلاء الشبان المجانين الذين يظنون أنه ليس عليهم الا أن يطلقوا النفير بالانذار والتحذير ، فيخلو لهم الطريق بسحر ساحر ، فاذا مات الناس تحت عجلاتهم ، فليس عليهم ذنب ، والناس هم المسؤولون »

« وماذا جرى لهذا الشاب ؟ »

وكان السؤال فى موضعه ، ولو كان الامر حقيقة لحضر الجواب بلا عناء ، ولكنه كان يتخيل ويرتجل ، ويتم الصورة شيئا فشيئا مع سياق الحديث وتبعا لشجونه ، فقال

« جرى ؟ لقى جزاءه – أعنى لقى حتفه ! أو على الاقل ، هذاظنى ، فقد كانت سيارته مكشوفة ، فأطارته عنها قوة الصدمة ، وألقتهعلى الارض فسقط ولم يقم ، ومضى به رجال الاسعاف ، فاذا كان لم يمت ، فلا شك انه تحطم »

« وركاب الامنيبوس ؟ هل أصابهم أذى بليغ ؟ »

« لا •• الاصابات خفيفة على العموم •• رضوض على الاكثر ٩٠ وكنت أنا – كما قلت لك – على آخر مقعد فى الدرجة الاولى مما يلى الممر ،فانكببت علىوجهى واصطدمت شفتى بظهر المقعدالذى أمامى، وهو مكسو بالجلد ومحشو بالقطن أو شىء آخر يشبهه ، فكان هذا الورم ، ثم وقعت فى الممر ، على رسغى هذا ••• وقد خفت ساعتها

أن يكون هناك اصابات أو رضوض غير ذلك ، لا أشعر بها ٠٠ ولكن ٠٠ لأظن ٠٠ كلا ٠٠ لاأظن ٠٠ فالحمد لله على كل حال »

« ألف حمدله ٠٠٠ أرنى شفتك مرة أخرى »

وحنت عليه ، وأقبلت على شفته تجسها برفق ، وتقبلها بحنو ، وتزوم ، وتتمتم بكلمات الحب والعطف والاشفاق ، أو بانصاف هذه الكلمات ، وبأحرف منها على الاصح ، وهو مستسلم لها ، ويسراه على كتفها ، ويمناه على صدرها ، وفي صدره ثورة سخط مضطرم على نفسه ٠ والشيء بالشيء يذكر ، فكرت به خواطره الى حيث كان قبل ساعة واحدة ، فرأى نفسه جالسا الى مائدة مثقلة بما عليها من أكواب الشراب وألوان الطعام ، وأدواته ، والى يمينه فتاة تميل عليه وتريح رأسها على صدره ، ترفع له وجهها من حين الى حين ، لتتلقى قبلاته أو لتناول بشفتيها من فمه فستقة أو بندقة ، وكان أصحابه على مثل حاله ـ وقد شغل كل واحد بصاحبته ـ ثم يدق بعضهم الكأس فتتحول اليه العيون وتتلقى اقتراح الشراب،فتعتدل القامات بعد الميل والالتواء ، وتمتد الاكف الى الكاسات ، وترتد الى الافواه، أو تتعارض السواعد ، فالرجل يسقى الفتاة من كأسه ، والفتاة تسقى الرجل من كوبها ، وقد يتعاطيان فترشف هي رشفه يأخذها هو مصا من فمها مع ريقها ، فتسيل على شفوف الحرير قطرات ، تنفض بالاصابع فيطير منها رشاش الى العيون أو الخدود ، فيجزى المسيء بالقرص في عضده أو وركه ،فاذا كانت الفتاة هي التى أطارت القطرات ،قرصت فى صدرها وخصرها وفخذيها ،فتعلو الصيحات، وتجلجل الضحكات ، وتتقلقل الكراسى وتضطرب المائدة ، وتهتز الكؤوس كأنها هى التى سكرت ، ويكاد يهرق مافيها من الشراب المشعشع ، وينقر الخادم على الباب ويدخل لتوهمه ـ من فرط الجلبة ـ انه سمع تصفيقا ونداء ، أو ليرد القوم الى الاحتشام والسكينة بدخوله ، حرصا على سمعة المكان ، واتقاء لعواقب الاسراف فى المجون ، فتقر الضجة ، وتسكن الجلبة ، وتخفت الاصوات ، ويدور الهمس بالوعيد والانذار ، وترتسم على الوجود ـ على الرغم من السكر ـ ابتسامات متكلفة لمداراة الخجل ، ويصرف الخادم بنكتة أو بجديد يطلب منه ، فتعود الايدى الى الالتفاف بالخصور ، أو الامتداد

الى مواضع الدغدغة ، فتتقصع الفتيات ويتلوين ويتثنين كالحبل المعوج ثم يتأرن لانفسهن بشد آذان الرجال أو شعورهم ، أو قرص خدودهم أولى أنوفهم ، أو عض أكفهم ، أو دوس أحذيتهم ، ثم يحل الوئام محل الخصام - أوالسكينة محل الجلبة -بعدرجاء واستعطاف، فتستدير الشفاه للقبل المختلسة ، وتمتد النحور العاريه ، وترتفع الصدور ، للضم ، وتطوف الاكف الظهور ؛ وتنقطع الاصوات ؛ فلا يسمع الا صوت الرشف حين تتفلت شفه ، وتتذكر احداهن ان لها ثأرا عند صاحبها فتغتنم الفرصة وتطلب شفته حتى اذا تمكنت ، غرزت أسنانها فيها وعضت !

« والان ماذا أصنع ؟ كيف ألقى زوجتى هذا الورم فى شفتى ؟ »
فتضحك الفتاة التى جنت ذلك عليه ، وماذا تبالى هى ؟ ماذا يعنيها من ألف زوجة يكن له ؟ وتقول

« هو جزاؤك ! من قال لك اقرصنى ؟ لقد نهيتك عن هذا مرارا - ولكن يدك لاتنقطع ، وكأن فى أناملك ابرا ... »

فيقول الرجل متبسطا وان كان ينطوى على خنق شديد

« عرفنا ان فى أناملى ابرا ... واقتنعت - اقتنعنا جميعا -بأن القرص لا جائز ولا مقبول ، وان كان جسمك البض هو الذى يغرينى، ثم انهذه متعة الانامل، كما أناللثم متعة الفم ،واللمسمتعة الكف ، وأنا أؤكد لك ان الانامل تحب أن تشعر برقة الجلد وطراوته بين أطرافها ، ولو كانت تنطق لوصفت لك ماتجد من هذا الشعور ولكنها خرساء لاتقول ... على كل حال ماذا أصنع الآن ؟ وكيف اداري هذا الورم ؟ »

« قل لها انك عضضت نفسك ... من الغيظ مثلا ! »

« عضضت نفسى ؟ كيف ؟ أمجنون أنا ؟ ثم أن هذا غير صحيح!»
« وما الفرق بين كذبة وأخرى ؟ أليس كله كذبا ؟ »

فسكت ، وبدا ينكر من نفسه هذا السلوك ، الذى ترك فىشفته دليلا ماديا على سوئه ، وانقضت السهرة ، وتفرقوا ؛ ومضى كلالى

بيته وكان صاحب الشفة الوارمة وهو في الطريق يفكر عبثا فيما يخرجه من هذه الورطة ، ولم يكن يحب الكذب أو يرتاح اليه ، لانه عنده نقص في المروءة والرجولة والكرامة ، ولكن هذه الجلسة أحوجته الى تلفيق شيء يسوغ به غيابه ساعات عن البيت ويعلل ما يفوح من فمه من ريح الخمر ، ولم يكن شابا فيعتذر بشبابه ، وجعل يقول لنفسه وهو عائد ان الشباب هو مطية الجهل وانه زمن الاحلام والخيال ، والتعلق بالمثل العليا ، في الحياة ، والشاب لايفكر في الموت ولا يجعل اليه باله ، لان عباب حيويته زاخر ، ولذلك يكون سلوكه في الحياة سلوك من يعرف ويوقن أن مدتها متطاولة وان رحلتها لاتنتهي ، فلا يرى من تضييع العمر أن ينفق الايام في الاحلام والاوهام ، ثم يذهب الشباب ، وتذبل نضرته ، وتفتر الحيوية وينقطع مددها ، فيبدأ المرء لايحس أن الدنيا تولى عنه ، ويشعر بانقضاء الايام ، ودنو الاجل ، وأن كل يوم عاشه هو في الحقيقة يوم ماته ، ويدرك ان ما بقي له في الوجود محدود – محدود مهما طال وامتد – فتنازعه نفسه أن يقبل على الدنيا المدبرة ، كما لم يقبل عليها في صباه اذ كانت لا تزال مقبلة ، ويروح ينشد اللذة والمتعة – لذة العيش ، ومتعة الجسم – اللتين سيحرمهما لامحالة ، عاجلا أو آجلا ، ويلح في طلب ذلك لانه منه على وداع • وتختلف في نظره معاني الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، ويتغير مدلول العفة – في نفسه وفيما بينه وبينها – حتى وان لم يؤثر ذلك في سيرته أو يفضي الى تغيير في سلوكه • وبعد أن كان في شبابه ينعم بتخيل الحياة في صورها الجميلة او الرفيعة أو الكاملة ، ينقلب يطلب الحقائق والمادة والمحسوس •

ولم يكن وهو يدير هذه الخواطر في نفسه يحاول ان يعتذر بها ، أو يبرر سلوكه ، وانما كان يفكر في ذلك اشتباهه ، وهو سائر ؛ ليهرب من مواجهة ضميره ؛ وليجد مايشغل عقله به ويصرفه عن حماقته في ليلته ؛ وكان من البديهي أنه لايستطيع أن يصارح زوجته بالحقيقة • أو أن يتكلف الاعتذار اليها ؛ فلن تقبل منه لا الحقيقة ولا معاذيره ، فلا مفر من اختلاق سبب يكون مقبولا لهذا السهر

ولما أعقبه من ورم شفته ، وأحس وهو يحدث نفسه بذلك أن حياته صارت بوجهين وان لسانه سيجرى بخلاف مافي ضميره ، لو تيسر ان يقر بالحقيقة لرفه ذلك عنه ولخفت وطأة الشعور بأن حيـــاته مبطنة بالزور والكذب

وكذب ، وصدقته الزوجة ، آلله انها صدقته ،ان الشكلم يخالجها في جرف مما قص عليها • وود لو أنها جنحت الى الاسترابه وتلقت حكايته بالشك • ولكنها آمنت ، لانها ساذجة ومحصنة •وماذا تعرف المحصنات من دنيا ما أكثر مافيها من الباطل والفجور ؟

واستيقظت في هذه اللحظة بنته الرضيعة ، كانت وحيدته ، فحملتها أمها وجاءت بها اليه على ذراعها ، وجعلت تلاطفها وتلاعبها وتناجيها حتى ابتسمت ، ثم البستها طربوش ابيها فغطى وجههـا الصغير كله ، فضحكت الام ، وتكلف الاب الضحك ، وفي قلبه مثل السكين ، ولثم خد ابنته ؛ فتحير الدمع في جفنيه ، ولمحت زوجته ذلك فسألته بلهفة

« مالك ؟ »

قالت « كادت هذه الصغيرة تفقد أباها الليلة ؟ »

فصاحت الزوجة « ألا تكف عن هذا الكلام المؤلم ، قل الحمد لله ياشيخ ! »

فقال « انما أعني انها كادت تفقد الابوة المدركة لواجباتهــــا ، العارفة بتبعاتها ، الناهضة بها على وجهها ــ لاأباها بالذات •••• على كل حال الحمد لله ! »

فقالت الزوجة « هذا أحسن ••• يجب أن تحمد الله دائما »

قال « نعم ، الحمد لله »

قالها بقلبه ، فقد انتهى الصراع العنيف بين واجبه ، كما يدركه، وشهواته كما يحسها ، في كهولته التي كاد طيشها يغلب حكمتها ، وكان الفضل في ذلك لاللعقل بل لهذه الرضيعة التي لاتفهـــم من الدنيا الا أنها ثدى أم •••

# صعى فى الخير

« تفضلوا ! »

ولم يكن فى غرفة الجلوس غير اثنين ، ولكن « أنيسة » على كثرة ما حفظت من الادوار للتمثيل كانت كثيرا ما تخطىء فتجمع ما حقه التثنية ، وتنطق القاف كافا ، والثاء سينا ،وربما جعلت السين ثاءا

فقلت ـ وكنت أحد الاثنين اللذين « جمعتهما » ـ « الى أين ان شاء الله ؟ »

فلم تكترث لى ، ونظرت الى صاحبها ـ وصاحبى ايضا ـ وكان خطيبها ، كأنما كان هو الذى سألها :

« الى سينما ... »

فسألتها « مع من ؟ »

فردها السؤال الى ، وقالت « مع أحمد بالطبع »

فقلت لاستوثق « مع أحمد ؟ »

قالت « نعم . لقد وعدنى ... »

وكان موقفى حرجا ، فقلت على سبيل التمهيد لماجئت مع صاحبى له « وأنا ؟ ماذا أصنع بنفسى ؟ »

قالت « وانا مالى ؟ اذهب حيث تشاء »

قلت « ياصاحبتى .. اسمعى منى ، خير لك أن تجيئى معى ، وتدعى احمد هذا يذهب الى حيث يشاء »

قالت « ايه ؟ »

قلت « تمام . تهملينه وتضعى ذراعك فى ذراعى »

فقالت « لاتمزح من فضلك ... قم ياأحمد »

فتنحنح أحمد ، فنبت أنا عنه حتى يزيل ماوقف فى حلقه

« لقد تهيأ احمد ، ولكن للعدول عن الذهاب »

فقالت « ولكننى تهيأت للخروج »

قلت « ظاهر »
قالت « اذن قم » لاحمد

فتحرك فى مقعده وعاد يتنحنح ، فسئمت هذه المحاورة وقلت

« اسمعى . انى أريد أن أقول لك كلمة »

قالت «ولهذا رغبت فى مرافقتى الى السينما ؟ »

قلت « لا ... انمـا كنت أريد إن ارافقك لالهيك ، وأسليك ، وأرفه عنك ، وأخفف وقع الصدمة ، والطف البلاء الذى لاأستطيع دفعه ... »

فصاح أحمد مقاطعا « ياأخى ماهذا الكلام ... ؟ »

فلم أعبأ به ولم أشك فى أن الحسد هو الذى دفعه الى الاعتراض،

وهل كان يطلب معونتى لو كان يعلم أن لهمثل كياستى ؟ ومضيت فى كلامى

فقلت « نعم ، فانى مشهور بالقدرة على ذلك والبراعه فيه ... »

فقاطعتنى هى : « ولكن ما هى الحكاية ؟ »

فقلت لنفسى ، « على نفسها جنت براقش ، ومادامت قليلة الصبر فلألقها — أعنى الحكاية — على حجر »

وقلت لها « ان أحمد لن يرافقك بعد اليوم الى السينماأوغيرها.. سيعود فى الصباح الى بلدته ، الى القطن والدودة و ... »

فصاحت « ايه ؟ »

قلت « بالضبط »

قالت « يعنى لاينوى أن يتزوجنى ؟ »

قلت « لقد أدركت مراده بذكائك وان كان ـ أعنى أحمد لاذكائه ـ كالكرسى لاينطق ، وأعربت عنه ـ أعنى عن مراده ـ أحمـــد لا الكرسى ـ بألفاظ لاتنقصها الصراحة اذا نقصتها اللباقة والكياسة »

فلم يبد عليها أنها تأثرت بهذا الثناء الجم ، وقالت

« ويظن أنى سأدعه ينهب ؟ »

قلت « هذا رجاؤه واسمعى ٠ان حياة الريف لاتلائمك ،ياانيسة، ليس فيها لامراقص ولا مسارح ولا سينما و ليمونيـا ولا جروبى ولاحتى مناسبات للتزين ولبس هذه الثياب الانيقة ٠٠٠ ستشمين فى بيته المبنى من الطوب الاخضر ـ اعنى الاسود ـ رائحة البــقر والاغنام والدجاج والحمير أيضا بـــدلا من العــطور والكولونيا ٠ وستسمعين نباح الكلاب ونقيق الضفادع فى الليل الساكن بدلا من الموسيقا ، واذا اشتقت الى الازهار فلن تجدى غير الفجل والجرجير٠»

فقالت وهى تحدجنى بنـظرها : « يعنى أنا لا أستحق أن أعيش معه هناك ؟ »

قلت « الامر على النقيض ، ثم انه كما تعلمين مغفل لا يصلح لك انت الفتاة الرقيقة الرشيقة ٠٠٠ »

فصاح أحمد « ما هذا الكلام الفارغ ؟ »
قلت « فارغ ؟ » وغضبت

ولم تجعل هى بالها الى ما ساءنى فواجهت أحمد وقالت

« مفهوم ! ومن هى التى ستحل محلى يا ترى ؟ »

فاضطرب احمد ـ لغير شىء ـ وقال ـ « لا أحد ٠٠٠ ليس هناك أحد ٠٠٠ ثقى ! »

وكان صادقا ، ولكنها أصرت على أن امرأة أخــرى استولت على

هواه وعلى مكانها ، وألحت عليه أن يخبرها باسمها ، فأعاد النفي وأقسم وأبت هي أن تصدق فقلت ، وفى ظنى أن هذا قد ينقذ الموقف ويحل الاشكال

« قل لها يا أخى ... خلصنا »

فدقت يدا بيد وصاحت « آه ! بالطبع ! لازم ! »

فوثب أحمد وواجهني وقال « ما هذا المزاح البارد ؟؟ انك تعلم أنه ليس هناك أحد ... »

وقاطعته هي قائلة « ومن أجلها تريد أن ترميني كالـ ... »
ولم يسعفها الخيال ، فأسرعت الى نجدتها ، كما هو الواجب ، وقلت « كالحذاء القديم »

فأخذت من فمي وقالت وهي ذاهلة « كالحذاء القديم » ثم كأنما أغضبها شيء ، لا أدرى ماذا ، فصاحت بى « اخرس انت »

ورجعت الى أحمد فقالت « ما شاء الله ! وتظن أنت وهى آن فى امكانك ( كذا فى الاصل ) أن تنبذنى كأنى ... »

وخانها الخيال والبيان مرة أخرى فتوقفت ، فبادرت الى نجدتها وقلت ملقنا

« علبة سردين فارغة »
فصرخت « اخرس ! »

قلت « خرست »

فقالت « مستحيل ... لو صعدت الى السماء لما هربت منى .. وسترى أنت وهى أيضا ... »

فقاطعها أحمد محتدا « ياستى قلت لك ألف مرة وحلفت أنه ليس هناك أحد ... »

فلم يبق بد من الدخول بينهما فقلت
« ألم أقل لك انه مغفل ؟؟ ريفى مغفل لا يصلح لك ، فدعيه لها »

فغضب أحمد وصاح « ماذا تعنى بهذا الكذب والمزاح البارد ؟ »

فسألته « ألست مغفلا ؟؟ ألم تقل لى ونحن آتيان الى هنـــا انك مغفل وأحمق وقليل العقل أيضا ؟ ألم ترجنى أن أصحبك لاخرجك من هذه الورطة ؟ هيه ؟ »

فصاحت أنيسة « آه · تريد أن تتلخص منى ؟؟ أنا ورطة؟ هيه ! طيب · ! »

وهمت بأن تهجم على أحمد ، كما هجمت ألف مـــرة على مدير الجوقة وأوسعته – أعنى المدير لا أحمد – ضربا بالحذاء ، فتعرضت لها وحلت بينهما ، ولم تكن لحسن حظى قوية أو ضخمة ، فـــلم يتعذر رد عاديتها فحولت نقمتها الى الاكواب والفناجين وضربت بها الارض – أعنى السجادة – ولمـــا نفدت هذه الذخـــيرة انتقلت الى الصور والتحف والطرف الصغيرة التى تزين الغـــرفة ، وأقبلت الخادمة على أصوات هذه القذائف ، ولم تكد تظهر فى الباب حتى تطرحت « أنيسة » كالسكرى فلولا أن الخادمة أدركتها وتلقتها على صدرها – بين ذراعيها – للحقت بقذائفها

وقالت الخادمة « على بالماء ! »

وقال احمد « أين الكولونيا ؟ »

فقلت « ضعوا فى أنفها « شطه » فانها سريعة الفعل »

وقالت الخادمة « ماذا أصنع ؟ ساعدونى ؟ »

فقلت مقترحا « أجلسى على صدرها ··· أو على فمها »

فصاح أحمد « ماذا تصنع هنا »

فقلت : مستاء « أنا ؟! »

قال « نعم أنت ! اذهب وهات طبيبا ! »

قلت « فكرة ! »

وقعدت أفكر فى ذلك فاخرجت سيجارة واشعلتها ، وبصر بى احمد والخادمة غارقا فى لجج الفكر ، فاخليا لى الجو واحتملا أنيسة،

ودخلا غرفة النوم ، وطرحاها على السرير ـ أو لا بد أن يكونا قد فعلا ـ ثم خرجا واحدا ـ أو على الاصح واحدة ـ في اثر الآخر ، وخلفاني وحدي في هذا المسكن مع تلك التي تتصنع الاغماء ٠

فقلت لنفسي « لا بأس » وأرسلت دخان السيجارة ، سنرى ـ كل شيء في أوانه ـ ثم خطر لي آن أنهض وأنظر ما تصنع هذه المرأة بعد أن أيقنت أنها وحدها وأن العيون ليست عليها ، ولكني رددت نفسي ولزمت مكاني ، غير أن عيني انثنت الى بابها عفوا فاذا هي فيه واقفة تنظر الى ، وتبتسم ٠ فلم يدهشني ذلك لأني كنت موقنا أن هذا الاغماء تصنع ، وهو على كل حال « فن » تتقنه النساء ويحذقنه جدا

فقلت « تعالى ! تعالى ! لا تخافي فقد خرجا »

فاقبلت ضاحكة وسألتني « أين ذهبا ؟ »

فقلت « ألا تعلمين ؟ لقد كان تمثيل الدور متقنا جدا ـ كالعادة ـ فذهبا يجيئان بطبيب ٠٠٠ ومن يدرى ؟ اني أخشى أن يجيئا بمستشفى كامل ـ من أطباء وممرضات وآلات ٠٠٠ فان أحمد كما تعرفين ، مجنون »

قالت « أليس كريما ؟ »

قلت « دعي هذا ، فلست مستعدا أن أنظم فيه شعرا ، وقولي ماذا تنوين أن تفعلي الآن ؟ »

فسألتني ببلاهة « أفعل ؟ »

قلت « نعم ٠ سيجيء المستشفى بعد قليل »

قالت « أوه ! آه ! صحيح ! ولكن وماله ؟ اني مريضة والله ٠ أحس هنا ٠٠٠٠ »

فتناولت يدها وقاطعتها ـ أعني قطعت كلامها ـ
« على مهلك ٠٠ العجلة من الشيطان ٠٠ وأنا لست مستشفى ولا حتى طبيبا »

فضحكت ، فقلت « هذا أحسن . والآن هيا بنا »
قالت « الى آين ؟ »
قلت «نهرب من المستشفى ومن المجنون الذى ذهب لينقله الى دارك»
قالت « ولكن سيجيئون فما العمل ؟ »
قلت « نكتب ورقة بالخط الكبير ونلصقها على الباب »
فسألت « ماذا نقول فيها ؟ »
فضجرت وقلت « أوه ! أى شىء .. هاتى ورقة .. بسرعة »
فجاءت بورقة صغيرة فنهضت ، وأنا أمزقها ـ أعنى الورقة ـ وقلت :
« هذا طابع بريد ـ على كل حال لاداعى لكتابة شىء .. قومى بنا »
فقالت وهى تنظر الى قطع الورقة الممزقة على السجادة « يعجبك هذا ؟ »
قلت « تعالى ! سيجمعها الذى سيجمع الاكواب والفناجين المكسرة .. »
وخرجت بها ، فلما صرنا فى الطريق سألتنى
« الى أين بنا ؟ »
قلت « أوه ! الى جهنم . الدنيا واسعة ، ما هذه البلاهة ؟ »
فغام وجهها قليلا وسألت « وأحمد ؟ »
فقلت « أما انك لبلهاء ! جهنم أيضا واسعة كالدنيا »
فأقبلت على بمثل وجه الصبى الغرير وسألتنى :
« هل صحيح ما قلته »
قلت « ماذا ؟ »
قالت « الفتاة الاخرى ؟ »
قلت « انظرى ... كم امرأة ترين فى الطريق ؟ »

قالت « كثير •• » قلت « وفى الدنيا ؟ » قالت « أكثر »

قلت « وأنت وحدك الجميله الفاتنة ، ونساء هذه الدنيا كلهن ميمات ثقيلات بغيضات ••؟ »

قالت « بالطبع لا •• ومن أكون أنا ؟ »

قلت « انتهينا اذن •• »

قالت « انك فظ »

قلت « من بعض ما عندك ياستى »

قالت « سامشى وحدى »

قلت « فى وديعة •• الله ! ولا تنسى أن تكتبى »

وافترقنا ، وحمدت الله على هذه النتيجة ، ومشيت على مهل أفكر فى أحمد وأين يمكن أن أجده ، واذا بها مقبلة تعدو ، فوقفت مبهوتا، فقالت

« أحمد •• أحمد أهه •• على الافريز الآخر »

قلت « اذن اهربى .. انجى بنفسك .. أدخلى أول سينما فى الطريق .. ودعيه لى »

فسألتنى « ولكن لماذا ؟ »

قلت « انه مجنون ! ولا بد أن يكون الان كالبركان الثائر ، وله العذر »

وتركتها وعبرت الطريق ، وأدركت أحمد وقلت له وأنا أجره من ذراعه

« تعال ! »

فصاح « ايه ؟ انت هنا ؟ أين أنيسة ؟ »

قلت « تعال •• لتراها »

وأركبته سيارة ، الى المحطة ، وقلت « هات ثمن التذكرة فان الطبيب لايدفع الى المريض ثمن الدواء »

ولم يجلده ما شرع يحتج به ويتعلل ، وكان لى عليه دالتان : دالة الصداقة ، ودالة الاستاذ على تلميذه القديم ، فلما جلس فى المركبة قال لى من النافذة

« أتذكر كيف كنت تعاملنا فى المدرسة ؟ انك لم تتغير أبدا ·· ومازلت مستبدا كما كنت

فقلت « أشكرك ··· لم تكن بى حاجه الى الاستبداد لولا انك مازلت طفلا »

ودق الجرس ايذانا بالسفر فودعته وقلت له

« مع السلامة ·· لا تعد ·· »

وفى الصباح ارسلنا له الحقيبة



obeikandl.com

# فلتة . . .

دنا « عيد الميلاد » وآذنت ليلته بما تؤذن به كل عام من أنس ولهو ،وازينت الدكاكين وحفلت بكل مغر من الهـــدايا واللعب ، وأقبل الناس عليها يحملون منها ما تحتمل مواردهم أن يؤدوا ثمنه ، وتزاحم الرجال والنساء على المعروض يقلبونه وينتقون منه ، وقل من هؤلاء وأولئك من يدري ماذا يبغي ، فالاكثرون يدخلون الدكاكين لينظروا ويتأملو ، ثم يخرجون ليتريثوا ويشاوروا نفوســـهم ، والشبان يضربون في زحمة النساء عسى أن يتاح لهم أن يركبوا بشبابهم ما يركب ، فمن أخطأته فرصة الاتصال لم تخطئه متعـــة النظر ، والفنيات يتجمعن حيث يكون الفتيان ، وتعلو ضجتهن ويكثر ابتسامهن ، وضحكهن ، وتلفتهن ، وتنقلهن ، ولحظهـــن الرجال وكأنهن لايبصرنهم ، وما من أحد الا وهو يحلم بليلـــة يرسل فيها نفسه على السجية ، ويقول ويفعل ما يغري به انس المحل وحميا الكاس وحسن الرفقة

وكان « ش » يطوف كغيرة بالدكاكين وينظر ، ويفكر ، ويفرك جبينه ، وهو لايعنيه من عيد الميلاد وصجته الا هدية يشتريهـــا لصاحبة له ، أو لمن يطمع أن تكون صاحبة له ، ولم يكن يحبها ، ولا كان يعرف ما عندها له . ولكنها فتاة صابحة الوجه مشرقـــة المحيا ، وهو كهل قد مل حياته الآلية بين البيت والمكتب ، فاشتهى أن يرقرق على وجوده الجاف قطرات من ماء الجمال ، عسى أن يلين كيانه ويطرى ، ويصد النوى الذى يحسه يشيع فى عوده ٠ فتودد اليهـــا حتى أنس ، وسكنت هي اليه وأطمـــأنت ، ولكنه كان رجلا فيه احتشام ، وقد راض نفسه على كبح غرائزه وضبط أعصابه ، حتى ليكون فى جوفه مثل البركان الثائر ، وليس على وجهـــــه مايشى بما يخفى من التمزيق والتفطر ٠ فلم يعد الأمر بينهمـــا الحديث العف والنظر البرىء ، وخيل اليه ــ من فرط سخطه على نفسه وانكاره منهـــا العجـــز عن مطاوعة هواه واطلاق أعصابه ممـــا

صفدها به والزمها اياه ـ نقول خيل اليه ان الفتاة تنظر اليه نظرها الى أخ أكبر بل الى أبيها ، وكان ربما شق عليه ذلك فيهم بأن يقول بقلبه أو يمد يده الى ذراعها أو صدرها فلا يكاد يصح عزمه حتى ينكص وترده عادة الكبح عن الانطلاق

ولم يكن له عهد بهذه المجاملات الاجتماعية ، ولم يكن يدرى أى هدية يختار ولا كيف يقدمها ، لأنه كان يعيش مع نفسه أكثر مما يعيش فى الدنيا بين الناس ، وكانت فكرة الاهداء تثقل عليه لالكزازة فيه فما كان للمال عنده ـ على قلة حظه منه ـ قيمة او وزن ، ولكنه كان يرى فى التهادى معنى من المداجاة أو المصانعة والتكلف لا يرتاح اليه ولا يرضى عنه ولكنه كان قد سئم أسلوب حياته وآلى أن يغيره وينفى عنه بواعث الملالة ، فلم يبق مفر من أن يفعل ما يفعل الناس ما دام قد اعتزم أن يحيا كما يحيون

وطال اختلافه الى الدكاكين وتردده فى الاختيار ، فحدث ما يحدث عادة فى هذه الأحوال • ذلك أن طول التفكير ليس من شأنه أن يعين فى كل حال على حسن الانتقاء ، فقد يذهب الضجر أو الحيرة بصحة التمييز ، وقد كان ـ ضجر الرجل وضعف تمييزه ولم يعد يفرق بين شيء وشيء ، واستوى عنده الموافق وغير الموافق، واشتاق أن يفرغ من هذا الأمر ويرتاح من عناء ما تكلف فقال لصاحب الدكان ـ أو العامل ـ

«معذرة • لقد أتعبتك • ولكنى لم يبق فى رأسى عقل ، ولا فى عينى نظر • ولست أحب بعد أن أرهقتك بنقل كل ما على الرفوف ، ان اذهب كما جئت • وأنت تريد أن تبيع وأنا أريد ان اشترى • وكلانا جاد مخلص • ولكنى فقدت الارادة وضل رأيى ، فهل لك أن تعيننى وان تتولى عنى الاختيار لى ؟؟ فما أشك فى أنك أعرف بذلك وأحذق فيه ، ولا أكمتك انى أجهل الناس بهذه الامور »

فقال البائع « على عينى • وحبا وكرامة فلمن الهدية ؟ »

قال الرجل « لفتاة »

فسأله « متزوجة ؟ »

قال « كلا . »
قال « فان الامر رهن بمنزلتها عندك . فما محلها من نفسك ؟ »
فشعر الرجل كأنه على كرسى الاعتراف أمام راهب أو قسيس، وكره أن يتحدث الى هذا الغريب بما تنطوى عليه أضلاعه ، ولكنه لم ير بدا من كلام يقوله بعد أن وكل اليه الامر ، فقال

« صديقة »
فألح عليه البائع « يعنى حبيبة ؟ »
قال الرجل مصرا « صديقة »

فلم يطق الرجل هذه اللجاجة فقال « ياسيدى هى صديقة ، لا أكثر ، نعم هى صديقة عزيزة ، ولكن الحب لا يخطر لى ، ولا محل له بيننا فاذا كنت تنوى أن تساعدنى فافعل ، والا فدعنى أذهب ، واعفنى من هذه الأسئلة »

فاعتذر الرجل بأنه ما أراد أن يعلم ما يعين على اختيار هدية لائقة ، وجاءه بشملة بيضاء ، فاستخفها صاحبنا ، فعرض عليه أخرى أنفس وأثقل ، فردها ورجا منه أن يجيئه بثالثة غير بيضاء فأنبأه أن هذه الشملات المفضضة لا تكون الا بيضاء أو سوداء ، والبياض للعذارى أما السواد فللمتزوجات ومن هن فى حكمهن

وكان ينبغى أن يختار البياض ، فان صاحبته فتاة عذراء غضة السن ولكن روح الكهولة وطبيعة الاحتشام رجحا السواد فخرج به

ولقى صاحبا له يعرف قصته ، فسأله عما بيمينه ، فأخبره ، وكشف له عن الشملة . فنظر اليها صاحبه مليا ، وأحس « ش » أن اعتراضا يدور فى نفسه ، فسأله « ما رأيك ؟ »

قال « جميلة . ولكن لماذا اخترت السودا ؟ »

قال « لا أدرى سوى انه كان أوقع فى نفسى »
قال « ولكن الهدية لها لا لك »
قال « والرأى الآن ؟ »

قال « تحملها اليها وتعرضها عليها وتسألها عن رأيها فيها فاذا جاءت موافقة فبها ، والا فأبدلها »

قال ببلاهه « ولكن كيف أطلب رأيها فى هدية لها ؟ »

قال « وأى بأس هناك ؟ ربما كان عندها شبهها فتؤثر شيئا سواها والاستشارة فى هذه المواطن مألوفة ولا عيب فيها »

فحمل « ش » الشملة ومضى بها الى صاحبته ، وأقبل عليها يتكلم فى كل شىء الا ما جاء له ، وكانت هى تنظر من حين الى حين الى هذا الشىء الملفف فى الورق وتحدثها نفسها بأنه لها . ثم ترى انصرافه عن هذا الشىء واغفاله كل ذكر له فيكبر فى ظنها أنها مخطئة وتجاريه فى هذا ، ثم آن أن ينصرف ، فنهض وتعمد أن يتناول اللفافة من غير أن ينظر اليها وهو يمد يده . فلما صارت كفه عليها تحسسها بأصابعه حتى لمست طرف الورقة فجذبها من هذا الطرف فارتفعت الورقة فى يده . وهوت الشملة الى الأرض

فانحنت الفتاة وتناولت الشملة وقالت وهى تتأملها

« ما هذا ؟ »

قال « هديه لصاحبة . أتظنينها لائقة ؟ »

قالت « انها جميله . ولا شك انها نفيسة . ولكننى لا أستطيع أن أعرف هى موافقة أم غير موافقة ؟ »

قال « كيف ؟ »

قالت « أهى متزوجة ؟ »

قال « كلا . فتاة فى مثل سنك . »

قالت « اذا يحسن أن تختار لها غير السواد »

قال « لماذا ؟ »

قالت « وقار .. واحتشام .. غير أن السواد أقرب الى روح الشباب »

فلف الشملة فى ورقها وخرج ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب ، وهو صائم فرجع الى بيته ليفطر مع زوجه وأبنائه وأقبلت عليه زوجته تسأله لماذا تأخرت ؟ وتناولت منه اللفافة

لتحملها عنه . فمد لها يده بها في صمت ، فأخذتها وفتحتها ثم رفعت اليه وجها ينضج فيه السرور وألقت اليه نظرة شكر ورضى ، فابتسم ، فقالت « لى ؟ »

قال « ولمن تكون غيرك ؟ »

قالت « كيف خطر هذا ببالك ؟ ليس من عادتك أن ٠٠ »

قال « عادتى ؟ أوه ! لاتكونى بلهاء ! لقد رأيتها وأنا أتمشى ، فاستحسنتها ٠٠ ولماذا لا أشترى لك شيئا ؟ هل تعجبك ؟ »

قالت « بالطبع ٠٠ وانى لشاكره »

★ ★ ★

وفى اليوم التالى ، عاد الى الدكان فاشترى شملة بيضاء مفضضة وكانت أكبر من السوداء وأثمن وأجمل ، فسخط على نفسه وشق عليه أن تكون هديته لصاحبته أنفس مما اعطى زوجته ، فوقف أمام الدكان ــ على الافريز ــ يحاور ضميره الذى أبى أن يكف عن الوخز ، فارتد الى الدكان فاشترى شمله أخرى بيضاء ٠ وبعث بواحدة الى صاحبته مع التحيات والتهنئات ، ومضى بالاخرى الى زوجته فقالت

« ماهذا ؟ ماذا جرى لك ؟ »

فسألها « أو يسوؤك انى اشتريت هذه لك ؟ »

قالت « بالعكس ٠٠ ولكنى مستغربه ٠٠ ليس من عادتك أن تشترى شيئا ٠٠ اول ما شطح ، نطح »

قال « هى فلتة ٠٠ لاأظنها تتكرر »

قالت « لماذا ؟ لاتقل هذا ٠٠ انه يسرنى أن تشترى لى ما يعجبك»

قال « أعلم ذلك ، لكنى لا أحسن هذا ٠٠ هذا ٠٠ هذا الفن »

قالت « تعلم »

قال « بعد هذه السن ؟ لا ياستى ! هى فلتة ٠٠ وانتهى الامر »

وأمسك ٠ وفى صدره معنى غير الذى فهمته زوجته

## تنبيهان

- ١ -

بين « صور من الامس » فصل كان حقه أن يكون بين « صور من اليوم » ، ولكنى غلطت ، و تسرب هو ـ لا أدرى كيف ؟ ـ الى غير موضعه • فلا بأس ! أليس كل يوم هو الأمس ، غدا ؟!؟

- ٢ -

كان الفراغ من طبع الكتاب فى مثل اليوم الذى ولدت فيه ، اذا صدقت شهادة الميلاد ـ وعلى ذكرها أنبه المؤرخين والنساء الى أنها لاتزال فيما ارجو محفوظة فى وزارة المعارف منذ تركتها

فالى القراء منى تهنئة مزدوجة !

**ابراهيم عبدالقادر المازنى**



obeikandl.com

| | | |
|---|---|---|
| رقم الإيداع | | ١٩٩٧/٤٢٩٠ |
| الترقيم الدولى | 977-02-5410-X | ISBN |

١/٩٥/٤٢

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )

obeikandl.com